من أسرار النظم القرآني

دراسة بلاغية تحليلية لسورة الحج

دكتور

محمد علي أبو زيد

مدرس البلاغة والنقد - بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار الأرقم

للطباعة والنشر والتوزيع بالزقازيق



وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

«صَدَقَ اللهُ العَظِيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة



الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأستمد منه العون والتوفيق ، وأسأله تعالى العصمة من الذلل والخطأ ، وأصلى وأسلم على خاتم رسله ، وأفصح من أبان عن الله مراده ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأبرار ، وأتباعه السالكين منهجه ، والعلماء من بعده إلى يوم الدين .

وبعـد

فإن القرآن الكريم : قد شغل العقول ، وبهر النفوس ، واستولى على الأفئدة منذ نزل إلى يومنا هذا ، وسيظل ذلك حاله أبد الدهر : عذب المورد ، سخى العطاء ، كريم الفيض ، تتوارد عليه العقول ، وتتعاقب عليه الأفهام ، جيلاً بعد جيل ، ويبقى هو فوق كل جهد ، وأبعد عن كل تناول وأنأى عن كل طموح ، وذلك من أسراره الكبرى ، ومن آيات إعجازه الباقية والخالدة على الزمن ، ليظل مطلوب التدبر ، وإعمال الفكر حول رموز ألفاظة ، وخصائص تراكيبه ، قائما ماثلاً أمام كل ذى عقل وجهد ليستبصر مقاصده ، ويستشرف بعض أسراره ولطائفه



وإذا كان من المعلوم والمسلم : أن القرآن الكريم عربى الحرف واللفظ والتركيب أصلاً ، فمن المعلوم المسلم ، أو مما ينبغى العلم والتسليم به كذلك : تفرد حرفه ولفظه وتركيبه وجمله بخصائص ، تدرك ، أو تلمح أو يهدى إلى شئ منها : حسن البصر بالمواقع والسياقات والمقامات والقرائن وأغراض الكلام ومقاصده ، ذلك أن الحرف والكلمة والجملة فى القرآن الكريم ، لا يفهم شئ منها على وجهه الصحيح بمعزل .

ومن هنا فحين اذن الله تعالى وشرفنى بأن أكتب شيئا فى التفسير فقد اتجهت إلى محاولة فهم المعنى والغرض على هدى من خصائص النظم الحكيم وإشارات ألفاظه وإيماءات تراكيبه ، وهذا فيما أقدر من خير المناهج التى ينبغى أن تسلك فى محاولة القرب من فهم وتدبر هذا الكتاب العزيز ، وهذا لا يغض أو ينقص من فضل كل جهد بذل مهما كان اتجاهه ، ما دام صادراً عن خلوص نية ، فإن كل منهج قد حصل صاحبه اداته لا شك مفيد فى هذا الباب .



والحق أنى لم أعمد إلى سورة الحج إنما كان الغرض أصلاً أن أقارب من هذا الباب الذى تعلقت به النفس ، وشغل به عقلى منذ إنعام الله تعالى على بحفظ القرآن الكريم ونيل قسطاً من التعليم الدينى ، ثم شاء الله سبحانه أن أحصل قسط آخر من العلوم العربية وآدابها ، الأمر الذى كان من ورائه مزيد الرغبة والقرب من هذا الجانب من التفسير ، وما يتصل به من قضايا ومسائل ، حتى لقد صارت كل قراءة لدى : توجه وتنصرف إلى ذلك الإتجاه ، ولكن بعد أن هدانى الله إلى سورة الحج ، وحصلت قدراً من القراءة مما كتب حول تلك السورة المباركة : تبين أن تلك السورة الكريمة على حدتها : عجيبة من عجائب القرآن ، ذلك أنها قد جمعت كل تلك الضروب التى اهتدى اليها أهل علوم القرآن بتفسيره وقضاياه ، فقد جمعت بين المكى والمدنى وما نزل من القرآن ليلا ، وما نزل منه نهارا ، والنازل منه فى السفر ، وما نزل فى الحضر ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه [1]

كما أن تلك السورة المباركة قد اشتملت على بعض الألفاظ والتراكيب والاستعمالات التى تفردت بها فلم ترد فى غيرها من نحو لفظ

---

(١) ينظر غيث النفع صـ ٢٩٥

(التفث) [١] وتلك الكناية البليغة : (ثاني عطفه) [٢] وذلك المثل البليغ فى بيان حال المشرك : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) ... وكذا هذا التمثيل المبين لحال أولئك المنافقين العابدين الله على غير وثوق : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ... [٣] ثم ذلك المثل الجامع والمبين على نحو بليغ حال ما عليه تلك الآلهه المزعومة من تمام العجز وبالغ الضعـف فى مقابل ما عليه حاله تعالـى من تمام القدرة : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) [٤] إلى غير هذا مما سيتضح فى مواقعه إن شاء الله تعالى .

كما يجب التنبيه كذلك على أن تلك السورة المباركة قد جرت على نحو من الاستعمال فى بعض المواقع على نحو بدا معه بعض علمائنا ، مما يحسن الظن بأمثالهم كثيراً وكأنهم فى حرج لمخالفته ظاهر ما أصطلحوا عليه من قواعد ، حتى لقد صار مطمحهم لا يجاوز حد تصحيح الاستعمال القرآنى فى ذاته دون محاولة إستبصار ما فيه من بلاغه ، وحسن ملائمته لخصوص سياقه ، وأغراض الكلام معه ، فحادت أفهام وجارت أقلام ، وفرط ما كنا نود أن لا يكون خصوصاً ما ألفيناه يقع من بعض الأئمة فى اللغه والتفسير والمشتهر عنهم كشف أسرار التأويل ومن هنا وجدنا الخلاف شديداً ، والتخويجات متعددة وأكثرها لا يخلو من تكلف أو جراءة على كتاب الله ، مع أن الأمر فى الحقيقة أهون من كل هذا الذى تكلفوه فى أمثال التخريج لدخول اللام على اسم الموصول فى قوله تعالى : (يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه ..) [٥]، أو إعادة ذكر : (إن) المؤكـدة مع جملة الخبر : (إن الذين آمنوا ..

---

(١) سورة الحج الآية ٢٩ (٢) سورة الحج آية ٩
(٣) سورة الحج الآية ٣١ (٤) سورة الحج الآية ١١
(٥) سورة الحج الآية ١٣

وقوله من بعد إن الله يفصل بينهم)[١] ونحورفع المضارع المصاحب للفاء بعد استفهام : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الآية)[٢] إلى نحو ذلك مما وراءه على القطع مغزى وغرض ، ومرد هذا الأمر راجع إما إلى التمسك الشديد الصارم بقواعد وضعوها ، وأرادوا لها الاضطراد وعاونهم على ذلك جريانها مع كلامهم المنظوم أو المنثور ، أو ما تكلفوه أحيانا من شواهد ، مع أنه من الثابت المعلوم أن القرآن الكريم : هو الأصل والمقيس عليه ، وأن استعماله هو الأصوب والأبلغ ، أدركنا ما وراءه أو حجب ذلك عنا

وإما أن يرجع ذلك إلى اتباع وتقليد لآثار ومرويات قيلت واشتهرت مع كونها فى ذاتها وبحكم السياق الذى هى فيه ودلالات ألفاظه وخصائص تراكيبه بادية الضعف ، بل ومخلة بأمور ثابته من حيث العقيدة ، وذلك فى مثل ما درج عليه كثير من المفسرين فى قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رســـول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطـــان فى أمنيتــه)[٣] وما يتصل بذلك من حديث الغرانيق .

وقد أعتمدت هذه الدراسة على سلك المنهج التحليلى المقارن بين الآراء من غير أن يكون القصد حتماً بعينه ينصرف إلى رأى أو اتجاه بحيث ينتفى اعتبار غيره ، بل قد يقضى الحال والسياق ابقاء الإحتمال لاكثر من قول وتوجيه ما دام مع كل مغزى أو غرض ، إذ من المقرر أن من أسرار هذا الكتاب العزيز : وفرة الاحتمالات ليظل أمر التدبر قائماً أبدا كما أعرض حينا لآراء ، هى فى ذاتها بادية الضعف لغرض التنبيه على وجه الضعــف أو الفســاد معها ، لكونهــا مما قد اشتهر أمره ، كما كان

---

(١) سورة الحج الآية (١٧)   (٢) سورة الحج الآية (٦٣)
(٣) سورة الحج الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥)

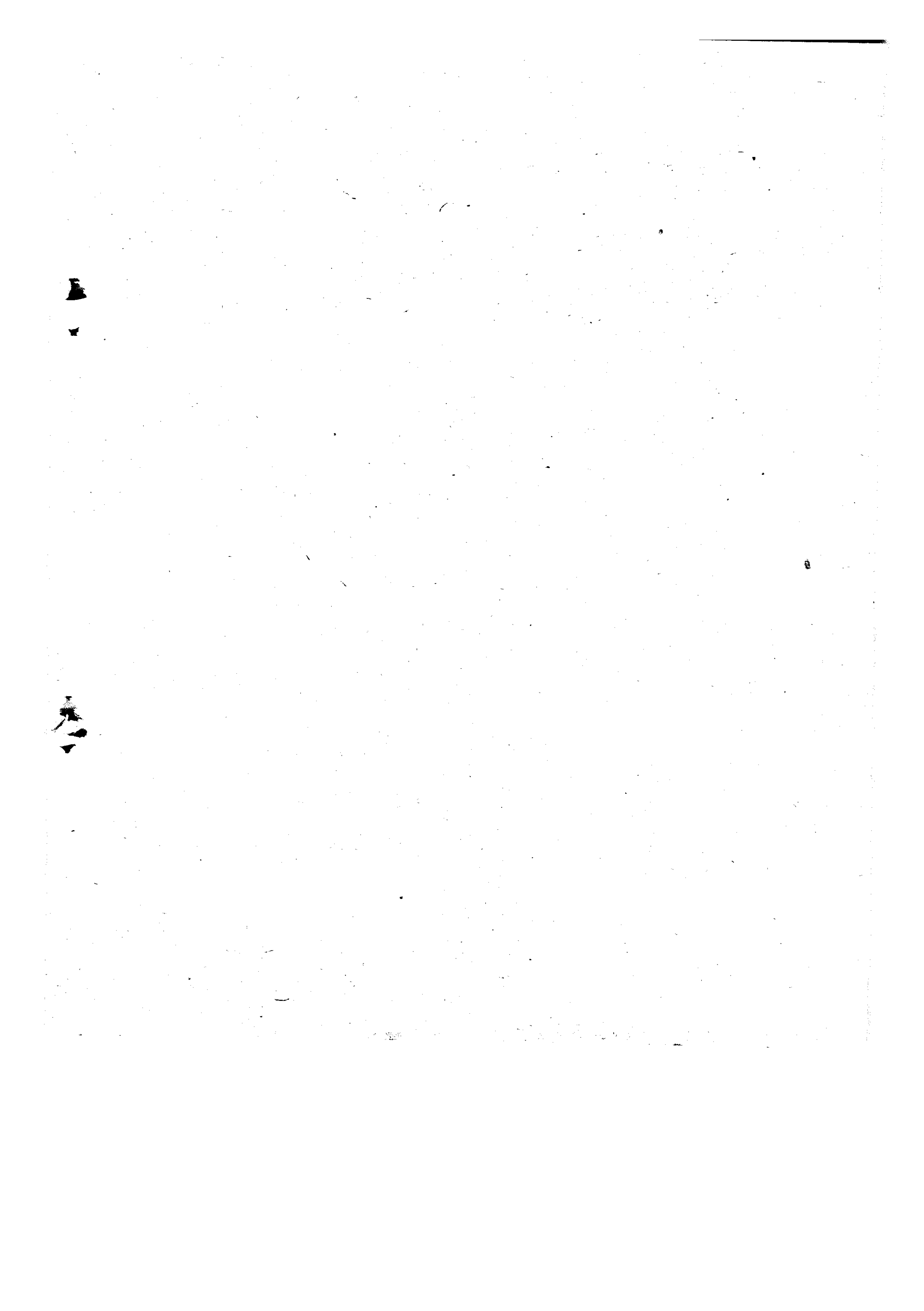
الاستئناس للمعنى والغرض بما قيل فى أسباب النزول ، ومأثور كلام السلف ، وكذا القضايا التى ذكرها أصحاب علوم القرآن ، وأيضاً القراءات ما تواتر منها وما شذ ، إذا كان من وراء ذلك ملمح بيانى ، أو مغزى يعود على الغرض ، هذا فضلاً عن كتب اللغة والإعراب القرآنى والتفسير على اختلاف مناهجه ، ثم كان الرجوع إلى مصادر البلاغة خصوصا ما كتبه الإمام عبد القاهر ، إذ كان من غير المعقول إغفال مثل ذلك ، وقد كان الغرض : البحث فى خصائص النظم الكريم وأسراره ، وقد كان كلام عبد القاهر ، دون ريب أصل مهم فى هذا الباب وإن كان لا يزال فيما أرى – مفتقراً إلى متابعة وتطبيق على النظم القرآنى ، وهذا ما حاولت فى تلك الدراسة المباركة لسورة الحج المباركة .

وخير ما فى تلك الدراسة – دون ريب – أن القرآن الكريم : هو مصدرها وغايتها ، ثم من بعد ذلك خلوص النية ، وصدق العزم وسلامة المقصد ، فإن كنت قد وفقت فذلك من فضل ربى ، وإن يكن غير ذلك فأرجو من الله تعالى المغفرة ، ثم من أولى العلم والفضل النصح .

وعلى الله قصد السبيل .

د / محمد على أبو زيد

الزقازيق : غرة جماد الأولى ١٤٠٩ هـ
ديسمبر ١٩٨٨م



بين يدى السورة المباركة :

السورة : بمعنى القطعة من القرآن الكريم . وقد ذكر فى وجه إطلاق هذا اللفظ: أنه جار على التشبيه بسور البناء أو المدينة ، فكما أن هذا السور يحيط بما داخله من أبنية ، فكذلك الحال مع سور القرآن لإحاطة كل منها بما فيها من آيات(١) .

وبعضهم يلحظ فى السورة معنى الترتيب . لأن آيات كل سورة واردة على جهة الترتيب ، بما يناسب أغراضها ومقاصدها .

وعند ابن جنى : إنما سميت سور القرآن بهذا لارتفاع شأنها لأنها كلام الله تعالى ، وفيها معرفة الحلال والحرام(٢) .

وعلى أية حال فإن المراد بالسورة : الطائفة من القرآن المجيد مما لها فاتحة وخاتمة

وجه تسمية هذه السورة :

وقد نبه أصحاب مصادر علوم القرآن على أنه ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ، ولا شك فى أن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر ، أو مستغرب يكون عليه الشىء المسمى من نحو حال أو صفة تخصه ، أو اشتهر بها بحيث تكون أدل على إدراك المسمى بها . وهم يسمون الجملة من الكلام المنثور ، أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز .

وقد سميت هذه السورة الكريمة بسورة الحج فى زمن النبى - صلى الله عليه وسلم - على ما ورد فى بعض الصحاح(٣) ، وليس لها اسم غير هذا(٤) .

ووجه تسميتها بسورة الحج : أن الله تعالى ذكر فيها قصة البيت الحرام ، وذكر الناس بأمره تعالى خليله إبراهيم - عليه السلام - ببناء هذا البيت ودعوة الناس إلى حجه ، وما ينالون بذلك من فضائل ومنافع فى الدين والدنيا ، كما ذكر

---

(١) ينظر الاتقان فى علوم القرآن ج١ ص ٥٣ . (٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن ج١ ص٢٦٤

(٣) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص١٨٠ . (٤) ينظر بصا ئر ذوى التمييز ج١ ص٣٢٣

ما يفيد تقريع وتهديد أولئك الكفرة الذين كان من حالهم الصد عن دين الله والمنع من زيادة ذلك البيت ، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج باتفاق . وإنما فرض بالآيات الواردة فى سورتى البقرة وآل عمران(١) .

وكأن وجه التسمية على ذلك منظور فيها إلى أن ما ذكر فى هذه السورة هو الأصل فى شرع الحج على الناس أول مرة .

السورة بين المكية والمدنية :

والحقيقة أن الخلاف شديد ، والروايات متعددة ومختلفة ، بل ومتناقضة أحيانا فيما يتصل يكون هذه السورة مكية أو مدنية .

فهناك رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وجماعة من مفسرى السلف: أنها مكية إلا ثلاث آيات(٢) كما أن هناك رواية أخرى عن ابن عباس وجماعة أخرى من مفسرى السلف أن السورة مدنية إلا آيات : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ..)**(٣) إلى قوله تعالى : **(يأتيهم عذاب يوم عقيم)** . فهى مكيات .

كما أن هناك رواية عن بعض مفسرى السلف تفيد أن السورة كلها مدنية وقد صحح ابن عطية ما ذكره منسوبا إلى الجمهور من كون السورة بعضها مكى ، وبعضها مدنى ، وهى مختلطة ، أى : لا يعرف المكى منها على جهة التعيين ولا المدنى منها كذلك(٤) .

والتحقيق أن هذه السورة مدنية إلا آيات معينة ويمكن النص عليها نظير قوله تعالى : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى)**(٥) وقوله : **(ومن الناس من يجادل ..**الايات) وهذا الحكم يستند إلى ما يبدو من دلالات آياتها ومقاصدها ، فآيات الإذن بالقتال والإذن بالعقاب صريحة الدلالة على كونها مدنية، كما أن فى صحيح الأحاديث ومأثور أسباب النزول ما يقطع أو يستأنس به على هذا الحكم كما سيتضح من خلال التفسير إن شاء الله تعالى .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص ١٧٩، سورة البقرة الآية١٩٦ : سورة آل عمران الآية ٩٧ .

(٢) البحر المحيط ج٦ ص٣٤٩ . (٣) سورة الحج الآيات ٥٢، ٥٤، ٥٥ وينظر روح المعانى ج١٧ص١١٠

(٤) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص١٨٠ . (٥) سورة الحج الآية ٥٣ .

(٦) سورة الحج الآيات ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٩ .

ولعل مرد هذا الاختلاف إلى أنه يغلب على هذه السورة موضوعات وأغراض وخصائص السور المكية . فموضوعات التخويف من الساعة والتدليل على الوحدانية ، وهدم قواعد الشرك ، ومشاهد القيامة وآيات الله تعالى المبثوثة فى الكون دليل قدرته ونعمه على الناس ، إلى جانب الموضوعات التى غلبت على القرآن المدنى من نحو الإذن فى القتال وحماية الشعائر والوعد بنصر الله ، والأمر بالجهاد ، كما كان من وراء هذا الاختلاف كذلك ما شاع فى آيات السورة كلها من ظلال القوة والحسم والرهبة والتحذير والترغيب والترهيب . وقد ورد فى أساليب حاسمة ، وعبارات قاطعة وبالغة الدلالة على المراد بما توارد عليها من ضروب التوكيد والمبالغة فضلا عن دلالات وإيحاءات الألفاظ وطرق صياغتها ، لكن كل هذا ما كان ينبغى أن يلتبس الأمر معه على كثير من أئمة أهل التفسير فترى أمثال الزمخشرى يعد هذا السورة مكية(١) . على حين يعدها الفخر مدنية(٢) .

مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها

ومن أسرار ذلك الكتاب العزيز : التناسب بين آيات سوره ، ومن أسراره كذلك أن فواتح كل سورة مناسبة لختام ما قبلها لفظا أو معنى . لكن قد يبدو هذا الأمر واضحا حينا . وقد يدق ويلطف ، فيحتاج إدراكه إلى شىء من النظر والروية والتدبر حينا آخر .

ومناسبة سورة الحج لما ختمت به سورة الأنبياء : أنه قد ذكر فى أواخر سورة الأنبياء حال كل من الكفرة وأهل الإيمان ، كما ذكر الفزع الأكبر وسلامة المؤمنين منه ، وحيث كان المشركون قد أنكروا البعث وسألوا حلول العذاب تهكما وغرورا واستكبارا: جاءت هذه السورة مفتتحة بالتحذير والتخويف بما سيقع يوم القيامة مما يملأ النفوس خشية ورهبة ، ويعين على الإقبال على تقوى الله تعالى بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه .

---

(١) ينظر الكشاف ج٣ ص٣ .

(٢) ينظر تفسير الفخر الرازى ج٢٣ ص٣ .

أهم أغراض السورة الكريمة ومقاصدها

تبدأ السورة المباركة باستدعائه تعالى الناس ، وخطابهم بأمر التقوى ، وتحذيرهم من التفريط بما هو بالغ فى الإنذار . وفرع على ذلك ببيان أحوال من لم يستجيبوا لداعى التقوى ، بل آثروا الجدال فى أمر البعث متبعين فى ذلك أهوائهم، ثم تسوق السورة الكريمة لهؤلاء الأدلة القاطعة فى إثبات ما يرتابون فيه، والتدليل على هذا بواقع خلقهم هم ، وكذا دلائل كونية ، ومع ذلك فلا يزالون على جدالهم بغير هدى ولا دليل من عقل أو نقل . ثم تعرض السورة لفريق آخر وهم : أهل النفاق ، وكيف أن عبادتهم لا تجاوز حناجرهم ، فقد دخلوا الإسلام بأجسادهم ، وأما قلوبهم فلا تزال متعلقة بالكفر والشرك ، فسرعان ما يرتدون إلى عبادة الأوثان إذا ما بدا لهم أن هذا الدين لم يحقق لهم النفع الذى رجوه من وراء تظاهرهم بالإسلام . ومن بعد ذلك تكشف السورة الكريمة عن أن من لم يرضه قدر الله فيما قسم من رزق ، أو فيما قدر من نصر لرسوله - صلى الله عليه وسلم ، فليفعل قدر طاقته ، وليبذل غاية جهده ، فإن ذلك لن يغير من أمره تعالى شيئا .

ومن بعد ذلك تذكر السورة : أن شأن القرآن الكريم الذى كان عليه حال آياته أنه جاء مبينا مفصلا ، وبمناسبة ذلك يعرض النظم الحكيم لفرق أهل الأديان على التفصيل معقبا بأن مرد الحكم والفصل بين الجميع إليه تعالى يوم القيامة ، وحينئذ تبدأ السورة فى تفصيل حال الكفرة يوم القيامة ، وما هم عليه من سوء المصير ، وكذا حال أهل الإيمان ، وما هم عليه من نعيم .

ثم تعرض السورة لحال الكفرة الصادين عن الدين الصحيح ، والمانعين لزيارة بيت الله الحرام ، وبمناسبة ذلك تذكر السورة وتذكر بقصة بناء البيت ، وأمره تعالى خليله ببنائه ، ودعوة الناس للحج إليه وما فى ذلك من منافع .

ثم يأتى الإذن منه تعالى لأهل الإيمان بالقتال جهادا .

ومن بعد ذلك تأتى آيات السورة سلوانا له - صلى الله عليه وسلم - وتأنيسا لقلبه الشريف بقص ما كان من أمر تكذيب الأمم السابقة ، وكيف صار حالها من الإهلاك المدمر ، ليكون فى ذلك عبرة لأهل الشرك ممن يستعجلون بالعذاب . ثم

تبين السورة أن سنة الله قد جرت مع سائر الرسل أن يحول الشيطان بينهم وبين أمانيهم فى إيمان أقوامهم ، ليكون فى ذلك دليل على صدق إيمان من رسخت أقدامهم في العلم واليقين ، وليظهر بذلك أيضا زيف وبطلان أهل النفاق والكفر .

ثم تمضى السورة الكريمة فى سلوان أهل لإيمان ، فإن الله تعالى خالق الكون ومقلب الليل والنهار ، لقادر على تبديل حالهم من ضعف إلى قوة ونصر على أعدائهم .

ثم من بعد ذلك تعود السورة إلى التذكير بآيات الله المبثوثة فى الكون دليل قدرته سبحانه ونعمه على الناس ، ومع ذلك فشأن الكفرة الجحود والنكران .

ثم تمضى السورة إلى ضرب مثل بليغ فى بيان حال عجز تلك الآلهة المزعومة فى مقابل ذلك الإله الحق الموصوف ببالغ القدرة والعزة .

وأخيرا تختم السورة المباركة بخطاب أهل الإيمان بالمحافظة والدوام على تكاليفه تعالى ، والاعتصام به ، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

وبعد هذا الإجمال : نعمد بعونه تعالى إلى التفصيل والبيان .

تبدأ السورة الكريمة بخطاب الناس الذين تبلغهم الدعوة بأمر التقوى الذى هو جماع أمور العقيدة والشريعة ، والتعليل لذلك ببالغ التحذير بما سيكون مع القيامة من هول وقرع شديد متناه فى الشدة إلى حيث تصرف كل أم عن رضيعها كما تلقى كل حامل بما فى بطنها من قبل حلول زمن وضعه ، وإنما ذلك لبالغ ما أصابهن من هول ينسى ويذهل ، بل وأصاب الناس أيضا إذ الكل حاله يوم القيامة كذلك ، إلا من صرف الله تعالى عنهم ذلك من أهل الإيمان بمقتضى وعده الصادق فى ختام سورة الأنبياء : **(لا يحزنهم الفزع الأكبر.)**(١) وفى ذلك :

يقول سبحانه وتعالى : **(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)** الآيتان : ١ - ٢ .

ومطلع الآية الكريمة الأولى : **(يا أيها الناس)** . وقد افتتح بهذا الخطاب

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٣ .

سورتين من القرآن الكريم ، إحداهما فى نصفه الأول ، وهى سورة النساء : **(ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة)**(١). والثانية فى نصفه الثانى ، وهو ما وقع فى الحج ، وقد تميزت هذه السورة الكريمة بأن جاء معها هذا الخطاب فى أربعة مواقع ، وإن اختلف المراد مع كل منها من حيث عموم الخطاب للناس جميعا ، أو خصوصه بأهل الشرك ، أو احتمال الأمرين. وذلك على حسب حال كل خطاب وسياقه والغرض منه ،على ما سيتضح . فليس هذا الخطاب فى كل حال متوجها إلى خصوص المشركين ، كما يطلق بعض أهل العلم ، وبنوا على هذا أن كل خطاب ورد فيه :

(يا أيها الناس) فهو مما نزل بمكة(٢) . والحكم على هذا النحو من التعميم غير مستقيم لعدم اطراده ، فهذا الخطاب : وارد فى سورة البقرة : **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم..)**(٣)، وكذا فى سورة النساء ، كما سبقت الإشارة إليه. وهما مدنيتان باتفاق(٤) . كما أن سورة الحج على ما سبق إيضاحه : مدنية إلا بعض آيات معيّنة ليس من بينها أحد المواقع الأربعة الواردة على هذا الخطاب.

والمراد بلفظ الناس فى هذا الموقع المفتتح به السورة الكريمة : ما يعم سائر البشر ممن بلغتهم أو تبلغهم الدعوة فى كل زمان ، ومن كل جيل وجنس ، وليس مخصوصا بأهل الشرك كما يذكر بعض المفسرين(٥).

ومجيء الخطاب هنا على هذا النحو : **(يا أيها الناس اتقوا ربكم)** : دال من أول الأمر على أهمية وخطر ما ينادى الناس لأجله ، فإن المتتبع لعرف الاستعمال القرآنى يلحظ أن تلك الصيغة فى النداء : **(يا أيها)** : ترد وقد أعقبت بأمور هى من أسس الدين وقوامه ، فقد كثر ذكر فعل الأمر والنهى التى تحمل تكاليفه تعالى إلى خلقه ، وبلاغة هذا الطريق فى النداء : أن حرف النداء (يا) مستعمل أصلا مع نداء البعيد أو المنزل منزلة البعيد ممن سها أو غفل وإن كان فى واقع الحال قريبا . وقد تفيد معنى الاعتناء بالمدعو له ، والحث عليه ،

---

(١) سورة النساء الآية ١ .　　(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن ج١ ص ١٩٣.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٤) ينظر الاتقان فى علوم القرآن ج١ ص ٦ .

(٥) روح المعانى ج١٧ ص ١١٠.

لأن نداء البعيد وتكليفه الحضور يقتضى الاهتمام بما كان طلب الإقبال لأجله والحث على فعله . ولذا وجدنا هذه الصيغة ترد مع خطاب الذين آمنوا فى ثمانية وثمانين موضعا ، ومع خطاب الناس فى كثير من المواقع .

والمأمور به هنا المنادى الناس لأجله : - لا ريب - : مهم وخطير ، فإن الأمر بالتقوى يشمل سائر ما ينبغى فعله من أوامر الله تعالى ، وما لا ينبغى فعله كذلك ، بل يجب تجنبه من نواهٍ ومحارم ، فإن التقوى : وقاية وخشية لله تعالى من التلبس بمنهى عنه ، أو التفريط فى مأمور به . ومادام الخطاب عاما : فتقوى كل فريق من المخاطبين بحسب حاله .

فالكفرة والمشركون مطالبون بتحصيل أصل التقوى لأن حالهم على خلافها ، وأما أهل الإيمان فمراد منهم : الثبات والدوام والحث على المزيد ، فإن التقوى باب واسع لا يكاد يتيسر لأحد درك منتهاه ، ومن هنا كان خطابه - صلى الله عليه وسلم - : **(يا أيها النبى اتق الله)**(١) مع أنه - عليه الصلاة والسلام - رأس المتقين وأتقى خلق الله إلى الله بشهادته سبحانه ، ولكن لما كان الغرض نحو الدوام والثبات والحث على المزيد والمضى فى طريق التقوى البعيد والمقرب إلى رضاه تعالى ، كان أمر الناس كلهم ، وكل منهم على وفق حاله . ومن ثم يفهم وجه إيثار التعبير فى هذا السياق بخصوص التقوى دون العبادة مثلا ، لكون التقوى أعم وأشمل ، ولكونها بخصوص هذا السياق أنسب ، فإن معنى التقوى يلائم التخويف بما سيقع فى الآخرة من أهوال الزلزلة ومشاهد العذاب ، كما يفهم كذلك وجه تعلق أمر التقوى بوصف الربوبية مضافا إلى ضمير جماعة المخاطبين : **(اتقوا ربكم)** . من حيث إن هذا الوصف مطابق لمقام العموم الذى بنى السياق عليه ، إذ هو سبحانه رب الجميع ، وعطاء الربوبية مفيض على الناس جميعا ، شاءوا والإقرار بذلك أم أبوا جحودا ونكرانا ، كما أن فى هذا الوصف : إشارة إلى استحقاقه تعالى أن يتقى لانعامه على الناس كلهم بالخلق والرزق والإرشاد إلى الدين الحق ، لأنه تعالى بهذه الصفة لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو صالح وخير لمن هو ربهم ، إذ من شأن الرب أن يقوم على ما فيه نفع وفائدة لمن هو لهم ربٌّ ، فلا يكلفهم بما فيه عنت ، أو لغير عرض ، ولا ينهى عن شىء فيه صلاح ونفع ، فكان وصف الربوبية لكل ذلك موفيا بتمام الغرض المراد ، ولو ذهبت تقدر فى

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١ .

نفسك الكلام ، وقد صار معه وصف أو اسم آخر من أوصافه أو أسمائه تعالى من نحو الخالق أو الرازق فيقال : اتقوا خالقكم ، أو رازقكم : لاستقر فى نفسك وتوطن فى فهمك : بلاغة ما عليه النظم الحكيم ، إذ أن لكل وصف أو اسم من أوصافه وأسمائه تعالى موقعه الأليق والأنسب بحال الكلام ومقاصده ، فهى وإن كانت جميعا من حيث حالها وواقع أمرها أسماء وصفات له تعالى ، لكن كل منها سياق ينادى بما هو أدل منها على المراد .

وإن أردت لذلك مزيد بيان أقول : إن لفظ الجلالة مع كونه الاسم العلم الأعظم الدال على كل صفات الجلال والكمال ، إلا أن له مقامات فى الاستعمال ، لذا كان التعبير هنا بوصف الربوبية أدل على معنى استحقاقه تعالى لمطلوب التقوى مع إشعاره بنعمه تعالى على خلقه ، وإنه سبحانه لا يكلفهم إلا بما فيه صلاح لهم ، وما يباعد بينهم وبين أهوال ذلك المتوعد به من لم يستجيبوا لداعى الإيمان والتقوى .

وحيث استقر فى النفوس أن كل أمر يراد توطينه فى نفوس المخاطبين : يعلل بما يعين على امتثاله : جاء النظم الحكيم بعد استدعاء الناس للخطاب وأمرهم بالتقوى : بما يعلل لذلك : **(إن زلزلة الساعة شىء عظيم)** .

فهذه الجملة : تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى بالتذكير بأمر هائل تقع عليه القيامة ، ويحصل به ما تفزع منه النفوس ، ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالاقبال على ما أمر به تعالى .(١)

وتصدير : (إن) جملة التعليل أبلغ فى فادة التوكيد فهى أقوى من التوكيد باللام كما يذكر عبد القاهر وكأن هذه الجملة فى موضع الجواب عن سؤال مثار فى النفس من وراء الأمر بالتقوى ، فحيث أمر تعالى الناس بها ، أعقب بتعليل وجوبها مجيبا لسؤال مقدر بذكر ما يصاحب قيام الساعة من أهوال ، نظير ما عليه قوله تعالى :

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون)(٢) فحيث نهى تعالى نوحا - عليه السلام - عن سؤال رفع العذاب ، فكأن هذا النهى أثار فى نفس

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٧ : ٣١٣ (٢) سورة هود الآية : ٣٧ ، وسورة المؤمنون : ٢٧ .

نوح السبب فى هذا النهى ، فكان قوله سبحانه : **(إنهم مغرقون)** : تعليلا لذلك النهى وجوابا عما وقع فى النفس .

ويلحظ كذلك فى جملة التعليل : أنها تضمنت الإشارة إلى أمر فوق كونه هائلا وعظيما مع قيام الساعة هو أمر مشاهد فى الحياة ، ولا سبيل إلى إنكاره ، أو دفعه لوقوعه حينا بعد حين ، وفى مكان بعد مكان ومع جنس من البشر بعد جنس ، وكأن ما يحدث من الزلزلة إنذار ورمز إلى ما سوف يكون ، وإن كان ما فى الآخرة أعم وأشمل وأعظم ، لكن يبقى فى إيثار أمر الزلزلة هنا فضل دلالة على مزيد الترهيب والتخويف وبالغ الإنذار بما سوف يحل بهم ، وقد عاينوا فى دنياهم شيئا وأنموذجا منه .

والزلزلة فى اللغة : الحركة العنيفة والاضطراب الشديد ، كما يلحظ فى صياغة الكلمة معنى تكرر الحدث ، وكأن تكرار حروفها مشير إلى هذا المعنى . وهذا المعنى مستعمل فى الحسيات . قالت العرب : زلزل الإبل : إذا ساقها بعنف حتى يضطرب سيرها . وزلزلت الأرض : اهتزت وارتجت وتشققت .

وقد ورد هذا اللفظ فعلا ومصدرا فى ستة مواضع فى الكتاب العزيز ، ثلاثة منها : وصف أهوال القيامة ، موقعان منها فى سورة الزلزلة ، والثالث فى موضع الحج . وثلاث أخر فى وصف حال الشدة القاسية ، والهلع الشديد من هول الحرب واستبطاء النصر : **(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)** . **(مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله)**(١) . وهذه المواضع - كما هو واضح مبنية على طريق التجوز بالاستعارة التصويحية ، حيث استعيرت الزلزلة لما كان عليه حال المؤمنين من اضطراب وقلق من استبطاء النصر ، حيث أحاطت بهم مكاره الحرب ابتلاء منه تعالى لثبات الإيمان وقوة اليقين .

وأما ما يتصل بالزلزلة مع القيامة ، فواضح أنها على الحقيقة فالأرض تضطرب هنالك ، وتهتز ، وتتحرك جهاتها بشهادة صريح آية الزلزلة : **(إذا زلزلت الأرض زلزالها)**(٢) . وبدلالة قوله تعالى :

---

(١) لسورة الأحزاب الآية ١١ ، وسورة البقرة الآية ٢١٤ .

(٢) سورة الزلزلة الآية ١ .

(إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا)(١) فالأرض حينئذ بإذنه تعالى تهتز وتتحرك فى شدة فتخرج من باطنها وتلقى ما فيها وتتخلى ، وهنا يصاب الناس بالانزعاج لهول ما يكون عليه الحال .

وعلى ذلك فما يصادفه الناس من شدة وفزع لازم وتابع لوقوع الزلزلة ، ومن هنا لا أحد طائلا من وراء اختلاف كثير من أهل التفسير فى توجيه المراد بالزلزلة هنا من حيث يراد بها حقيقتها ، أو هى محمولة على معنى الأهوال المفزعة على طريق المجاز . فالزلزلة حاصلة ويقع بحصولها ما يصادفه الناس من خوف وفزع .

كما كان خلافهم حول إسناد الزلزلة إلى الساعة ووجه التجوز فى هذا الإسناد .
والظاهر أن التجوز هنا على طريق المجاز العقلى من حيث إن القيامة : زمان حلول تلك الزلزلة المؤذنة بقيامها ، فالعلاقة الزمانية ولك أن تقول : لما كانت الساعة من حيث الظاهر كالسبب فى حصول تلك الزلزلة أسند لفظ الزلزلة إليها ، فالعلاقة على هذا الاعتبار السببية ، وإن كان الفاعل فى الحقيقة ، وعلى كل اعتبار : هو الله تعالى ، وهو متعين ، وليس القصد فى أمثال تلك المواقع فى المواقف إسناد الأفعال إلى فاعلها على الحقيقة ، وإنما الحال تقضى صرف الأذهان وصب الوعى كله فى الحدث ذاته وزمان وقوعه ، وهذه طريقة القرآن المضطردة فى عرض مشاهد القيامة ومقدماتها ، وسيزداد هذا الأمر وضوحا فى سياق تفسير هذه السورة المباركة إن شاء الله تعالى .

ثم إنه تعالى قد أخبر عن تلك الزلزلة بإنها : **(شىء عظيم)** . ولا يخفى عليك وجه إفادة كلمة : (شىء) لبليغ التهويل ، فإن إبراز هذه اللفظة أولا على جهة التنكير . معه إبهام تذهب النفس فى تقدير مداه كل مذهب ، ثم يأتى من بعد ذلك ما يقطع بالتناهى فى أمر التفظيع والتهويل . حيث أتبع لفظ شىء بوصف : (عظيم) ، وحسبك شىء حكم الله تعالى عليه بالعظم .
وهذا من المواضع التى يحسن فيها موقع كلمة : (شىء) . وهى التى نبه عليها الشيخ عبد القاهر(٢) . فقد رأيت كيف أفادت هذه اللفظة فى هذا السياق

---

(١) سورة الواقعة الآية : ٤ - ٥ .
(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص(٩١-٩٢)

معنى الضخامة والتناهى فى العظم ، ثم إن هذه اللفظة ذاتها تأتى فى موقع آخر لتفيد معنى آخر ، هو على الضد تماما على ما سيأتى فى قوله تعالى : **(لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)**(١) .

وبعد خطابه تعالى الناس ، وأمرهم بالتقوى وتحذيرهم من أهوال قيام الساعة : جاءت الآية الثانية لتفصيل أحوال الناس يومئذ . وأثر تلك الأهوال عليهم : **(يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)**

فهذه الأمهات ، كل الأمهات حالها : الدهشة والغفلة والحيرة والشغل عن أولادهن اللاتى يرضعنهن ، وتلك حال الحوامل ، كل الحوامل : تلقين من شدة حملهن لغير أوان . وذلك هو حال الناس : آثار الخوف والهلع بادية عليهم ، حتى لكأنهم فى حال سكر ، وإن كان مرد ذلك فى الحقيقة إلى بالغ هول ما بدالهم من أمارات العذاب فالآية الكريمة إذن تعرض أولا لبيان حال أثر ذلك الهول على الأمهات المرضعات : **(تذهل كل مرضعة عما أرضعت)** .

والذهول : الذهاب عن الشيء مع دهشة(٢) ، أو الانشغال بما يورث النفس حيرة(٣) .

والمرضعة : التى فى حال إرضاع طفلها ملقمة ثديها طفلها وأما المرضع . فهى التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به . وهنا يبدو وجه إيثار التعبير على تلك الصيغة : مرضعة دون مرضع . مع أن هذا الوصف مما يختص أصلا بالنساء ، ولا يحتاج إلى التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث ، لانصرافه إلى خصوص الإناث مثل حائض وطامس وحامل إذا كان المعنى على ما فى البطن. وإنما قيل هنا : (مرضعة) ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به الأم وقد ألقمت طفلها الرضيع ثديها : نزعته عن فمه لما لحقها من الدهشة المذهلة حتى

---

(١) سورة الحج الآية : ٥ .

(٢) الكشاف ج٣ ص٤ .

(٣) روح المعانى ج١٧ ص١١٢ .

عن الأقرب والأحب إلى الأمهات اللاتى جبلن بحكم الفطرة على مزيد الشفقة وإيثار أطفالهن على أنفسهن خصوصا فى تلك الحال التى يكون عليها الطفل من الرضاعة . ولكن الهول أعظم من كل عاطفة وأكبر من كل إيثار ، وهنا يدرك وجه بلاغة : (عما أرضعت) . أى : عن طفلها الذى أرضعته . والتعبير عن الطفل بما الموصولة : لتأكيد الذهول ، وكون المرضعة بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا ، وهى لا تعرف من أمر طفلها شيئا سوى أنه شىء ، لكن هى غافلة عن كونه طفلها الذى سبق وأن أرضعته ولذلك جاء التعبير بالماضى : (أرضعت) ليدل على أن الرضاع قد كان منها وتحقق ، فلم تذهل عنه لكونها ليست بمرضع . كما أن التعبير عن الطفل المذهول عنه بطريق الموصول دون أن يقال مثلا : تذهل عن ابنها : للدلالة على أنها تذهل عن شىء هو نصب عينيها ، وهى أمه ، وهى متعلقة به بحكم أمر الرضاعة ، ومع ذلك تدع أمره . وفى ذلك كناية عن شديد الذهول عن كل حبيب وقريب وعزيز .

ولهذا كله يضعف حمل من وجه : (ما) فى قوله تعالى عما ارضعت) على أنها مصدرية . أى إرضاعها(١) . فإن هذا التوجيه : أقل مبالغة ، فهو لا يفيد سوى أنها تغفل عن أمر الارضاع دون الإشارة إلى كل تلك المعانى المأخوذة من وراء التعبير بطريق الموصول والتى هى على وفاق مع السياق والمقام بمزيد المبالغة فى التوكيد لما يحدثه ذلك الهول من بالغ الأثر فى النفوس . وهذا كله مما يستدعيه حال الإنذار والتخويف .

هذا عن حال الأمهات مع أطفالهن الرضع .

وأما الحوامل : فيصرفهن الفزع الأكبر عما فى بطونهن ، فيلقين به لغير تمام، كما ذهلت المرضعات عن أطفالهن لغير فطام :(**وتضع كل ذات حمل حملها**).

والتعبير : (وتضع) دون : وتلد : مشعر من أول الأمر بأن ذلك من الأمهات : طرح لما فى بطونهن والقاء ما فيها وتخل عنه من قبل أوان ولادته ، فالملقى به من ستكون له أما لا يزال جنينا . ومع ذلك : فهى لا تلقى له بالا ، بل هى تقذف به دون اكتراث بحاله . ولو جاء التعبير بالولادة بدل الوضع فى هذا المقام فقيل :

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٤٨ .

و(تلد) لفهم أن هذا زمان خروج الطفل : ولا شك فى أن المبالغة مع التعبير بما عليه النظم الحكيم أدل على الغرض فى تحصيل المراد ، كما أن فى قوله تعالى : **(كل ذات حمل حملها)** دون التعبير بحامل لأنه الجارى فى الاستعمال فى الأكثر كقوله تعالى : **(وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن)**(١). مع ما فى هذا التركيب من التنبيه على شدة اتصال الحمل بالحامل ، فيدل على أن وضعها أياه لسبب مفزع .

والحمل بالفتح : ما كان فى البطن ، وبالكسر : ما كان على الظهر ، أو الرأس ، أو الشجر(٢) . (ومجىء لفظ : (حملها) : زيادة فى المبالغة ، فهى تلقى) ومجىء لفظ : (حملها) : زيادة فى المبالغة ، فهى تلقى بحملها الذى صاحبها ، وقد كان بينها وبينه علاقة وعاطفه وصلة ، لكن ما طرأ : أنسى وأذهل.

وفى ذكر لفظ : (كل) مع المرضعات فيما سبق والحوامل هنا : دلالة على أن هذا الذهول يعترى سائر المرضعات وجميع الحوامل ، فليس يخص بعضاً منهن لضعف فى ذاكرتهن ، ويلزم على هذا عموم الهول لكل الناس ، لأنه إذا كان هذا حال تلك النساء مع كونهن أشفق وأحرص وأبعد فى العرف عن الذهول ، لكن إذا ما ذهلت الأم عن رضيعها ، وألقت الحامل ما فى بطنها : دل ذلك قطعا على أن الفزع العارض لهن أشد من أن يتذكر معه كل شفقة ، و هذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول ، لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها والقاء الحامل لحملها الشدة الهول : يستلزم شدة ذلك الهول لغيرهما من عموم الناس بطريق الأولى . وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء .

ومن هنا كان قوله تعالى : **(وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)** . تصريحا بما فهم من عموم العذاب . أى : حال الناس سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما أصابهم من خوف عذاب الله هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم ، وجعلهم على حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه .

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٤

(٢) غريب القرآن للسجستانى ص٢٧٦ .

ويلحظ أنه تعالى قد أثبت للناس حال السكر أولا ، ثم أعقب بنفيه عنهم ، وهذا من بديع المطابقة ، فالسكر المثبت أولا : مفروض بحكم ظاهر الحال التى يكون عليها الناس يومئذ ، وهو كلام جار على التشبيه البليغ ، ولكن الحقيقة أن ليس هناك سكر أصلا . وإنما عذاب الله تعالى وقد رأوا مقدماته هو الذى أحدث فيهم تلك الحال ، فلا سكر فى الحقيقة ، ولا مسكر من مسكرات الدنيا من نحو خمر ، فهذا هو المنفى عنهم : **(وما هم بسكارى)** ، فليستدرك إذن بحقيقة الأمر المحدث لتلك الحال : **(ولكن عذاب الله شديد)** ، فالسكر المثبت لهم أولا إنما هو السكر المبنى على طريق التشبيه بيانا لما عليه ظاهر حالهم، والسكر المنفى عنهم ثانيا إنما هو السكر الحقيقى ، فإن ما كان عليه حالهم لم ينشأ فى الحقيقة عن سكر بل مرده إلى معاينتهم أمارات العذاب . ولمزيد إيضاح هذا الأمر من إثبات السكر أول الأمر ثم نفيه أقول : إن من أدلة التشبيه والمجاز: صدق نقيضهما ؛ فمثلا تقول فلان بحر . إذا وصفته ببالغ الكرم ، فيصدق أن تقول من بعد ذلك وما هو ببحر ، فتنفى عنه الحقيقة ، بعد أن كنت قد أثبت اللفظ له على سبيل التشبيه ، إذا علمت هذا فكأن الآية الكريمة بعد أن أثبتت السكر المبنى على التشبيه نفت السكر الحقيقى عنهم على وجه التوكيد . حيث دلت الباء الداخلة على الخبر المنفى : **(بسكارى)** على بليغ توكيد النفى ، والسر فى التوكيد على هذا النحو : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة: ليس من المعهود فى شىء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله .

يبقى من بيان هذه الآية الكريمة : أنها قد صدرت بفعل الرؤية مسندا إلى واو الجماعة : (يوم ترونها) . ثم عدل الأسلوب بعد ذلك فأسند هذا الفعل إلى المفرد: (وترى الناس) .

وتعليل صاحب التحرير لهذا التغاير أن الخطاب فى : **(ترى الناس)** لغير معين ، وهو كل من تأتى منه الرؤية من الناس ، فهو مساو فى المعنى للخطاب الذى فى قوله : **(يوم ترونها)** . وإنما آثر الإفراد بعد الجمع تفننًا فى الأساليب وكراهية فى إعادة الجمع(١) .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص١٩١ .

وأوجه من هذا التخريج وأقرب إلى البلاغة : أن الرؤية أولا علقت بالزنزلة ، فجعل الناس جميعا رائين لها ، ومن هنا جاء الفعل مسنداً إلى الجماعة حيث شملت الزلزلة الجميع ثم لما تعلقت الرؤية من بعد يكون الناس على حال من السكر فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم ، فكان الافراد مع فعل الرؤية أدل على هذا المعنى إلا فإن قدرت الكلام على طريق الجمع فتقول : وترون الناس سكارى لفسد المعنى إذ المعنى على هذا : أن جميع الناس يرون جميع الناس على حال السكر .

وهناك توجيه آخر . فلا أرى بعدا فى صرف خطاب الإفراد إلى خصوصه - صلى الله عليه وسلم - إكراما له ، وتمييزا ، بحيث يجعل فى تلك الحال التى يعاين بها ما عليه أمر الناس حينئذ ، فتكون شهادته ، وتقع منه شفاعته ، فهو - عليه السلاة والسلام - من رسله تعالى المرتضى شفاعتهم بل هو صاحب الشفاعة العظمى كما هو مقرر .

ومع أن صاحب رغائب القرآن قد ذكر هذا التوجيه احتمالا(١) ، إلا أن الآلوسى عقب ببلاغة التوجيه السابق لملائمته السياق(٢) . ولا شك فى أن مع كل توجيه مغزى وغرض يناسب الأخذ بكل ما ذكر فى التوجيه .

وعلى أية حال فالرؤية مع الخطابين : بصرية .

ومع خطابه تعالى الناس فيما سبق بأمر التقوى ، ومع بالغ تحذيرهم وبيان شديد الحال الذى يكون عليه الناس يوم القيامة : فإن فريقا من الناس لم يجد معهم التذكير نفعا ، بل قد آثروا طريق الجدال كبرا واتباعا لأوهام زينتها لهم أهواءهم .

يقول سبحانه وتعالى بيانا لذلك : **(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير)** . الآيتان ٣ ، ٤ .

وواضح أن النظم الحكيم هنا موصول بواو العطف ، وهذا يؤذن بأن الجملة

---

(١) رغائب القرآن وغرائب الفرقان ج١٧ ص٧٧ .

(٢) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١١٣

معطوفة على ما قبلها ، وقد دل الكلام على أن الناس من بعد كل ما سبق من خطاب بالتقوى وتحذير من التفريط فريقان ، فريق استجاب وامتثل ونفع معه أمر التذكير ، وفريق آخر هذا حاله من الجدال عن جهل ، وبغير دليل فالكلام إذن معطوف على كلام مقدر والدال على حال من اتقى وخشى العذاب ، وإنما لم يصرح بحال الممتثلين واقتصر على حال المجادلين : لأن حال هذا الفريق هو المقصود بالذات هنا لعرض أباطيله ، وتوضيح الأدلة القاطعة فى إثبات ما يرتابون وما يجادلون فيه من نحو أمر البعث والمعاد .

والآية الكريمة : عامة فى كل مجادل ، حتى وإن روى فى أسباب النزول ما يخصص بجماعة من رءوس الشرك على خلاف فى تعيينهم ، أو المراد : واحد منهم بخصوصه مع الاختلاف كذلك فى تشخيصه(١) . فالعبرة - كما هو معلوم ومقرر بعموم المعنى .

ولفظ : (من) الموصولة يدل على المفرد بلفظه ، كما يدل على المتعدد من حيث معناه ، فهو يعم كل من تنطبق عليه جملة الصلة فالمراد إذن كل مجادل فى كل زمان ومن كل جيل .

والجدال : المخاصمة والمحاجة ، وجدالهم فى الله ، أى : فى ذاته من إنكار وحدانيته تعالى ، وإثباتهم له - سبحانه - شركاء من الأوثان وأمثالها من آلهتهم المزعومة ، وجدالهم كذلك فى صفاته تعالى ، أو فى شأن من شئونه ، كارتيابهم فى البعث والحشر ، وإنكارهم الحياة الأخرى ، فالكلام : **(يجادلون فى الله)**: على حذف مضاف ، حذف قصدا إلى تعميم المراد ليشمل كل جدال وقع منهم أو سوف يقع من أمثالهم مما يتصل بالله تعالى ذاتا أو صفات .

وقيد جدال هؤلاء بحال : (بغير علم) : ليفيد أن هذا الجدال : قائم على جهل، ومحض تلبيس وافتراء ، فهو ناشىء عن سوء نظر وسوء تفكير ، فهم لا يعلمون ما تقتضيه الألوهية من اتصاف بالوحدانية والعلم والقدرة ونحو ذلك فهم يجادلون فيما أخبر عنه تعالى من أمور البعث ، وحيث كان هذا الجدال منهم : (بغير علم): فقد جاء قوله تعالى : **(ويتبع كل شيطان مريد)** : بيانا لما صدر عنه جدالهم.

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص١٧٥ ، وأسباب النزول للسيوطى ص١٨٢

واتباع الشيطان : الانقياد إلى وساوسه التى يجدها هذا المرتاب فى نفسه ، والعمل بمقتضاياتها دون تردد ولا عرض على فكر ونظر ، فكلمة الاتباع تدل على خالص الانقياد للأهواء والوساوس دون أدنى تبصر حتى لكأن تلك الأهواء والوساوس تقوده وهو منقاد لها تتوجه به حيث أرادت ،، وتزين له الطريق فيختلط عليه الأمر ويصبح على حال من الحيرة شديد ، ولكن ليس له على كل حال انفكاك أو خلاص من هذا الحال ، فهو تابع ومنقاد ، وقد غور به شيطانه وخدعه فخدع واستسلم ، ثم إن فى ذكر لفظ : (كل) هنا : دلالة على أنه لم يعد يفرق بين الغوايات والوساوس ، بل هو أنى وجد منها شيئا تعلق به واتبع ، فلفظ كل يدل على الشمول لما جرى الحديث بشأنه ، كما فى قوله تعالى : (**وأوتيت من كل شيء**)(١) . بيانا لحال ما أعطيت تلك الملكة : بلقيس من كل ما هو مناسب لأمر الملك ، فقد دلت : (كل) على الاستيعاب ، لكن بحسب حال الملك ، وكذلك الحال هنا . فإن هذا المجادل قد انقاد لكل شيطان زين له ، فالعموم هنا بحسب حال المجادل الذى لم يدع سبيلا للغواية إلا اتبعه ، وكذا الأمر مع مثل قوله تعالى : (**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**)(٢) . فإن الأنسب للمقام أن تحمل : (كل) معه على معنى العموم ، فإن الكلام وارد على طريق الفرض والتقدير ، والمبالغة مع هذا الأسلوب أليق ، فإن المراد لو قدر وأنزلت على هؤلاء الكفرة جميع الآيات التى يطلبونها والتى لم يطلبوها أيضا ما استجابوا ، فإن أمرهم محض جدال ولجاج ولو اخلصوا النية لآمنوا بما نزل ودل على صدق الإيمان والوحدانية .

قلت هذا وأطنبت فيه لأنى رأيت بعض المفسرين يحملون هذا اللفظ (كل) فى مثل تلك المواقع على معنى الكثرة ، لا التعميم(٣) ، نعم إن لهذا اللفظ مواقع يأتى معها مفيدا لمعنى الكثرة لكن فى سياقات أخر نظير ما فى قوله تعالى : (**وعلى كل ضامر**)(٤) ، على ما سيأتى فى سياق بيان هذه السورة المباركة إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة النمل الآية ٢٣ . (٢) سورة البقرة الآية ١٤٥ .
(٣) روح المعانى ج١٧ . ص١١٢ .
(٤) سورة الحج الآية ٢٧ .

وعلى كل حال فإن هذا التركيب : **(ويتبع كل شيطان مريد)** : تصوير بليغ لما عليه حال أولئك المجادلين ، وقد دل على هذا التصوير بتفصيل أكثر فى قوله تعالى : **(ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)**(١) . حيث أفاد هذا التركيب صريحا ما فهم وأوضحناه فى سياق سورة الحج .

والمريد : العاتى فى الشيطنة ، وصيغة هذه الكلمة على وزن الصفة المشبهة موحية بأن هذا الوصف صار له سجية وطبع فهو لا ينفك عن تلك الصفة ، وقد بلغ الغاية فيما يكون عليه أصحاب تلك الصفة .

ومن كان حاله على مثل تلك الحال من الجدال بالباطل والانقياد بالوساوس : فليعلم سوء مصيره فقد كتب على الشيطان أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

ولعلك تلحظ توارد كثير من الضمائر البارزة والمستترة فى هذا النظم مما أشكل أمره على كثير من أهل اللغة والتفسير(٢) . والأمر هين والتوجيه ميسور فإن جملة الضمائر فى قوله تعالى : **(كتب عليه أنه من تولاه فأنه)** : عائدة على الشيطان المذكور فى الآية السابقة ، فهذه الجملة صفة ثانية له بعد وصفه أولا بصفة : (مريد) .

وأما الضميران البارزان فى قوله : **(يضله ويهديه)** فيرجعان إلى متبع الشيطان .

ويمكن أن يحمل لفظ فعل الكتابة هنا على حقيقته إشارة إلى ما هو كائن فى علمه تعالى وما هو مسطور فى اللوح المحفوظ ، ويجوز أن يكون التعبير فى : (كتب) على طريق الاستعارة ، فالكتابة مستعارة للثبوت واللزوم ونحو تلك المعانى على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، حيث صرح بلفظ المشبه به وهو الكتابة ثم صارت الاستعارة من بعد إلى الفعل بالتبعية ، ومن بلاغة هذه الاستعارة أنه قد شاع أن العقد إذا أريد تحقيق العمل به ، وعدم الإخلال بما فيه كتب فى صحيفة تثبيتا لحاله وتشديدا على نفاذه . وكأن المراد هنا لزم الشيطان

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .

(٢) ينظر الفخر الرازى ج١٧ ص٦ ، روح المعانى ج١٧ ص١١٤ ، التبيان فى غريب اعراب القرآن ج٢ ص١٦٨ .

إضلال من اتبعه ودلالته على ما يوصله إلى بئس المصير .

وجملة : (من تولاه) : موصولة وليست (من) شرطية ، لأن المعنى : على الإخبار بهذا الأمر الحاصل من الشيطان على جهة الثبوت ، وليس القصد إلى التعليق بما يمكن أن يقع أو لا يقع كما هو مقتضى جملة الشرط . أى أن الذى يتخذ الشيطان وليا فإن هذا الشيطان يغويه ويضله لا محالة ولقصد تقوية الإخبار عن جملة الموصول :

ألحقت الفاء بقوله تعالى : (فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

ومعلوم أن حال الشيطان دائما : الإضلال ، ولا هداية منه أصلا ، وإنما أسند إليه أمر الهداية هنا على سبيل :التهكم ، وبهذا يلحظ حذف متعلق فعل الإضلال، لأن الإضلال : متعين فى كل ما هو شر وفساد ، ولكن لما كان إسناد فعل الهداية إلى الشيطان مما يستغرب أمره ذكر معه متعلقة فقيل : **(ويهديه إلى عذاب السعير)** ، فدل هذا على أن القصد من الهداية : التهكم لا حقيقة معناه ، إذ لشأنها فى الهداية أن تكون إلى ما هو خير وصلاح ، وعلى هذا فإن فى الجمع بين فعل الإضلال والهداية طباقاً بديعاً .

وقد تفسر الهداية هنا بمعنى : (الدلالة) ، وعلى هذا الاعتبار فهى مسند إلى الشيطان على الحقيقة ، لأنه يهدى متبعيه ، أى : يدلهم بما يزين لهم من أعمال فاسدة توصلهم إلى عذاب النار .

ومعلوم أن جدال هؤلاء المبطلين ما وقع منهم من ارتياب فى أمر البعث والإعادة ، وهنا يتوجه النظم الحكيم إليهم بالخطاب ، فيسوق لهم ولأمثالهم دليلين واضحين على إمكان البعث وتحققه عقلا وشرعا ، فما على هؤلاء المرتابين إلا أن ينظروا ويتدبروا فى أنفسهم ، كيف نشأو أصلا ، وكيف كانت أطوار خلقتهم ، وأطوار حياتهم ، ولينظروا كذلك فى حال الأرض من حولهم ، كيف يحولها الماء المنزل منه تعالى بقدر من أرض ميتة جدبة إلى أرض تحيا بالنبات والأثمار، وفى هذا وذلك ما يقطع بأن الأمر الذى يمارون فيه محقق وواقع ولا غرابة معه ، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل فى أنفسهم ، وفى الكون غافلين ، وفى ذلك: يقول سبحانه وتعالى : **(يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة**

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)الحج٥

واضح أن الخطاب فى هذا السياق مقصود به الرد على أولئك المجادلين المرتابين فى أمر البعث والحياة الآخرة ، وعلى هذا فإن قوله تعالى : **(يا أيها الناس)** فى هذا السياق خاص بهم وبأمثالهم ، على خلاف ما كان عليه حال الخطاب المفتتح به السورة الكريمة ، من حيث كان متوجها إلى عموم البشر ، ويلحظ مجيء موقع غافر مما هو نظير هذه الآية **(هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة..**الآية)(١) ، فإن القصد هنا اثبات أمر التوحيد على خلاف موقع الحج ، فالغرض معه : الرد على المجادلين فى البعث ولهذا : صدر الخطاب معهم بقوله : إن كنتم فى ريب من البعث .

ومادام الحديث مع هؤلاء المرتابين ، فكان ظاهر السياق : إذا كنتم فى ريب فالريب متحقق وواقع منهم ، وهم متلبسون به ، منغمسون فيه ، لا أن يجعل ريبهم مفروضا ، أو مشكوكا فى حصوله على ما يفيده (إن) ، إذ المشهور فيها أصلا : أن تأتى مع الكلام غير المقطوع بحصوله أو القليل أو النادر .

ولعل العدول عن لفظ : إذا المفيدة لمعنى التحقيق ، والتعبير بإن : إشارة بليغة إلى أن هناك من الأدلة الواضحة والقاطعة فى إثبات ما يشكون فيه لو عقلوها ، فكان مقتضى الحال إذن أن لا يقع منهم ريب أصلا ، أو يقال نزل ارتيابهم المتحقق منزلة المشكوك فيه أو النادر لقيام الأدلة على بطلانه ، فكأنه لايعتد بما عليه حالهم ، وإن كان واقع الأمر أن هؤلاء المجادلين لم يكونوا مجرد شاكين ، بل هم على ضرب من الشك شديد ، ولهذا كان التعبير بلفظ : «ريب» دون شك ، لكونه أدل على شديد الشك ، ولقصد المبالغة فى إبراز حال ريبهم : جاء التركيب: (فى ريب)ليدل على تمكن الريب منهم ، وأحاطته بهم ، حتى لكأن هذا الريب قد صار لهم مستودع ، وهم قد استقروا فيه ، وقد أطبق عليهم وأحاط بهم من كل جانب ، فهم لا يستطيعون الفكاك عنه ، وهذه المعانى تأخذ من وراء دخول حرف الظرفية (فى) على : (ريب) ، فانه أفاد أن الريب الذى هم عليه صار كأنه ظرف لهم ، وهم قد قروا فيه ، وهذا الضرب من التجوز فى الحرف مما يجرى على الاستعارة المكنية ، حيث لم يدخل حرف الظرف على مظروف حقيقى وإنما دخل على معنى من المعانى ، كما يقال : فلان فى نعمه ، بغرض الدلالة على مزيد تنعمــه حتى لكأن النعم قد أحاطت به وتــكاثرت عليه من كل جانب

---

(١) سورة غافر الآية ٦٧ .

وجهة ، بحيث صار مداخلا لها ، فهذا الضرب من التصوير يدل على مزيد المبالغة في إبراز المعاني على ضرب من التصوير والتجسيم .

كما أن تنكير : (ريب) في هذا السياق معه مزيد دلالة على الغرض ، حيث دل على التعميم فكأنهم قد استجمعوا أنواع الريب كله فصاروا فيها .

ويعد هذا التركيب المصور لما كانوا عليه من شديد الشك في أمر البعث والاعادة : يسوق النظم الحكيم الرد عليهم ، والاستدلال على صدق وقوع ما يرتابون فيه .

وقد ساق الحق في هذا السياق دليلين .

أولهما : من واقع نفس الإنسان ، وابتداء خلقه ، وأطوار تخليقه وحياته وسلكها في مراتب سبع ، وهي التراب والنطفة والعلقة والمضغة والإخراج طفلا وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد إلى الهرم ، وهذا ما صرح به قوله تعالى :(فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) : إلى قوله (لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) .

ووجه دلالة هذا على إثبات البعث والرد على جدالهم فيه : أن الذي خلق الإنسان من عدم ، وأخرجه من تراب ثم كونه من ماء النطفة ، ثم خلقه على نحو هذه الأطوار لقادر على إعادة الخلق من باب أولى ، إذ من المعهود في العادة والعرف : أن إعادة الشيء أهون وأيسر من أصل إيجاده وإن كان الأمران عند الله تعالى سواء ، لكنه تعالى يخاطب البشر بما تعارفوا عليه ليكون ذلك أقرب تعقل المراد .

ونظرا إلى أن أمر الخلق من الأمور العظيمة ، لأنه إيجاد من عدم ، كان المقام لتعظيم الخالق سبحانه ، لذا جاء التعبير :(فإنا خلقناكم) وفيه إسناد إلى الضمير الدال على التعظيم .

وأما إضافة الخلق من تراب إلى ضمير الجمع : (خلقناكم من تراب) فظاهره : أن البشر جميعا يخلقون منه ، وبذلك قال كثير من أهل التفسير ، على سبيل القطع ، أو الاحتمال(١) .

(فالإنسان ابن هذه الأرض ، من ترابها نشأ ، ومن ترابها تكون ، ومن ترابها عاش ، وما في جسمه من عنصر الاله نظيره في عناصر الأرض ، اللهم إلا ذلك

---

(١) ينظر الكشاف ج٣ ص٥ ، تفسير الفخر ج٢٣ ص٨ ، البحر المحيط ج٦ ص٣٥٢ .

السر اللطيف الذى أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ، وبه افترق عن عناصر ذلك التراب ، ولكنه أصلا من التراب هيكلا وغذاء ، وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب(١) .

ومع فهم هذا التوجيه على هذا الاعتبار ، إلا أنه قد وقع فى صريح القرآن ما يفيد تفصيل أمر الخلق ، فالخلق من تراب : راجع إلى خصوص آدم عليه السلام ، وأما ما عداه من سائر البشر فهم يخلقون من ماء النطفة . يقول سبحانه وتعالى : **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)(٢) .**

وعلى كل حال ، فلا تعارض ، فإن النطفة هى السبب المباشر لخلق البشر ، ومرجعها الأصيل فى الحقيقة إلى الأرض ونباتها ، فهو قوام حياته ومعيشته وعناصر تكوينه ، ومنها النطفة التى يخلق منها البشر .

وعلى ذلك : فإن عطف الخلق من نطفة على الخلق من تراب بثم : يشير إلى المباعدة فى العادة ، أو فى الحقيقة بين الخلق من الأمرين ، فما أبعد التراب على النطفة ، فكان الخلق من كل منهما مع هذا التباعد بينهما أدل على بالغ قدرته تعالى .

والنطفة : اسم لماء الرجل . مأخوذ من النطف . بمعنى : الصب والقطر ، فهو يدفق ويدفع ليصل إلى قرار مكين ، حيث يستقر فى رحم المرأة ليتم به التخليق ، يفسر هذا المعنى قوله تعالى : (خلق من ماء دافق)(٣) .

وبعد حين مقدر تصير هذه النطفة إلى طور آخر مختلف ، فالنطفة تصير : (علقة) والعلقة : الدم المجتمع فى لين ، ثم تتحول العلقة إلى : (مضغة) . وهى القطعة من اللحم ، سميت بذلك . إما لكونها على مقدار ما يضع من اللحم على ما يذكر أهل التفسير(٤) ، أو هى قطعة من اللحم اللين شأن ما يصلح للمضغ من اللحم .

---

(١) فى ظلال القرآن ج٤ ص٢٤٠٩ . (٢) سورة السجدة الآيتان ٧ ، ٨ .

(٣) سورة الطارق الآية ٦ .

(٤) تفسير الفخر ج٢٣ ص٩ .

وعلى أية حال ، فإن : (ثم) الواردة فى عطف تلك الأطوار على معنى التراخى الزمنى ، حيث إن هناك مددا من الزمن فاصلة بين كل طور وما يليه ، هذا ما ذكره أكثر المفسرين(١) وإن كنت ألمح فى هذا السياق : معنى التباعد الرتبى بين تلك المعطوفات من أطوار تخليق الإنسان، فإن مع كل معطوف من تلك الأطوار ترقيا من حيث إن كل طور يأتى إنما هو ارتقاء بحال الذى كان عليه قبله حتى يكتمل الخلق ، ويتم التكوين ، فكان حرف: (ثم) أدل على هذا التفاوت الرتبى ، أو التباعد فى العادة .

ثم يأتى قوله تعالى : **(مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم)** : دليلا آخر على بالغ القدرة والمشيئة ، فليس بحتم أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أن تعبر تلك الأطوار كلها لتخرج من بعد طفلا ، لا ، بل قد تتم الأطوار ويكتمل التخليق، فيبقى الله سبحانه ما فى الأرحام إلى أن يخرج طفلا بمشيئته تعالى ، وهذا معنى : (مخلقة) أى : إذا أراد تعالى إتمام التخليق يبقى ما فى الرحم فيسوى ويصور بشرا ، لكن قد يريد سبحانه لهذا الخلق ألا يكتمل تخليقه ، فيقذفه الرحم فى أى طور من أطوار التكوين ، وهذا مراد (وغير مخلقة) أى : لا يتم أمر الخلق ، فيخرج من الرحم لغير تمام ، وفى كلا الحالين تمام القدرة والمشيئة المطلقة ، فهو المقدر لما يبقى ويخلق ، ولما لا يريد حياة له فلا يبقيه حتى وإن وجدت أسباب التخليق من وقوع النطفة فى الرحم واستقرارها فيه ، وحتى لو أخذت من بعد ذلك حالا آخر من أحوال التخليق والتكوين ، وعلى هذا يفهم مغزى : (لنبين لكم) . أى لنظهر لكم بهذين الحالين فى إتمام الخلق وعدمه باهر القدرة والإرادة ، فكأن هذه الجملة الواردة فى سياق الاعتراض قصد بها : لفت الأذهان والعقول وتنبيهها إلى تمام القدرة ، حتى لا يظن ظآن ، أو يتوهم متوهم أن بالأسباب الظاهرة وحدها تكون الأشياء ويتم أمرها ، فإن من وراء ذلك : مسبب أعلى ، وهو الخالق لها يخرقها إن شاء ، فلا تؤثر شيئا ، ليظل الناس دائما على تنبه من أن من وراء هذا الخلق والكون كله خالق أعلى يدبر شئونه على وفق ما أراد وقدر .

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١١٦ ، التحرير والتنوير ج١٧ ص ٢٠٠ .

وفى الجمع بين لفظى : (مخلقة وغير مخلقة) : طباق حيث جمع بين إثبات الشيء ونفيه ، وهو ما يعرف بطباق السلب وهذا من المواقع النادرة لهذا الضرب ، فإن أكثر ما يرد منه يأتى بين صيغ الأفعال .

هذا إيضاح ما أراه تفسير لقوله تعالى : (مخلقة وغير مخلقة) وتلك غايته ومغزاه . وإن كان بعض أهل التفسير يرون أن هذا التركيب : صفة لمضغة أشار بها إلى طورين آخرين من أطوار التخليق ، فإن المضغة أول أمرها تكون غير مخلقة ، أى : غير ظاهر فيها شكل الخلقة ، ثم تكون مخلقة ، وذلك بعد تمام تشكيل الصورة وظهور أعضاء الإنسان وحواسه وتقديم ذكر (مخلقة) على ذكر : (غير مخلقة) مع أن الترتيب فى الواقع على الخلاف ، لأن : المخلقة أدل على القدرة(١) .

ولا يخفى أن التوجيه الأول أظهر وأدل على الغرض المسوق له الكلام ، كما يدل عليه السياق بعد فى قوله :(ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) حيث أفاد هذا التركيب أن من لم يشأ له سبحانه تمام الخلق : فلا يبقى فى الأرحام، وإنما يقذفه الرحم ، وهذا معنى : (وغير مخلقة) .

والتعبير بصيغة المضارع فى : **(لنبين لكم ونقر فى الأرحام)** لإفادة أن هذا حال يدوم ويتجدد ويتكرر فى كل وقت وحين لكى تبقى العبرة ، ويتجدد الدليل لأمثال هؤلاء المرتابين ، وقد يحمل المضارع : **(ونقر فى الأرحام)** على معنى : استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد فى القبور ، ثم إخراجها منها بالبعث ، كما يخرج الطفل من الرحم .

وحذف مفعول :(لنبين لكم) : لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب مما يرجع إلى بيان ما فى التدبير من الدلالة على القدرة والحكمة ، كأن أصل التركيب : لنبين لكم قدرتنا وحكمتنا ونحو ذلك مما يلائم حال الكلام والغرض منه ، أو يقال إن الحذف إيجاز لفهم المراد من السياق ، فالذهن لا ينصرف إلا إلى نحو هذا المقدر.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص١٩٨ ، والبحر المحيط ج٦ ص٣٥٢ .

والأجل : الأمد المضروب لإتمام شيء ما من نحو عمل أو ميعاد . والمراد هنا : مدة الحمل التي يخرج بعدها الجنين طفلا ، والمسمى : مأخوذ من سماه إذا جعل للشيء اسما يتمازوا به ، ويصير له علامة ، ويستعار هذا اللفظ للوقت المعين المضبوط تشبيها لضبط الأمور غير المشخصة ، بتسمية الشخص ، ووجه الشبه التميز في كل ، ولكل مولود مدة معينة عند الله لبقائه في رحم أمه قبل وضعه، ولهذا استعير لفظ مسمى هنا للأجل لتعين الوقت والمقدر منه تعالى لما يخلق .

وعطف جملة : (ثم نخرجكم طفلا) بحرف : (ثم) للدلالة على التراخي الزمني .

ويلحظ مجيء لفظ (طفلا) على صيغة الإفراد مع أن السياق كله على خطاب الجمع ، ويذكر أهل التفسير أن مرد الأفراد هنا إلى أن هذا اللفظ مصدر فيستوى فيه الإفراد والجمع ، فكأنه قيل : أطفالا ، أو لأن المراد بهذا اللفظ الجنس ، فهو بمنزلة الجمع ، لأنه يدل على جميع أفراده(١) .

وهذا يعني أن ليس في الكلام عدول ، وذلك يخالف ما جرى عليه الاستعمال القرآني ، فقد ورد هذا اللفظ أربع مرات في الكتاب العزيز ، ثلاثة منها بصيغة الأفراد ، وواحد على طريق الجمع ، ولو كان الأمر كما ذكروا لجاءت المواقع كلها على الإفراد مادام المفرد يؤدي غرض الجمع . ولذلك أرى التغيير في المواقع الثلاثة التي ورد فيها اللفظ على الأفراد : يحقق معنى ومغزى وغرض بالحياه ، فقد لحظ أنها وارده في سياق الحديث عن الأطفال في أول عهدهم بالحياة ، يخرجون إليها وذلك في موقع الحج وغافر(٢) ، أو الحديث عنهم قبل البلوغ في آية النور (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء)(٣) . مما يدل على أن الأفراد في لفظ الطفل في هذه المواقع معه رمز إلى أن الأطفال عند ولادتهم ، أو قبل البلوغ على حال واحدة من حيث الفطرة السوية التي فطر الله

---

(١) مجاز القرآن ج٢ ص٤٤ ، الكشاف ج٣ ص٦ ، البحر المحيط ج٦ ص٣٥٢ ، التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٠٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٦٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣١ .

الناس عليها ، فى نقائها وخلوصها مهما تعددت أشخاصهم ، وتباينت صورهم وألوانهم ، فهم بتلك الحال لا يختلفون ، ولا يتغايرون .

فإذا بلغ الأطفال الحلم فقد انتقلوا من سن الطفولة الخالصة إلى طور التكليف والنزول على حكم الشرع فى شئون العبادة وأحوال السلوك وهنا يبدو التباين بينهم والتغاير والاختلاف . ومن هنا نرى القرآن الكريم يسلك فى التعبير عنهم فى تلك الحال لفظ الجمع : **(فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم)**(١) .

ثم يعطف على جملة اخراج الطفل ما هو الغاية والعلة : **(ثم لتبلغوا أشدكم)** .

والأشد : كمال الجسم والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجمع التى لم يستعمل لها مفرد ، وكأن فى بنائه على صيغة الجمع : دلالة على أنها شدة فى أكثر من شىء واحد .

ولعل تخصيص هذه المرحلة من عمر الإنسان بالذكر مع أن هناك مراحل أخر سابقة : لما فيها من بالغ النعمة على الإنسان ، حيث يظهر فيها كمال العقل والتمييز وهما محط تكريمه تعالى للانسان وامتيازه عن سائر الخلق ، كما أنه يحصل بتلك المرحلة تمام بناء الجسم.

ولفظ (ثم) الواقع بين الجملتين : على معنى التراخى الزمنى لمضى مدة بين اخراج الجنين طفلا وبين بلوغه الأشد .

وإذا كان تعالى قد دل فيما سبق على بليغ قدرته فى اتمام الخلق وهو لا يزال فى الرحم إذا شاء ، كما يخرج من الرحم ما لم يرد له تمام الخلق : فقد دل سبحانه على هذا المعنى أيضا بعد تمام الخلق وخروجه إلى الحياة : **(ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)** فمن المعلوم أن سائر البشر صائرون إلى الموت حتما .

---

(١) سورة النور الآية ٥٩ .

وقد أفاد : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أن الغرض من قوله (ومنكم من يتوفى) حدوث الموت فى حال الصغر ، أى قبل بلوغ أرذل العمر ، أى: ومنكم من يمتد عمره إلى تلك المرحلة ثم يموت ، وإنما لم يذكر لفظ الموت مع من يرد إلى أرذل العمر ، لأنه معلوم ، وفى كل من تلك الحالين من أحوال حياة الإنسان عبرة وغرض ، فكما كانت قدرة الله باهرة فى تخليق الإنسان وخروجه حيا إلى تلك الحياة ، فقدرته كذلك بالغة فى إماتته فى أى وقت شاء ، ليظل الناس دائما على توقع من أمر تلك الوفاة فى كل حين ولتظل العبرة من ذلك قائمة أبدا ، وكذلك امتداد العمر ببعض البشر من ورائه غاية وعبرة أيضا ، فليس ذلك فى ذاته امتيازا لفريق من الناس كتب لهم التعمير على فريق آخر قدر له الوفاة من قبل ، وإنما ذلك التعمير : لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ، فهذا التركيب يدل على الغاية والعبرة من وراء بلوغ أرذل العمر .

وهذا التركيب صالح لأن يراد منه عدم إمكان حصول هذا الفريق من الناس على معلومات أخرى جديدة غير تلك التى كانوا قد علموها من قبل مع بلوغ الأشد ، كما أنه يمكن أن يفهم من هذا التركيب أن هؤلاء وقد وصل بهم العمر إلى تلك الحال من ضعف بنية الجسم وفتور قوى العقل والفكر فلم يعودوا أهلا لتذكر أو حفظ ما كانوا قد علموه ، بل تصير حالهم إلى حال النسيان وفقدان التمييز بين الأشياء ، واختلاط الأمور عليهم ، وفى هذا المعنى وذاك عبرة لأمثال أولئك الذين يغترون بما يحصلون من علم حال فتوتهم ، وظهورهم على نحو من الخيلاء والكبر والغرور ، حتى إذا ما وصل بهم إلى تلك الحال التى لا يستطيعون فيها تذكر أقل الأشياء ، وأقربها إلى باب التذكر علم موضع الاعتبار ، وهنا يظهر حسن موقع لفظ أرذل العمر ، إذ هو مناسب لما يصير إليه حال من يعمر بهم ، كما يدرك وجه حسن موقع كلمة شىء فى هذا السياق حيث دل على أن هؤلاء قد وصل بهم الحال إلى أنهم لا يعلمون شيئا ما ، صغر أو كبر ، عظيما كان أم حقيرا وللمبالغة فى تحقيق نفى العلم عن هؤلاء على هذا النحو دخلت : (من) فى قوله (من بعد علم شيئا) ، وأما خلو موقع النحل عنها حيث ورد هناك (لكيلا يعلم بعد علم شيئا)(١) ، فلأن السياق مختلف ، حيث ذكر فى

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٠ .

موضع الحج أطوار تخليق الإنسان وأطوار حياته على جهة التفصيل وقد صحب لفظ :(من) هذه الأطوار من مبدئها : (من تراب ثم من نطفة ثم من علقة إلى آخره) ، بخلاف ما كان عليه الحال فى موقع النحل حيث ذكرت تلك الأطوار مجملة حيث ورد النظم الحكيم (والله خلقكم) فأجمل ما فصل فى سورة الحج ، وبعده : **(ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا)** فاقتضى هذا الإجمال الحذف كما اقتضى التفصيل فى موقع الحج إثبات (من) للدلالة على تناسق النظم ، وأيضا المبالغة فى نفى تحصيل ما هو من جنس العلم حال بلوغ الإنسان أرذل العمر ، فاجتمع بذكر (مَن) فى هذا الموقع مراعاة جانب اللفظ ، ومراعاة جانب المعنى كذلك .

وبعد أن بين النظم الحكيم لهؤلاء المرتابين هذا الدليل على إمكان البعث المجادلين فيه من واقع خلقهم وأطوار حياتهم : عطف على ذلك دليلا آخر تأكيدا لهذا الاستدلال : **(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)** .

وأول ما يلحظ من بيان هذا الدليل : تصديره بصيغة خطاب المفرد مع فعل الرؤية : **(وترى الأرض)** على خلاف ما كان عليه الحال مع الدليل الأول **(فإن خلقناكم)** حيث جاء على صريح الجمع .

وقد يقال : إن الخطاب هنا لغير معين ، فيعم كل من يسمع هذا الكلام فيكون بهذا الاعتبار بمعنى الجمع ، حتى وإن كان ظاهر لفظه على صيغة الإفراد(١) ، ولكن يبقى السؤال عما وراء مجيء الخطاب هنا على صورة المفرد ؟.

ولعل التوجيه لذلك ، أن هذا الدليل : يمتاز بأنه مما يشاهد ويتيسر لكل أحد من الناس معاينته ، بخلاف حال الدليل الأول ، فإن مبدأه ، وهو خلق الإنسان من تراب ثم نطفه: غير مشاهد للكافة ، فكأن إيثار الافراد مع الخطاب الثانى : إشارة إلى ظهور أمره لأفراد الناس ، حتى لكأنه قيل : ليرى ذلك أفراد الناس فردا فردا ، فأفـراد الخطاب فى ظاهر الحال : دلالة على قصد استيعاب المخاطبين

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص٥١٣ .

واحدا واحدا ، فكأنه موجه إلى خصوص كل أحد ، وهذا أبلغ فى الاستدلال وأدل على قوة الدليل بحيث يتيسر لكل أحد رؤيته ومشاهدته ، ومن هنا صدر هذا الخطاب بفعل الرؤية دون الخطاب الأول ، لتعلق بعض أطواره بما هو مستور عن العين .

ومع الاختلاف فى حال هذين الدليلين من حيث الجهة والمعنى لكنها على توافق من حيث الغرض كما أن بينهما تناسبا من حيث ما عبر به عن كل منهما ، فمحل الاستدلال هنا قوله تعالى ، **(فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت)** ، فهو مناسب لقوله فى الخطاب الأول : **(فإنا خلقناكم من تراب)** ، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت .

وهمود الأرض : سكونها وجفافها ، وهو سكون خاص ، إذ هو عارض لها بعد حركة وإنبات سابق ، ومن هنا يبدو وجه إيثار هذا اللفظ للتعبير عن حال الأرض فى تلك الحال ، لما فيه من ملائمة للمعنى المراد ، فإن الهمود يراد به الموت كالخمود قال تعالى : **(حتى جعلناهم حصيدا خامدين)**(١) ، والأرض فى حال فقدها الماء وانعدام إنباتها كالموات ، **(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها)**(٢) ، فكأن العدول إلى لفظ الهمود المعبر به عن موت الأرض : أدل من التعبير بلفظ السكون .

وقد ورد فى موقع فصلت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة)(٣) ، فأسند لها الخشوع الذى هو خضوع وتذلل مع خوف ورجاء ، فكأن الأرض بذلك التصوير الذى دل عليه بلفظ :(خاشعة) صارت بفقدان الماء فى تلك الحال التى امتزج فيها معانى الخوف من دوام تلك الحال ، والاذعان لقدر الله والرجاء والطمع فى حصول ما به خلاص ، فانظر كيف كان إسناد تلك اللفظة إلى الأرض موحيا بأمثال تلك المعانى الجليلة والمقاصد العالية لكى يكون من وراء ذلك للإنسان عبرة ، فإذا

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٥ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٩ .

(٣) سورة فصلت الآية ٤١ .

كانت الأرض وهى جماد موات هذا حالها ، فما البال بالإنسان ذى العقل والتمييز يشقى نفسه ، ويملأ نفسه اليأس إذا ما نزل عليه قضاء من قدر الله لا يروقه لكونه فى ظاهر الحال مما لا يسر .

وأما الأرض : **(فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)** .

فالأرض بنزول الماء عليها تتحول عما كانت عليه من كونها يابسة ساكنة جدبة لانبات فيها ولا نماء ، إلى تلك الحال من الحركة التى تهيىء للإنبات إذا ما نزل عليها المطر ، ومع أن ظاهر فعل الانزال يخيل تخصيص الماء بماء المطر ، وبذلك قال جمع من أهل التفسير(١) ، فإن الحقيقة والواقع والمراد - والله أعلم - أن تلك الحال الحاصلة للأرض تكون مع كل ماء مما نزل من السماء مباشرة ، أو مما سلك منها ينابيع فى الأرض ، من عيون وأنهار ، وهذا لا يتعارض مع لفظ الإنزال ، فإن الماء كله منزل من السماء ، وموقع سورة المؤمنون صريح فى هذا المعنى : **(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض)**(٢) .

واهتزاز الأرض : حركتها وتشققها حتى يتهيىء بذلك خروج النبات ، وربت أى: انتفخت وازدادت لما تخللها من الماء(٣) .

والتعبير عن حال الأرض بعد ريها بالماء بالاهتزاز : مشعر بالعطاء وفيض الكرم والسماح ، كما يهتز الممدوح للمدح طربا ، فكذلك الأرض فكأنها حين سقيت الماء التى كانت على شوق منه لشديد حاجتها إليه : صارت وقد نالته على حال من تمام الرضا فهى تهتز إيذانا بأنها سوف تعطى ما يرضى ويسر من نباتها ، فإنها وقد خالطها الماء سرت واهتزت فأخرجت النبات من كل صنف مما يسر ويعجب : وأنبتت من كل زوج بهيج .

أرأيت كيف كان العدول إلى لفظ «هامدة» فى التركيب السابق ، وإلى لفظ :

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١١٩ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٨ .

(٣) ينظر تفسير غريب القرآن ص ٢٩٠ .

(اهتزت) فى هذا التركيب موحيا بأمثال تلك المعانى الجليلة .

كما يلحظ فى سياق هذا التركيب كذلك : حسن الترتيب بين المعطوفات ، حيث قدم لفظ الاهتزاز على لفظ الربو ، ولفظ الربو على الإنبات ، لأن ذلك يوافق الحال الواقعة ، فإن الأرض إذا خالطها الماء : تتحرك وتنتفخ لأن النبات إذا شارف أن يظهر هيئت له الأرض ذلك بانتفاخها فيتيسر له الظهور فيخرج ، كما نلحظ فى إيثار العطف بالواو: معنى تلاحق تلك الأحوال ، حتى لكأنها تحدث فى وقت واحد ، فلا مهلة ، ولا فاصل بين كل حال وآخر ، وفى ذلك أتم مناسبة مع حال الأرض التى صارت إليه عندريبها بالماء ، من شدة التهيؤ للإنبات ، كما أن فى ذلك أيضا إشعارا ببالغ قدرته تعالى فى إيجاد تلك الأحوال المختلفة على هذا النحو المشعر السياق بتتابعه .

وبعد أن أوضح النظم الحكيم تلك الأدلة القاطعة فى إثبات ما كانوا يجادلون فيه : عمد النظم الحكيم إلى بيان ما يستخلص من هذا من اختصاصه تعالى بالوحدانية ومقتضياتها من أوصاف وصدقه تعالى فى كل ما أخبر عنه من غيب.

يقول سبحانه وتعالى : **(ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)** الآيتان (٦، ٧) .

فهذا كلام مستأنف جىء به بعد إيضاح تلك الأدلة على إثبات البعث : لبيان أن من قدر على خلق الإنسان على هذه الأطوار ، والقادر على إحياء الأرض بالنبات على هذا النحو العجيب : تحق له الألوهية وسائر الأوصاف اللائقة بها ، وأن كل ما أخبر به تعالى صدق وحق وسيقع .

وعلى هذا ، فإن اسم الإشارة : (ذلك) راجع إلى ما سبق من أطوار خلق الإنسان ، وإحياء الأرض بالنبات .

وإفراد الخطاب مع اسم الإشارة : لأن المراد : خطاب غير معين على نسق قوله تعالى : **(وترى الأرض هامدة)** على أن استعمال تلك الإشارة مع ضمير الإفراد : هو الأصل والكثير فى عرف الاستعمال فى القرآن الكريم .

وما فيه من معنى البعد : إشارة إلى بعد هذه الأدلة فى المنزلة لدلالتها على

بالغ قدرته تعالى وإيرادته .

وقد نبه بذلك على أن من كانت قدرته وإرادته على تلك الحال فهو الإله الحق : **(ذلك بأن الله هو الحق)** .

والحق : الثابت الذى لامراء فيه ، أى : هو الحق وحده فى ذاته وصفاته . ومادام الكلام لايزال فى سياق الرد على أهل الجدال والشرك : فالقصر المستفاد من هذا التركيب : إضافى . أى : دون غيره من معبوداتكم ، فإنه لا وجود لها فى الحقيقة : **(إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان)**(١) .

وهذا الأمر الوارد فى تلك الجملة هو الأصل الذى ينبنى عليه سائر ما ذكر هذا النظم الحكيم ، فمادام تعالى هو الإله الحق ، وقد ثبت له إحياء الإنسان والأرض من قبل ، فهو تعالى إذن يحى الموتى من بعد ذلك ، فإنه على شىء من الإحياء والأمانة وإعادة الإحياء والبعث : (قدير) ، فصيغة : (قدير) هنا : للمبالغة المناسبة لحصول تلك الأحوال المتباينة والمتباعدة ولأنه تعالى بالغ القدرة ، فالقيامة التى أخبر عن وقوعها ستقع : **(وأن الساعة آتية لا ريب فيها)** .

والساعة : القيامة ، وقد صار هذا اللفظ فى استعمال القرآن بمثابة العلم عليها، فصارت تعرف به ، **(يسألونك عن الساعة)**(٢) . **(ويوم تقوم الساعة)**(٣) .

والتعبير فى جانب وقوع القيامة باسم الفاعل : (آتية) : للدلالة على تحقق وقوعها ، ثم إنه يلمح كذلك مع هذا التعبير (آتية) : معنى الإقبال ، فهى متهيأة مشرفة على الوقوع مقبلة قادمة قاطعة لمسافات الزمان ، فإن كل يوم يمر يقرب أمرها ، شأن الآتى فى الطريق ، فإن كل خطوة يخطوها تقربه إلى غاية وصوله ، وفى ذلك مزيد تصوير لحال القيامة ، كى يظل الناس على تنبه وتوقع

---

(١) سورة النجم الآية : ٢٣ .

(٢) سورة النازعات الآية : ٤٢ وآيات أخر فى سور أخر .

(٣) سورة الروم كررت هذه الجملة فى سورة الروم ثلاث مرات الآيات ١٢ ، ١٤ ، ٥٥ .

أوان حدوثها ، وإن كانت فى الحقيقة ليست هى الآتية ، بل مأتى بها ، والفاعل لذلك فى الحقيقة : هو الله سبحانه ، ولكن لما كان القصد : إلى إتيان الساعة ذاته ، ولأن الفاعل فى أمثال تلك الأمور متعين ، فليس لذلك فاعل غيره ، جاء التعبير على هذا الطريق فى الإسناد والتجوز .

وجملة **(لا ريب فيها)** مراد بها نفى حصول الشك فى قيام الساعة فى حقيقة الأمر ، فإنها واقعة وثابتة ، ومادام الحال لذلك ، فلا عبرة بشك المرتابين ، ولينزل شكهم هذا منزلة المعدوم ، حتى لكأنه ليس هناك ريب أصلا ، وإن كان من حيث الواقع هناك من يرتابون .

ويتبع قيام الساعة : بعث الناس من القبور ، لأن هذا من شئونها . وكأن فى التعبير بصيغة المضارعة فى أمر البعث هنا ، والإحياء فيما سبق إشارة إلى استحضار تلك الحال العجيبة حتى لكأن الإنسان على مشهد منها ، وإلا فكان مقتضى ظاهر النسق وأنه محيى الموتى ، وأنه باعث من فى القبور على نسق أسم الفاعل المعبر عن إتيان الساعة .

يبقى من بيان هذا النظم الحكيم ملحظ ، ذلك أن جملة : **(بأن الله هو الحق)** : قد اختصت عن سائر الجمل الأخر بضمير الفصل (هو) . والحكمة البيانية لهذا : أن التركيب فى سياق إثبات الألوهية لله تعالى ، وفى واقع الحال من ينكر ذلك ، ويجعل هذا الحق لآلهة أخر مزعومة من نحو الأصنام والأوثان ، فكان مقتضى الرد : المبالغة فى تأكيد اختصاصه تعالى بهذا الحق دون غيره . وأما الأمور الأخر من إحيـاء الموتى ، والقـدرة على كل شىء فلم يدعها أحد ولم يكن من أمثال هؤلاء المشركين أو غيرهم من يثبتها لغيره تعالى ، فلم تكن الحال إذن داعية إلى المبالغة فى التوكيد والاختصاص فيأتى ضمير الفصل المحقق لهذا المعنى .

وقد جرى البيان القرآنى على هذا النحو على جهة الاضطراد فى أكثر الأحوال نظير ما فى قوله تعالى أخبارا عن حال إبراهيم مع قومه حيث سفه آلهتهم وأبان أحوال عجزها ، ثم ذكر لهم فى المقابل ما عليه حال الإله الحق : **(الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو**

يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين)(١) .

فهذه الأفعال كلها من أحواله تعالى وشئونه ، إلا أننا نلحظ أن فعل الخلق والإحياء والإماتة لم يجىء معها ضمير الفصل ، على حين ذكر مع فعل الهداية والإطعام والسقاية والشفاء ، وذلك لأن أمثال هذه الأفعال مما تنسب فى العادة والعرف إلى غيره تعالى فكان المقام للمبالغة فى توكيد الاختصاص فذكر معها ضمير الفصل ، على خلاف أمر الخلق والإحياء والإماتة فهذه من أحواله تعالى الخاصة وشئونه فى الحقيقة والواقع ، فلا يسند شىء منها إلى غيره سبحانه ، ولذا لم يحتج معها إلى زيادة تأكيد الاختصاص فيؤتى معها بضمير الفصل .

وكذا الحال مع قوله تعالى : **(وأنه هو أضحك وأبكى)**(٢) ، لأن فعل الإضحاك والإبكاء مما ينسب فى الظاهر إلى البشر ، فكان إسنادهما إلى الله تعالى على جهة الإختصاص المؤكد ، فهو الفاعل والمسبب لهما على الحقيقة ، غير أنه يلحظ خروج بعض المواقع عن هذا الإضطراد ، حيث تلى قوله تعالى السابق : **(وأنه هو أمات وأحيا)**(٣) ، فقد ذكر هنا ضمير الفصل مع فعل الإحياء والإماتة ، وقد حاولت أن ألتمس لذلك وجها من خصوص سياق هذا الموقع، إلا أننى لما أهتد بعد إلى ما يمكن القول به على نحو تطمئن إليه النفس ، ولا غرابة ، فاعجاز القرآن الكريم سيظل فوق كل محاولة ، وأبعد عن كل تناول .

ومع وضوح تلك البراهين التى عرضها النظم الحكيم فيما سبق والقاطعة بثبوت البعث ووقوعه على جهة اليقين بما ينتفى معه كل ارتياب ، فلا يزال فريق من الناس على ما كانوا عليه من جدال وعناد وكبر وإضلال دون مستند لهم من عقل أو نقل . يقول سبحانه وتعالى : **(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد)** . الآيات :(٨ ، ٩ ، ١٠) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

(٢) سورة النجم الآية (٤٣) .

(٣) سورة النجم الآية .

فهذا النظم الحكيم وارد فى سياق بيان حال أولئك المجادلين السابق ذكرهم قبل ذلك بغرض الدلالة على دوامهم على الشرك والجدال ، ولا يعد ذلك تكريرا ، إذ المتكرر فى الحقيقة جدالهم ، كما أنه ورد هنا بعض أحوال هؤلاء كما ذكر غرضهم من جدالهم وكذا مصيرهم .

وبعض المفسرين يميلون إلى حمل الآية الكريمة السابقة على ضعاف المشركين ممن يجادلون تقليدا واتباعا لكبرائهم ، وهذه فى المتبوعين من أئمة الكفر ورءوس الشرك والعناد الذين يحرضون على المجادلة ، ودليل ذلك من اللفظ : أنه جاء مع الآية الأولى : **(ويتبع كل شيطان مريد)** ، والشيطان المريد مفسر بما يشمل شياطين الإنس من أمثال أبى جهل والنضر بن الحارث كما يشمل شياطين الجن ، على خلاف ما جاء مع هذه الآية ، وهو قوله تعالى : **(ولا هدى ولا كتاب منير)** (فإن مثل ذلك لا يقال إلا للمتبوعين من زعماء الجدال والكفر(١) ، ومع أن أمثال الطيبى يرى هذا التوجيه أوفق بالمقام ، فلا زلت أرى التوجيه الأول هو الأليق بالمعنى والغرض ونظم الكلام ، وفى أسباب النزول ما يستأنس به لذلك ، فإن المأثور فى حقهم التنزول مع الآية الأولى هم أنفسهم الوارد معهم مع الآية الثانية ، وكلهم من شيوخ الكفر وعمد الضلال وأوتاد الشرك ، وإن بقى المعنى ينطبق على كل مجادل بغير حق فى كل زمان وجيل .

ويلحظ أن النظم الكريم هنا قد سلب عن هؤلاء المجادلين سائر الوسائل التى يركن إليها فى الجدال الحق ، فهم يجادلون عن جهل ، : (بغير علم) ، كما أنهم فاقدوا النظر الصحيح فمع فقدانهم العلم فليس عندهم أداة تحصيله ، وهذا مراد قوله تعالى : **(ولا هدى)** فالمراد بالهدى هنا : النظر الصحيح ، لأنه يهدى إلى المعرفة ، وهنا يبدو معنى عطف نفى الهدى على انتفاء العلم عنهم ، وحيث نفى سبحانه عنهم استناد مجادلتهم إلى شىء مما يرد إلى العقل : ثلث فى اللفظ فجاء بأمر يرد إلى النقل ، فنفى تعالى عنهم أن يكونوا قد استندوا إلى شىء من وحى أظهر لهم صواب ما يجادلون فيه فيصير المعنى من جملة هذا التركيب أنهم يجادلون فى ذاته تعالى أو فيما أخبر عنه من غيوب من غير تمسك بمعرفة ودون نظر وفكر ومن غير دليل صحيح ، وإنما جدالهم : محض سفه وجهالة وتلبيس دفعهم إليه ما هم عليه من كبر وغرور .

---

(١) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص١٢ ، البحر المحيط ج٦ ص ، روح المعانى ج١٧ ص .

وعلى ذلك فالمراد بالكتاب المنير : كتب الشرائع مثل التوراة والإنجيل . والمنير المبين للحق ، شبه بالمصباح المضىء فى الليل ، حيث إن تلك الكتب السماوية منزلة منه تعالى لهداية البشر وإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان واليقين ، هذا هو الأصل فيها وإن حاد أصحابها وانحرفوا عن المنهج ، وحرفوا ما نزل .

هذا إيضاح ما يذكره المفسرون مرادا لتلك الأمور المنفية عن هؤلاء المجادلين . وقد بدالى فى توجيه هذه الأمور الثلاثة وأرجو أن يكون له حظ من الصواب ، وهو أن يكون المراد بالعلم المنفى عنهم : كل ما يمكن أن يستندوا إليه فى جدالهم من جهة العقل ويراد بالهدى: عموم الكتب السماوية المنزلة لهداية البشر كالتوراة والإنجيل والقرآن ، وأما الكتاب المنير : فيراد به القرآن الكريم على جهة الخصوص، ويكون العطف على ما سبقه مع دخوله فيه على طريق عطف الخاص على العام اعتناء بشأن ذلك المخصوص بالذكر ، وعلى هذا الاعتبار يبدو واضحا وجه العطف بين هذه الأمور ، ومما يعضد هذا الاحتمال : أن الاستعمال القرآنى جار على وصف القرآن الكريم بمثل هذا نظير قوله تعالى : **(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)**(١) .

ثم يمضى النظم الحكيم فيوضح بعض الأحوال المصاحبة لهؤلاء المجادلين والمعبرة عن مزيد كبرهم وإعراضهم وهذا مراد قوله تعالى: **(ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله)** .

وثنى العطف كتصعير الخد وليّ الجيد : كناية عن الكبر والخيلاء والإعراض عن الحق ، والمقصود بهذا : الدلالة على عدم استجابة أولئك المجادلين .

وأصل هذا التركيب أن : الثنى يراد به : لى الشىء ، يقال : ثنى عنان فرسه، إذا لواه ليدبر رأسه فى الجهة التى يريد أن يتوجه إليها ، كما يطلق لفظ الثنى على إمالة الشىء أو طيه .

والعطف : بالكسر الجانب .

ومن بلاغة هذا اللفظ الذى لم يرد فى القرآن نظيره أن فيه تعريضا ببعض

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٦ .

كبراء المجادلين ، فهذه الصفة تنطبق على حال أبى جهل ، فقد كان يميل بجانبه ويشمخ بأنفه إذا ما سمع أو رأى مجلس إيمان .

ثم يأتى قوله تعالى : **(ليضل عن سبيل الله)** : بيانا لغرض ذلك الجدال الآثم ، إذ كان مقصود هؤلاء الأصيل صد الناس عن أتباع الدين الحق والتغرير ببعضهم تارة أو التنكيل ببعض المؤمنين كي يصرفوهم عن دينهم الذى هداهم الله إليه تارة أخرى ، ومن هنا نلحظ إيثار التركيب حذف مفعول الإضلال ، إذ الغرض إثبات إضلالهم لكل من يستطيعون معه ذلك ، سواء من أتباعهم ممن هم على حال الضلال ، والغرض دوامهم عليه وثباتهم وازديادهم ضلالا وانغماسهم فيه ، كما أن مرادهم بذل الجهد والطاقة كى يصرفوا بعض أهل الإيمان فيخرجوهم عن الإسلام لو استطاعوا ، لهذا الله حذف مفعول الإضلال لإفادة التعميم فإن القصد إثبات حال إضلالهم ودوام تلك الحال وتجددها ، ولهذا كان التعبير بفعل المضارعة (ليضل) لإفادته أمثال تلك المعانى ، كما يلحظ تواتر القراءات السبعة على قراءة : (ليضل) بضم الياء ، وفى ذلك دليل على أن الغرض لهؤلاء المجادلين إضلال غيرهم ما تيسر لهم ذلك .

واما على قراءة : (ليضل) بفتح الياء على رواية لأحد قراء السبعة(١) ، فالغرض حينئذ أن المجادل إنما يقصد بتلك الأحوال البادية على حالة تثبيت أمر ضلاله وتأكيده فى نفسه .

وإفراد الضمائر فى هذه الآية مراعاة للفظ (من) فى قوله : **(من يجادل)** وإن كان معنى تلك الضمائر فى الحقيقة للجمع .

هذا بيان حال جدالهم ، وأما عن حال جزائهم فقد جاء به قوله تعالى : **(له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق)** ، وقد جمعت لهم هذه الجملة عقاب الدنيا والآخرة ، فلهم فى الدنيا خزى، وخزى الدنيا : الإهانة ويدخل فى ذلك ما أصابهم من قتل وتنكيل يوم بدر ومن قتل وأسر بعد ذلك ، وينطبق الخـزى أيضـا على ما وقع لأبى جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ هى قراءة ابن كثير ، وابو عمرو ، ورواية رويس عن يعقوب الإتحاف ج٢ ص٢٧١ .

شباب الأنصار ، واعتلاء عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه ، حدث له كل هذا على يد أمثال هؤلاء ممن كانوا لا يخطرون على باله أن يقع منهم هذا ، كيف؟ هو أحد رءوس الشرك والكفر والطغيان ، وقد كان على حال من الكبر والخيلاء شديد ، كما ينطبق الخزى فى الدنيا كذلك على ما حل بالنضر بن الحارث من أسر يوم بدر ، وقتله صبرا .

وإذا كانت هذه الآية ونظيرتهما التى سبقت فى بيان حال المجادلة : مما نزل بمكة قوله تعالى : **(له فى الدنيا خزى)** من الإخبار بالغيب حيث أخبر تعالى بذلك الأمر ، وقد تحقق بعد ذلك ، وهذا من وجوه إعجاز القرآن ، فقد سبق وعلمت أن أبا جهل والنضر ممن نزلت فيهم هذه الآيات ، وقد حل بهما ما فيه خزى وعبرة لأمثالهم ، هذا فى الدنيا ، وأما ما سيكون فى الآخرة : **(ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق)** أى : النار البالغة فى الإحراق ، والمراد العذاب البليغ فى الإحراق .

ولا يخفى وجه المبالغة فى أمر هذا العذاب اللاحق بهم ، وكذا ما فى التعبير من معنى يلوح بالاستهزاء والتهكم بهؤلاء ، حيث جعل العذاب الواقع عليهم من جنس ما يطعم ويذاق على سبيل التشبيه والاستعارة ، وفى التعبير رمز ذلك المستعار المحذوف ودليله ، وهو فعل الإذاقة ، وهذا مما يجرى على طريق الاستعارة المكنية .

ثم يكشف النظم الحكيم عن السبب فيما كان ويكون من عقوبة : **(ذلك بما قدمت يداك..)** .

فالإشارة هنا : **(ذلك)** إلى عقاب الدنيا والآخرة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى الغاية من الشدة والفظاعة . وقوله : **(بما قدمت يداك)** : بيان للسبب الذى كان من أجله ذلك الخزى والعذاب ، وتخصيص اليدين بالذكر : لما جرت عليه العادة من أن غالب الأعمال تكتسب وتزاول بها . فالكلام على سبيل التغليب ، حيث إن الخزى والعذاب على كل عمل يعمله الإنسان يستوى فى ذلك ما كان منه بيديه أو بعضو آخر أو حاسة من حواسه ، مادام فى ذلك مخالفة للمنهج .

ويمكن فَهْم هذا التركيب على وجه آخر فمعنى : **(قدمت)** : أسلفت . جعل كفر هذا المجادل كالشىء التي يبعث به إلى دار الجزاء أن يصل هو إليها ، فوجده يوم القيامة حاضرا .

وأما ما يلحظ من مجيء التركيب هنا على صيغة الإفراد ، ومجيء موقع آل عمران على طريق الجمع : **(ذلك بما قدمت أيديكم)**(١) . فلأن السياق مختلف . فقد كان الكلام عن حال اليهود وقد ادعوا عليه تعالى كذبا وبهتانا أنه فقير وهم الأغنياء ، وقد جرى الحديث عن تلك المقالة الآثمة على طريق الإسناد إلى الجمع : **(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق)**(٢) . فناسب ذلك الجمع ، وأما ما هنا فقد جرى النسق على طريق الإسناد إلى المفرد فناسب ذلك إفراد الخطاب هنا .

ثم يعطف النظم الحكيم ما يكشف أن ما سيقع على هؤلاء من عذاب وما حل بهم في الدنيا إنما هو بمقتضى حكمه تعالى العدل ، فإن كفرهم وعنادهم وجدالهم بالباطل : هو الذي جر عليهم هذا : **(وأن الله ليس بظلام للعبيد)** .

وصيغة المبالغة : تقتضى بظاهرها نفى العذاب الشديد ، والمقصود نفى أصل الظلم ، إذ هو تعالى لا يظلم الناس مثقال ذرة .

ومجيء هذا التركيب على تلك الصيغة فى نفى الظلم فى سائر مواقعه فى القرآن الكريم مما أشكل أمر تفسيره على كثير من أهل العلم والتفسير ، وذكروا فى ذلك توجيهات عديدة ومختلفة ، وأكثرها لا يخلو من تكلف أو غموض ، والأمر فى التوجيه يسير .

ومرد هذا الإشكال أنه قد جرى فى العرف أن نفى المبالغة فى حدوث الشيء لا يقتضى بالضرورة نفى أصل الشيء فحيث يقال فلان ليس بقتال ولا بسفاك ، لا يلزم من ذلك التعبير أنه لا يقع منه قتل أو سفك أصلا ، وإنما المنفى عنه وقوع ذلك القتل والسفك منه على هذه الجهة من المبالغة ، وعلى هذا القياس لا يلزم من نفى صفة الظلم على جهة المبالغة عنه تعالى نفى أصل وقوعه ، وهذا المعنى فاسد ، وغير واقع فى جانبه تعالى ، وغير مراد قطعا ، : **(إن الله لا يظلم الناس شيئا)**(٣) ، : **(إن الله لا يظلم مثقال ذرة)**(٤) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨١ .

(٣) سورة النساء الآية : ٤٠ .

(٤) سورة يونس الآية ٤٤ .

وأمر التوجيه لذلك يسير ، فحيث جاءت صفاته تعالى اللائقة بذاته على جهة المبالغة في أمثال قدير ، وعليم ، وسميع ، وبصير ، فكذا يكون الحال مع الأوصاف غير اللائقة فترد منفية على تلك الجهة من المبالغة أيضا ، ولا يقتضى ذلك إثبات شيء من الظلم ، أو يقال إنما جاء النفي معه تعالى على جهة المبالغة، لأن الظلم من حيث هو ظلم أمر شديد ، لأن فيه تجاوز الحد والعدل والعقل ، وهذا مما يتعارض مع الحكمة الآلهية فجيء في نفيه بصيغة المبالغة للدلالة على هذا المعنى .

ولا يخفى حسن موقع وصف الربوبية مضافا إلى ضمير الخطاب:(وما ربك)(١) من حيث ملاءمته لنفي إيقاع الظلم قليله وكثيره على من هو رب له ، فإن هذا الوصف يشعر ببعد أن يعمد من هو بوصف الربوبية إلى ظلم من هو ربه ، وإنما ذلك المربوب هو الذي جر على نفسه بكفره وجداله العذاب ، كما حسن موقع لفظ:(عبيد) في هذا السياق دون العباد ، كما جرى على ذلك عرف القرآن ، وذلك أن الحديث هنا عن عذاب الآخرة ، والناس كلهم يومئذ بين يديه سبحانه ، وهم في حال خضوع وتذلل وإذعان تام . فلا تكبر ، ولا خيلاء ولا غرور كما كان هو حال أولئك المجادلين في الدنيا ، بل الجميع خضوع وعبيد ، وهو تعالى المالك لأمرهم كلهم يفعل بهم كيف يشاء ، ومع كون حالهم على هذا النحو من الضعف والاستكانة والمذلة ، ومع ما عليه حاله تعالى من تمام القدرة والكبرياء والجبروت ، فلا ظلم ، ولا جور في حكمه وعذابه ، وبهذا يدرك ما وراء التعبير بلفظ : (عبيد) هنا ، والتعبير بلفظ :(عباد) في المواقع الأخرى ، نظير ما في قوله تعالى : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله..)(٢) ، فمع كون الحديث والخطاب مع الكفرة ، والمسرفين على أنفسهم ، إلا أن الكلام وارد معهم في سياق الترغيب والإقبال على التوبة ، وذلك أمر وارد ومتوقع ، إذ الخطاب في حال الدنيا ، فكان التعبير عنهم بلفظ العباد موحيا بمعاني الترغيب حتى يصيروا بخالص التوبة عبادا صالحين ، وأما حال الآخرة فلا مجال لنحو هذا ، فقد حق القول ، وأبرم الأمر ، فكان لفظ : (عبيد) لكل هذه المعاني بخصوص سياقه أبلغ ، كما كان لفظ (عباد) في سياقاته أنسب .

ويلحظ أن النظم الحكيم قد تنقل في عرض حال أهل الجدال وسوء مصيرهم ، حيث بدأ الحديث عنهم على أساليب الغيبة ، فقص عنهم جدالهم أولا ثم صار

---

(١) سورة فصلت : ٤٦ .

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣ .

الكلام إلى مواجهتهم بالخطاب للتدليل على صدق ما كانوا يجادلون فيه ، ثم عاد الكلام إلى طريق الغيبة ، لبيان حال إصرارهم ، على مداومة الجدال ، ثم سلك الكلام معهم طريق الخطاب والمواجهة مرة أخرى ، حيث كان القصد التوعد بالعقاب .

وهذا الضرب من التلوين والالتفات له بلاغته لمناسبة كل حال غرضه . لأنه يريك المتحدث فى شأنه أول الأمر مغيباً ، وإن كان حاضرا ، لأنه بسبيل قص أوصاف وأحوال سقطوا بها عن رتبة المخاطبة، فصاروا بذلك غير أهل لأن ينالهم شرف مخاطبته تعالى ، إذ الكلام عن أحوال جدال وارتياب وجهل ، فطريق الغيبة إذن مع أمثال هؤلاء يحقق معنى التجهيل والحط من شأنهم ، وعدم الإعتداد ، وإنما تحكى عنهم أحوالهم وقبائحهم ، وإن كانوا حضورا ، لكن لما كان الغرض إلى نحو الاستدلال على صدق ما يجادلون فيه والتوعد بشديد جزاءهم ، كان طريق المخاطبة واستحضارهم ومواجهتهم بذلك أتم بالغرض ، فقد شاع فى العرف والعادة أن المواجهة فى باب الوعيد والتهديد والزجر والتدليل أبلغ فى تحصيل المتوعد به وأنه فى حال من لا يلقى بالا بما يباشره بالخطاب ، وإذا كان ذلك هو الجارى فى متعارف البشر ، وهم ممن قد لا يملكون إنفاذ وعد أو وعيد ، فكيف الحال والمتكلم المتوعد هو الله سبحانه القادر على إنجاز وعده ووعيده .

وهنا يتجه النظم الحكيم ليعرض حال فريق آخر من الناس ، أشد خطرا وضررا، على الدين والإسلام ، فهم لا يجاهرون بالكفر والعناد والمجادلة بالباطل شأن من سبق قص حالهم ، وإنما هؤلاء صنف آخر من البشر ، يدخل الإسلام بمنطق التجارة ، فالدين عنده : صفقة وربح ونفع بمعياره هو ، إذ هو لم يدخل الدين عن يقين أو إذعان ، أو تسليم بما يجريه الله تعالى على الناس من شئون قد يبدو بعضها فى منظور البشر على غير أهوائهم ، وإن كان من ورائها غايات وحكما عليا ، ليس بشرط أن يدركها البشر بعقولهم دائما ، ففى مثل ذلك ابتلاء يظهر حال من رسخت قدمه فى الإيمان ، فيكون منه مطلق التسليم والثبات على كل حال ، بل يزيده الإبتلاء رسوخا ويقينا ، أما هؤلاء المنافقون : فلم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف منه : متهيئون دائما لأن يتركوه ويعودوا إلى ما كانوا عليه من عبادة باطلة ، لا تحقق لهم لو تدبروا نفعا ولا ضررا فى الدنيا ولا فى الآخرة، بل هى على التحقيق تقضى بهم إلى ضرر وعذاب .

يقول سبحانه وتعالى فى ذلك : **(ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير)** . الآيات : ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

والأحاديث والآثار المروية فى أسباب النزول ، مع التسليم بالتفاوت بينها من حيث الصحة والقوة ، أو الضعف والوضع ، إلا أنها جميعا تكاد تلتقى فى أن المراد هنا من النظم الحكيم وصف حال فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئن ، فلا يظهرون الإعراض ، لكنهم يضعون أنفسهم فى معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام ، فهم يقبلون دعوة الإسلام ، ويدخلون فى عداد متبعيه ، ثم يرقبون ما ينالهم بعد الدخول فى الإسلام ، فإن أصابهم الخير الذى دخلوا الإسلام لأجله : ثبتوا على حالهم من النفاق وإظهار الإسلام والدخول فى أتباعه ، وإن ابتلاهم الله بأمر امتحانا لحقيقة إسلامهم : سخطوا على الإسلام وتخلو عنه وفروا عائدين إلى سالف عبادتهم الظالمة.

وقد عبر النظم الحكيم عن حالهم من النفاق وعدم ثبوت الإيمان بذلك التعبير المصور ، والذى لم يقع فى القرآن الكريم له نظير : **(ومن الناس من يعبد الله على حرف)** ، أى : على ضعف يقين ، أو على شك أو على انحراف عن العقيدة وأمثال تلك المعانى مما يفيد أنهم على حال التردد ، فهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى الدين الذى تظاهروا باتباعه فليسوا على طمأنينة منه فحالهم تلك كحال الذى يضع نفسه على طرف من الجيش فإن أحس بنصر وغنيمة : ثبت واطمئن لينال منها شيئا وإن كان غير ذلك فر هربا .

وأصل الحرف طرفه طرف الشىء وجانبه كحرف الجبل وحرف الطريق وحرف الجيش أى : طرفه ، وقد أريد به هنا : تمثيل حال هذا المنافق المتردد فى دينه يريد تجربة عاقبته فشأنه كشأن من يمشى على حرف جبل أو واد فهو متهىء دائما لأن يعود عن طريقه .

وعلى ذلك فجملة : **(فإن أصابه خير اطمأن به)** : وما عطف عليه

تفصيل لحال من يعبد الله على حرف وبيان لوجه الشبه ، والمراد بالخير هنا النفع العاجل الذى كان قد رجاه ودخل الإسلام لأجله من نحو ولد أو مال ، فهو الخير الدنيوى ، أى : وقع له ما تشتهيه نفسه ، والاطمئنان فى الأصل ثبوت الشىء والمراد ثبوت هذا المنافق على ما كان عليه ظاهرا ، لا أنه اطمئن به اطمئنانا المؤمنين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم عارض وابتلاء

وبعد أن كشف التركيب السابق عن حال الاطمئنان الطارىء ، والذى يحتوى هذا الصنف من الناس عندما يجدون فى الإيمان تحقيقا لما يرجون ويقدرون من نفع: أبان عن الحال المقابلة والمؤكدة لمعنى التردد وانتفاء حقيقة الإيمان عنهم : **(وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة)** .أى : إن لحق به شىء من مكروه فى نفسه ، أو أهله أو ماله عاد إلى ما كان يعبد من قبل وأظهر زيف إيمانه .

وإنما آثر النظم الحكيم مقابلة الخير فى التركيب السابق بالفتنة هنا ، مع أن الشر هو المقابل للخير فى ظاهر الحال : لمعنى جليل ، وذلك أنه لما كان الحديث من عن ليسوا على حال من الوثوق فى الإيمان : كان لفظ : (فتنة) : أنسب بحاله ، فلم يشأ النظم الكريم التصريح بلفظ الشر الذى يمكن أن يعتذر له به ، فإن الطبع الإنسانى جار على النفرة مما يكره ويسوء ، ولفظ الشر : صريح الدلالة على هذا المعنى ، خاصة مع امثال هؤلاء ، من هنا : جىء بلفظ أعم ينتظم الخير والشر جميعا ، فكما أن الشر فتنة . فكذلك الخير . **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة)**(١)

ثم إن من وراء هذا اللفظ فى سياقه مزيد دلالة على جهل هذا المتحدث فى شأنه وضعف إيمانه ، إذ لم يفطن إلى أن ما لحق به إنما هو فتنة من الله سبحانه وابتلاء ، فهو ما لبس أن عاد إلى ما كان عليه بمجرد أن اعتراء هذا الأمر الذى توهمه شرادون نظر وتمهل لتبصر حقيقة ما نزل به ، فهو غير معنى إلا بظواهر الأشياء ، وظاهر ما ألم به وإن كان شرا فى الظاهر . لكن الغرض منه الابتلاء والتمييز بين من هم فى الدين على يقين وبين من هم على نفاق ، فكان التعبير لكل هذا أوفى بالغرض وأنسب بالمقام ، ولا لبس ولا إبهام ، فإن سبق لفظ

وإذ بان الآن وجه المقابلة بين الخير والفتنة ، فما توجيه المراد من قوله : (انقلب على وجهه) والمنافق فى الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد .

والتوجيه لهذا ، أن التعبير هنا كناية عن سوء حاله ومصيره حيث لم يثبت على الدين الصحيح ، وفى المجىء بهذا اللفظ ملائمة لحال من يعبد الله على حرف، فإن شأن الواقف على طرف الشىء ألا يكون على حال التمكن منه يمنعه من الانقلاب والسقوط إذا اعترضه عارض ، ومن هنا أوثر التعبير فى هذا السياق بلفظ انقلب على وجهه دون : (انقلب على عقبيه) كما فى قوله تعالى : (إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) ، إذ ليس المراد هنا الرجوع على الجهة والعود إلى الجهة الأخرى وإنما القصد إلى أن حال المنافق قد صار إلى عكس ما كان عليه حين أظهر الإسلام .

ثم يأتى قوله تعالى : (خسر الدنيا والآخرة) بيانا لمصيره فقد خسر الدنيا حيث حرم النفع الذى رجاه ، كما خسر الآخرة حيث حق عليه العذاب لنفاقه ورجوعه إلى دين الباطل وفى الجمع بين خسارة الدنيا والآخرة على هذا النحو ، مزيد مبالغة فى تصوير سوء حالة فقد أفاد الجمع بين خسارتى الدنيا والآخرة على جهة المطابقة عموم الضرر وحرمان النفع فى كل حال إذ ليس هناك سوى حياة وموت وقد شمله الخسران معهما ، فهو إذن فى شقاء دائم .

فانظر كيف كانت المطابقة القرآنية فى أمثال هذه المواقع : محققة لأغراض الكلام ، فليس الأمر مجرد جمع بين الأمور المتقابلة ، وإنما المهم ما يحدثه ذلك الجمع من أثر على المعني المقصود ، والغرض المسوق له الكلام .

والمستقرىء لمطابقات القرآن الكريم يجد أن مفردات هذه المطابقات من حيث هى: مألوفة ، وليس فيها غرابة ، فما هى إلا أمثال : الحياة والموت ، الحياة والآخرة ، الظلمات والنور ، السماء والأرض ، اليمين والشمال ، فلا غرابة معها ولا غموض، حتى يتثنى لأحد الكتاب المعاصرين أن يرجع بلاغة المطابقة إلى ما تكون عليه من غرابة وانتزاع طرفيها مما لا يتوقع ، أو يخطر بالبال ، وأما أن تؤخذ من أمور مألوفة معتادة ، فلا يزيد الأمر معها عن كونه جمعا ين متقابلين(١) .

---

(١) ينظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٣ وما بعدها .

وهذا الكلام لا ينبغى التسليم به على إطلاقه ، فإن للمطابقة القرآنية بلاغتها دون ريب ، وبلاغتها وإعجازها فى كون كل منها فى موقع وسياق لا يكون تمام المعنى إلا بها ولا يظهر على النحو المقصود بدونها ، فبلاغة المطابقات إذن مردها إلى ملاءمتها للغرض ووفائها بالمعنى المراد .

وأية خسارة أبعد من خسران الدنيا والآخرة ، ومن هنا وجدنا النظم الحكيم يعقب بما يفيد حصر الخسران فيهما على هؤلاء المنافقين ، (ذلك هو الخسران المبين) .

واسم الإشارة : (ذلك) راجع إلى خسارتى الدنيا والآخرة ، وما فيه من معنى البعد لزيادة تمييز المسند إليه : خسرانهم أتم تمييز لتقرير مدلوله فى الأذهان(١) ، وأيضا لإفادة أن هذا الخسران فى غاية ما يكون أو يتصور ، وهذا يناسب معنى القصر المقصود من هذا التركيب .

والمبين الذى بلغ غاية الظهور بحيث لا يخفى أمره على الناس فهم يدركونه بأدنى تأمل لكونه شديدا واضحا لا يخفى أمره ، فليس فقط خسران بين ، وإنما هو مبين ، كأنه من شدة ظهوره ووضوحه يكشف عن حاله للناس ، وفى هذا مزيد مبالغة فى وصف حال خسارتهم .

والقصر المستفاد من تعريف الطرفين : المسند إليه (ذلك) والمسند : الخسران المبين: ادعائى ، كأن حقيقة الخسران المبين كله قد انحصرت فى خسارة هذا الفريق فلا يعتد بخسران غيرهم لبلوغ خسران هؤلاء المتحدث فى شأنهم الغاية ، ولأن المقصود من هذا القصر : تحقيق الخبر وتقريره : ورد معه ضمير الفصل : (هو) لتأكيد أمر الاختصاص .

ويلحظ هنا مناسبة التعبير عن حال هؤلاء بلفظ الخسارة والخسران ، فهم قد دخلوا الدين تظاهرا على رجاء منهم أن يحقق لهم هذا الدين النفع الدنيوى شأن التجارة ، فلما لم يحصلوا من هذا الدين على ما أرادوا من منافع الدنيا ، فقد خسروها ، وحيث حرموا ثواب الآخرة لنفاقهم ورجوعهم عن الدين الحق ، فقد خسروها أيضا .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص٢١٤

وهنا يتجه النظم الحكيم لايضاح حال خسارتهم ، و فساد معتقدهم الذى عادوا إليه بعد رجوعهم عن الإسلام الذى كانوا قد نافقوا بدخوله : **(يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد)** .

والذى يبدو فى موقع الآية الكريمة أنها استئناف قصد به : بيان عظيم جرمهم، وأنهم سقطوا فى الشرك الذى عادوا إليه حيث لم يثبتوا أمام الابتلاءات المقصود بها : اختبار رسوخ القدم فى الإيمان وقوة اليقين ، كما أن هذا الاستئناف مبين لعظيم الخسران(١) .

والآية الكريمة كالدالة على أن المقصود والمراد ينصرف إلى المشركين من عباد الأوثان ممن كانوا قد أسلموا وانضموا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على وجه النفاق ، فلا يدخل فى هذا أهل الكتاب من اليهود والنصارى : لأنهم لا يدعون الأصنام ، وانما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، ودليل ذلك من اللفظ بعد دلالة السياق ومناسبة الآية لما قبلها : أن الدعاء هنا مفسر بالعبادة(٢) . فالظاهر أن المدعو المعبود : الأصنام بدلالة : (ما) فى قوله تعالى: **(ما لا يضره وما لا ينفعه)** فإن هذا الحرف يرد أصلا للتعبير عما لا يعقل ،ومعبودات أهل الشرك والنفاق من الأصنام والأوثان حالها كذلك ، وإن كان ابن كثير قد آثر التعميم فى المعبودات من الأوثان والأنداد ، فيدخل فى ذلك سائر ما يتخذ من دون الله آلهة ، كما فسر الدعاء الاستغاثة ، أى : يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها ، وهى لا تنفعه ولا تضره(٣) ، وعلى ذلك يكون استعمال : (ما) على طريق التغليب ، أى : تغليب ما يعبد مما لا يعقل كالأصنام على ما يتخذ آلهة أو أشباه آلهة من البشر العقلاء وكأن الغرض تنزيل تلك الآلهة المزعومة أربابا من دون الله وإن كانت عاقلة : منزلة الأصنام وجعلها بمثابة ما لا يعقل تحقيرا وحطاً من شأن مزاعمهم .

ومع التماس ما يمكن أن يفهم به هذا التخريج إلا أن الأقرب والأنسب – والله أعلم – أن المقصود بالكلام هنا أمثال المنافقين الذين ارتدوا إلى عبادة الأوثان ،

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٢٤ .

(٢) ينظر الجلالين ج٣ ص١٥٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢١٠ .

وأما أمثال أهل الكتاب فيدخلون فى سياق ومراد الآية التالية على ما سيتضح من خلال فهم خصائص التعبير ودلالات الألفاظ . ولكن نود الآن أن نشير إلى بعض أسرار بلاغة هذا النظم الحكيم .

فتلك المطابقة الحاصلة من الجمع بين النفع والضر على جهة النفى : **(ما لا يضره وما لاينفعه)** : تومىء إلى مدى جهل هؤلاء العبدة ، حيث ارتضوا لأنفسهم بالسفه الذى ارتكز فى عقولهم ، وفساد الطبع عندهم : أن يخضعوا ويذلوا لصنم وحجر لا يملك من أمرهم شيئا بل ولا تملك هى لأمر نفسها شيئا ، فلا ضرر إذن يخشى من ترك هذه العبادة الآثمة ولا خير يرجى منها ، وإن أردت تبيان وجه تلك المطابقة وأثرها على المعنى والغرض : فقدر فى نفسك الكلام وقد عرى عن أحد طرفيها ، وقل فى غير ما أنزل الله تعالى الحافظ لكتابه : يدعو من دون الله ما لا يضره فقط ، أو قل : ما لا ينفعه فحسب بحذف أحد المتعاطفين ، تجد الكلام وقد اجتزئ، ولم تعد العبارة موفية بتمام الغرض ، لأن نفى أحد الأمرين يبقى الأمر الآخر مسكوتا عليه ، إذ ليس ما يمنع من ثبوته ، ولو فى باب التصور ، خاصة والحديث عن أمثال هؤلاء ممن تدفعهم أوهامهم إلى اعتقاد شىء من النفع أو الضرر من وراء تلك العبادة الظالمة ، لذلك حرص النظم الكريم هنا على الجمع بين الأمرين بالنفى ، وهذا عرف القرآن الكريم الجارى عند مخاطبة أمثال هؤلاء أو الحديث عن أحوالهم أن يسلك طريق تلك المطابقة القاطعة فى سلب كل أثر لهذه المعبودات والقاضية كذلك بتسفيه أحلام أولئك العباد لها .

ثم انظر كيف يستعمل الكتاب والباحثون كلمتى النفع والضر ومشتقاتهما نفيا وإثباتا مقترنتين ، يقدمون أيهما شاءوا ، وليس فى ذلك خلل فى معانيهم على أية حال ، ولكن القرآن العظيم المعجز لا يقدم النفع على الضر ، أو الضر على النفع إلا لأن السياق وأغراض الكلام وضروروات النظم تدعو إلى ذلك . ويلحظ فى أمر البيان القرآنى المعجز تقديم : الضر على النفع فى أكثر الأحوال حيث لم يقدم النفع على الضر إلا فى مواضع ثمانية .

ولعل مرد ذلك العرف الغالب فى تقديم لفظ الضر على النفع ، لمسايرة ذلك لأمر الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لأن العابدين إنما يعبدون الله تعالى خوفا من عقابه أولا ، وطمعا فى ثوابه ثانيا ، وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة

البشرية : (يدعون ربهم خوفا وطمعا)(١) ، أما قوله تعالى : (ويدعوننا رغبا ورهبا)(٢) . فقد جاء معبرا عن نوع راق من البشر سمت به فطرته من إلف العبادة حتى تحولت إلى معرفة وحب لله تعالى ولرسوله ، وأما خروج بعض المواضع عن ذلك العرف حيث قدم النفع فيها على الضر فلأن السوابق من الآيات ، والسياق والخاص بكل موقع يدعو إلى هذا الترتيب(٣) .

ولعل الغرض من وراء تقديم : نفى الضر على نفى النفع فى خصوص هذا السياق : إشارة إلى أن هذا المنافق قد عاد إلى عبادة الأوثان تجنبا للضرر لزعمه أن ما لحقه من الضرر حين تظاهر بالإسلام بسبب غضب الأصنام عليه ، فعاد إلى عبادتها وهما منه أنها لا تضره ، ومن وراء تلك الإشارة : تهكم بهم يظهر أكثر بمجىء قوله تعالى : (وما لا ينفعه) أى : فهو مخطىء فى عبادته الأصنام ظانا أنها تزيل عنه الضرر فينتفع بذلك ، والحقيقة أنها لا تفعل ما يجلب ضررا ، ولا ما يجلب نفعا .

ومعنى اسم الإشارة فى هذه الآية الكريمة ، وكذا القصر معها نظير ما سبق إيضاحه مع الآية الكريمة السابقة .

ثم ختمت هذه الآية بتصوير الضلال المجاوز الحد فى مداه مقصورا على تلك العبادات الظالمة ، وهو تصوير حق وصدق ، فأى ضلال أشد من خضوع بشر مكرم بالعقل لنحو وثن مفضول عليه لحرمانه أصل التمييز فكأن هذا الضلال وقد بلغ الغاية : طريق بعدت مسافته ، وهنا يدرك وجه حسن موقع هذه الاستعارة المكنية حيث وصف : (الضلال) ، بما يوصف به الطريق من البعد .

ثم يأتى قوله تعالى : (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) .

وهذه الآية مما أشكل موقعها على كثير من العلماء كما أن معها ما يوهم ظاهره التعارض مع الآية الكريمة السابقة ، حيث نفى كل من الضر والنفع عن

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٦

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٩٠

(٣) ينظر البرهان فى علوم القرآن ج١ ص١٢٢ ، ١٤٧

المعبودات المزعومة ، على حين جاء النفع فى ظاهر الحال مثبتا لها ، وكذا موقع اللام فى قوله : (لمن) فتعددت التوجيهات واختلفت ، وكثير منها لا يخلو من تكلف ظاهر .

والذى يبدو فى موقع هذه الآية الكريمة واتصالها بما قبلها ، أنه تعالى بعد أن بين حال من أشرك به فعبد وثنا : استأنف هنا بما يكشف عن صنف آخر ممن يشركون مع الله تعالى أربابا أخرى ، فالآية الكريمة السابقة فى خصوص عباد الأوثان ، وهذه فى أمثال أهل الكتاب ممن يتخذون من البشر آلهة أو أشباه آلهة ، فهذه الآية الكريمة والآية السابقة عليها بهذا الاعتبار تفصيل للفريقين ممن كان قد عبد الله على حرف ثم عاد ورجع إلى ما كان يعبد من قبل ، ففريق منهم عاد إلى عبادة الأوثان ، على نحو ما أوضحت الآية السابقة ، وفريق آخر عاد فأشرك مع الله آلهة أخرى شأن اليهود والنصارى ، على ما تفيده هذه الآية الكريمة ، وبهذا الفهم يمكن الجمع بين الروايات المأثورة فى أسباب النزول ، والتى منها ما يخصص باليهود ، ومنها ما يخصص غيرهم ، كما أن منها ما يعم الجميع(١) .

ومما يصحح لهذا الفهم ويقويه من اللفظ بالإضافة إلى السياق والموقع جعل متعلق العبادة (من) التى تستعمل أصلا فى من يعقل : **(يدعو لمن ضره)** . وكذلك فإن ختم النظم الكريم بالجملة المنشأة للذم : **(لبئس المولى و لبئس العشير)** اليق بالمعبود ، أو المطاع من البشر(٢) .

ثم أن الأخذ بهذا التوجيه يزيل وهم التعارض الناشىء - ولو فى ظاهر الحال - من نفى الضرر والنفع فيما سبق وثبوت النفع هنا ، حيث إن تلك الأرباب المتخذة من دون الله ربما حصل لهم من وراء عبادتهم لها ، أو طاعتهم إياها نفع دنيوى من نحو منصب أو جاه إذ الآية الكريمة تعرض بأمثال أولئك الذين يتخذون من البشر أشباه آلهة حين يظنون أنهم يملكون لهم ما يطمعون فيه ، هذا ما بدا لى ، وإن كان أكثر أهل التفسير ذهبوا إلى أن هذه الآية فى شأن عباد الأصنام أيضا(٣) .

---

(١) ينظر أسباب النزول للواحدى ص ١٧٥، أسباب النزول للسيوطى ص١٨٢

(٢) تفسير الفخر ج٢٣ ص١٦ .

(٣) ينظر الكشاف ج٣ ص٧ ، روح المعانى ج١٧ ص١٢٥

وعلى هذا التوجيه أيضا فلا تعارض بين الآيتين ، فبعد أن بين تعالى لعباد الأوثان أنهم يعبدون ما لا يملك لهم شيئا من ضر ولا نفع : بين في هذه الآية أنهم يعبدون ما يجلب عليهم ضرر ، فكأن هذه الآية ارتقاء ، فبعد أن سلبت النفع والضر عن تلك الأصنام فيما سبق ، نبهت الآية هنا إلى أن هناك ضررا محققا من وراء تلك العبادة ، فإنها تجر عليهم العذاب ، ومن هنا جاء قوله تعالى : (لمن ضره أقرب من نفعه) ، إشارة إلى ثبوت هذا الضرر ، ولا يلزم من هذا التركيب ، وقوع نفع من تلك العبادة أصلا ، فهذا التركيب : كناية عن تمحض تلك العبادة في الضرر وانتفاء النفع عنها أصلا ، لأن الشيء الأقرب حاصل قبل البعيد ، فيقتضي أن لا يحصل معه إلا الضرر .

ودخول اللام على (من) الموصوله : (لمن ضره) لإفادة المبالغة في تحقق الضرر من تلك المعبودات ، ومع أن الأصل في الاستعمال : دخول اللام على جملة الصلة بأن يقال : يدعو من لضره أقرب من نفعه ، إلا أنها نقلت وقدمت ودخلت على من الموصوله لزيادة المبالغة في تأكيد تحقق الضرر من عبادة . هذه الآلهة المزعومة، وإن كان هناك توجيهات أخرى لا تخلو من تكلف ولا تحقق غرضا(١) .

وجملة : (لبئس المولى ولبئس العشير) : إنشاء ذم لتلك الآلهة التي يعبدونها ، أو يظهرون الطاعة لها ، فأنها شر الموالي وشر العشراء ، لأن شأن المولى : جلب النفع لمولاه ، وشأن العشير ، وهو : الصاحب المعاشر لصاحبه أن يجلب الخير لعشيره .

ومثل هذا التركيب لبئس أحد مواقع أربعة وردت في القرآن الكريم .

ثم يأتي النظم الحكيم من بعد ذلك ليعرض حال المؤمنين الذين أخلصوا الإيمان ، وما أعد لهم تعالى من حسن الجزاء .

يقول تعالى : **(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد)** الآية : ١٤ .

فهذه الآية : استئناف لبيان كمال حسن حال من خلص إيمانهم ، وصدقوا بالعمل الصالح معتقداتهم ، وأنه تعالى يتفضل عليهم بالنعيم الدائم بعد أن بين سبحانه

---

(١) ينظر معاني القرآن ج٢ ص [illegible] ، التبيان في غريب إعراب القرآن ج٢ ص [illegible] .

غاية سوء حال من كانوا قد عبدوا الله على شك .

ويلحظ أنه اقتصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخر دون ذكر حالهم فى الدنيا ، وذلك لعدم أهميته لديهم ، ولا فى نظر الدين أيضا ، وفى إقران الإيمان بالعمل الصالح ، وعطفه عليه : تصريح بما يقتضيه أصل الإيمان ، وذلك للتنبيه على أمارة صدق الإيمان : ما يظهره المؤمن من صلاح العمل ، وجملة : **(تجرى من تحتها الأنهار)** : وصف للجنات مبين لبعض وجوه التنعم ، وقد ورد هذا التركيب فى القرآن الكريم خمس عشرة مرة ، وفى سورة الحج منها موقعان .

وأما تنكير : (جنات) وتعريف : (الأنهار) فلأن الغرض إفادة معنى تعظيم الجنات ، فجاء بلفظ التنكير لإفادة هذا المعنى ، بخلاف الأنهار فلا غرض فى عظمها وسعتها ، ومن هنا لم تأت على التنكير(١) .

وبعد أن بين تعالى حال كل فريق ومآله : جاء قوله : **(إن الله يفعل ما يريد)** تذييلا للكلام المتقدم من قوله : **(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم..)** إلى هنا ، وفى هذا التركيب : معنى التعليل لإختلاف أحوال الناس ومصائرهم فى الدنيا والآخرة .

ويلحظ التعبير فى جانب البشر بلفظ العمل ، وعملوا الصالحات) وفى جانبه تعالى بلفظ الفعل : **(إن الله يفعل ما يريد)** ومرد تلك المغايرة فى التعبير إلى أن العمل يقتضى مهلة فى مزاولته ، فكان بحال البشر أنسب ، وأما الفعل فلا يقتضى امتداد الزمان ، وبذلك صار على بشئونه تعالى أدل ، حيث أنه تعالى يدبر الأمر حال إرادته .

ثم يعود النظم الحكيم الحديث عن حال أولئك المجادلين والمرتابين ، ومن لم تطمئن قلوبهم بعد للإيمان ، حيث بدا من أحوالهم الارتياب فى تحقيق وعده تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم ، أو استبطاء بعض المؤمنين له ، أو عدم الرضا بما قدر تعالى من رزق ، فهم لذلك على حال من الاغتياظ شديد ، فليزدادوا غيظا ، فإن قدر الله نافذ ، رضوا به إم كرهوا .

---

(١) ينظر البرهان ج٤ ص٩٠ .

يقول سبحانه وتعالى : **(من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ)** الآية ١٥ .

وأكثر أهل العلم والتفسير على أن الضمير فى : **(ينصره)** للرسول - صلى الله عليه وسلم - كأنه تعالى لما بين حال المجادلين بالباطل ، وحال من يعبدون الله على نفاق ، وتوعدهم بسوء العقاب ، وأعقب ببيان حال أهل الإيمان وما وعدهم به من حسن العاقبة : أخذ فى توبيخ تلك الفرق الظالمة ، وكذا بعض المسلمين ممن بدا على حالهم وكأنهم يرتابون فيما وعد به تعالى من نصر لدينه ورسوله(١) .

وكون ضمير النصر عائدا إليه - صلى الله عليه وسلم - مع كونه لم يسبق ذكر لفظه لأنه مفهوم من الكلام ، إذ هو الموعود أصلا بالنصر ، فالذهن لا يكاد ينصرف لغيره ، وهذا ضرب من الاستعمال معروف عند العرب فهم يجيزون فى ألفاظ معينة وأحوال خاصة عود الضمير على غير مذكور تنبها على اشتهاره بحيث صار أمره معلوما عند الناس كلفظ الأرض ، فهم يقولون : فلان أفضل من عليها ، ومن ذلك السماء ، يقولون : فلان أكرم من تحتها ، ومنها الأصابع ، يقولون والذى شقهن خمسا من واحدة ، يقصدون : الأصابع من اليدين ، وإنما جوزوا مثل هذا : لعلم المراد فى كل منها بذكر ضميره ، حتى وإن لم يسبق لمرجعه ذكر ، وعلى ذلك جرى الاستعمال القرآنى فى مواضع، نظير قوله تعالى : **(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة..)** (٢) .
أى : على الأرض ولم يسبق لها ذكر ، وكثيرا ما يسلك هذا الطريق مع كون المراد به القرآن الكريم ، لمزيد اشتهاره ، فيكتفى بالتعبير عنه بضميره : **(إنا أنزلناه فى ليلة القدر)**(٣) ، : **(إنا أنزلناه فى ليلة مباركة..)**(٤)

وكذا الحال مع هذه الآية الكريمة فالنصر مراد به ظاهر معناه ، والضمير فى فعله عائدا إليه - صلى الله عليه وسلم .

ويذكر بعض أهل العلم والتفسير : احتمال أن يراد بالنصر هنا : الرزق ، وهذا استعمال معروف عند العرب(٥) .

---

(١) ينظر تؤويل مشكل القرآن ص٣٥٨ ، تفسير الطبرى ج١٧ ص ٩٥ .

(٢) سورة النحل الآية : ٦١ . (٣) سورة القدر الآية ١ .

(٤) سورة الدخان الآية : ٣ . (٥) ينظر تفسير غريب القرآن ص٢٩١

وعلى أية حال ، فإن المراد بقوله تعالى : **(فليمدد بسبب إلى السماء.. إلى آخره)** : الدلالة على مزيد إغاظتهم ، وأنهم مهما فعلوا فلن يتغير من قضائه تعالى وما قدره شيء فليفعلوا إن أرادوا ما وسعهم الجهد والطاقة ، فليمددوا حبلا إلى سماء الدنيا ، وليختنقوا به ، أو ليقطعوا هذا الحبل فيموتوا ، ثم لينظروا ويتفكروا من بعد ذلك ، هل أزال عنهم ذلك الذى كان منهم شيئا مما كان غيظهم لأجله وهل يغير ذلك - أمرا من شئونه تعالى ؟ بل إنه بذلك لا يزداد إلا غيظا على غيظه .

ومثل هذا الكلام يستعمل حيث يقصد زجر المخاطب ، لأنه قد بدا من أحواله ما يزجر لأجله ، فيؤمر على سبيل الفرض التعجيز بعمل ما لا يدعى أحد فعله لعدم القدرة عليه ، ولأن فى حصوله - إن حصل - : زيادة ما به من سوء حال .

وعلى ذلك فالمقصود بالسماء هنا :سماء الدنيا ، لا سقف البيت كما يذكر بعض أهل العلم(١) ، فإن الحمل الأول أنسب بحال المبالغة المقصودة فى هذا التصوير ، والأمر : (فليمدد) : للتعجيز بقصد المبالغة فى الاغاظة حيث أمر بما لن يكون لاستحالة وبما لا يكون منه - إن فرض وقوعه لأن فيه هلاكه .

ومفعول : **(ليقطع)** : محذوف لدلالة المقام على أن المراد : ليقطع الحبل الذى كان قد اختنق به ، أو ليقطع نفسه بأن يختنق به . والمراد بالنظر : النظر القلبى بمعنى التفكير والتدبر ، والاستفهام بهل بمعنى الإنكار .

وإنما سمى هذا العمل منه كيدا ، لأن حاله أشبه بحال من يعمل ما يكيد به غيره ليذهب ما به من غيظ ، ثم إن إضافة الكيد إلى ضمير فاعله : (كيده) تشير إلى أنه لا يكيد بما يفعله - إن استطاع - إلا نفسه .

وحيث تضمنت الآيات السابقة تبيين حال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس ، ولا اعتذار لأحد : عقب الحق تعالى بما يفيد أن حال القرآن الكريم كله على هذا النحو من التبيين .

يقول سبحانه وتعالى : **(وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد)** الآية ١٦ .

---

(١) ينظر غريب القرآن ص٢٩١ .

فالغرض من هذه الآية التسوية بين آيات الكتاب العزيز كلها من حيث التبيين والتفصيل لكل غرض ومقصد ، وكأن المراد : أن القرآن كله على حال التبيين كحال تلك الآيات السابقة ، ثم عطف على ذلك ما يفيد التعليل لإنزال القرآن الكريم على هذا النحو : **(وأن الله يهدى من يريد)** . أى : ولأن الله يهدى بالقرآن من يريد هدايته أنزله كذلك ، فلام التعليل محذوفة ، وحذفها قبل : (إن) كثير(١) .

وحيث اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال الناس تجاه الدين الصحيح ، كان ذلك مثارا لأن يتساءل عن أحوال الفرق كلها فى مختلف الأديان ؟ وأيها على الدين الحق ؟ فإن كل فرقة تدعى سلامة ما هى عليه ، لذلك جاء بما يفصل هذا الأمر .

يقول سبحانه وتعالى : **(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد)**الآية ١٧

والآية الكريمة تبين أن الحكم بين أهل الأديان كلها ، إنما يكون فى الآخرة ، إذ لم تفدهم الحجج والدلائل فى الدنيا .

وهذا الكلام يجرى مجرى التفويض ، ولهذا بلاغته ، فإنه لا يكون إلا من الواثق بأنه على الحق ، وهو نظير قوله تعالى : **(لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير(٢)** .

ويلحظ أنه قد سبق ذكر كل من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فى متشابه هذه الآية فى سورتى البقرة(٣) والمائدة(٤) ، إلا أنه زيد هنا ذكر المجوس والمشركين ، لأن الآيتين السابقتين : كانتا فى سياق بيان فضل التوحيد فاقتصر معهما على ماله أصل فى التوحيد ، وهى تلك الفرق الأربع ، وأما هذه

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٢٨ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١٥ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٦٢ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٦٩ .

الآية فمسوقة لبيان التفويض إلى الله تعالى فى الحكم بين أهل الملل جميعا . فناسب ذلك ذكر المجوس والمشركين . ليفيد هذا أن سائر أحوال الفرق كلها مردها إلى حكمه تعالى :

والمجوسة تشبه الشرك إلا أنها تخالفه فى كونها تمنع عبادة الحجر . وإنما يعبدون أمثال النار والكواكب :

وجملة : (إن الله على كل شىء شهيد) : مستأنفة استئنافاً ابتدائيا للإعلام بإحاطة علمه تعالى بأحوال الفرق كلها . والصحيح منها والفاسد . وحكمه العدل لأنه المطلع والشهيد .

ويتبقى من بيان هذه الآية الكريمة : أمر يتبغى الإشارة إليه . حيث يلحظ تصدر الآية بحرف التوكيد : (إن) . ثم إعادة ذكره مع جملة الخبر : (إن الله يفصل بينهم) .

وقد أثار ذلك الأمر نقاشا وجدلا بين أهل اللغة والتفسير . ومع تعدد واختلاف ما قالوه فى وجوه التخريج . لكن يلحظ أنهم قد بدوا فى غالب الأحيان وكأنهم على حرج حتى لقد صار مطمح بعضهم مجرد تصحيح ما عليه النظم الحكيم دون النظر فى مرجع إيثاره وبلاغته . وأصل الإشكال عندهم وارد بما قالوه من أن الاستعمال جار على أن مثل : إن زيدا إن عمرا يضربه : كلام ردىء(١) .

ومع التسليم البدهى بكون القرآن العظيم عربى اللفظ والنظم أصلا . فمن المسلم به كذلك : أنه هو المقياس والأنموذج فاستعماله هو المصحح والمرجع . فإن ظهر لنا وجه الحكمة فى ذلك ما عملنا به . وإن أشكل بعد افراغ الجهد والفكر فى التماس ما ورائه فإن اهتدينا إلى شىء من هذا فمن توفيق الله تعالى ومن عطاء كتابه المعجز . وإلا فذلك من الإعجاز المطمور والمطوى الذى لم يشأ تعالى بعد بكشفه ولو إلى حين . وإن أدرك فيما بعد . أو ليبقى أبدا دليل عجز الخلق جميعا عن الإحاطة بكل مكنون كلام الخالق عز وجل وعما تكلفوه وجها فى التخريج : أن خبر : (إن) الأولى محذوف . أى : إن الذين آمنوا والذين هادوا.. مفترقون . أو نحـو ذلك مما يدل عليه الكلام . ولا يكاد يخفى على ذى بصر

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص٢٢٠ .

بالمعانى ومتصرفات التراكيب بعد هذا القول ، فإن تقدير الحذف على هذا النحو مخل ، لعدم وفائه بتمام المعنى ، وإن شئت إيضاح ذلك : فضع نصب عينيك ما قدروه من نحو : مقترفون ، وما قدر الله تعالى ذكره : **(إن الله يفصل بينهم)** واستبصر الفرق تجد البون واضحا فلأن كان سعنى الافتراق حاصلا فى العبارتين ، لكنه مع ما قدروه يبدو وكأن أمرا الافتراق حاصل من تلك الفرق ، لا منه ، تعالى لإسناد الافتراق إلى واو الجماعة ، على خلاف ما فى النظم الحكيم فهو مسند إليه تعالى صريحا بلفظ العلم والجلالة : **(إن الله يفصل بينهم** ، وهذا الإسناد على هذا النحو مقصود دون ريب فى مثل تلك المقامات .

وأما قياس ما عليه النظم الحكيم بنحو ما تكلفوه فمعوج ، إذ كيف يقاس نحو ذلك الكلام المعجز على مثل هذا المصنوع المبتذل والردىء .

وأما أمثال أبى حيان فقد استحسنوا دخول (إن) على الجملة الواقعة خبرا لطول الفصل بين اسم (إن) الأولى وخبرها بالمعطوفات بينهما(١) .

ومع سلامة هذا التوجيه من حيث هو ، إلا أنه يرد عليه مجىء الاستعمال القرآنى بإعادة ذكر (إن) حتى وإن لم يطل الفصل فلينظر قوله تعالى **(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(٢)** .

والمتبادر القريب : أن يكون دخول إن لقصد توكيد الجملة الواقعة خبرا ، بعد دخولها على الجملة الأولى لهذا الغرض أيضا ، والمقام يقتضيه ، يبين لك ذلك أنك لو قدرت فى نفسك الكلام خاليا عنها وقلت : الله يفصل ، تجد ما بين الكلامين من فرق ، فلا عبرة إذن بمنع مثل ذلك ممن منع من نحاة الكوفة(٣) ، فالاستعمال القرآنى هو الحاكم وهو المقيس عليه .

وبعد كل ما سبق من عرض أحوال الناس واختلاف الفرق ، ووعده تعالى بالحكم فى الآخرة بين الجميع : يتوجه الخطاب إلى أفراد الناس ذوى العقول والتمييز للنظر والتدبر فى أحوال الكون وما عليه سائر الكائنات ، فالكل خاضع

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٥٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٣٠ .

(٣) ينظر التبيان فى غيرب إعراب القرآن ج٢ ص١٧١ .

لله تعالى ، فلا إباء ولا مخالفة ،وإنما طواعية كاملة وانقياد تام ، هذا ما عليه حال الكون وما فيه من مخلوقات وكائنات سواء منها ما كان فى السموات أو ما وجد منها فى الأرض سوى الإنسان المكرم بالعقل والفهم والتمييز ، فهو وحده الذى شذ وخرج فكان منه المطيع المستجيب كما كان منه المتأبى العاصى الجاحد .

يقول سبحانه وتعالى (**ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء**)الآية ١٨ .

فهذه الجملة مستأنفة لابتداء استدلال آخر على انفراده تعالى بالإلهية فإن سائر الكائنات والمخلوقات منقادة له سبحانه ، حتى تلك المعبودات التى اتخذت من دون الله أربابا من نحو حجر أو شجر أو كواكب .

والخطاب فى : (ألم تر) : متوجه إلى كل من يتأتى منه الخطاب دون تعيين، وهذا التوجيه أبلغ وأنسب فى خصوص هذا السياق من القول بتخصيص الخطاب به صلى الله عليه وسلم(١) ، والمراد بالسجود هنا ما يفيد معانى الخضوع والانقياد وعدم الإباء ، وبهذا المعنى العام يتسع السجود لسائر الكائنات والمخلوقات ، وكل منها على حسبه ، وعلى ما يناسب حاله ، فالإنسان العاقل المكلف سجوده الخاص به كما أن للكائنات الأخرى سجود على وفق طبيعتها دون أن نعنى بحقيقة السجود الخاص بتلك العوالم والمخلوقات وكيفيته ، فذلك لا يهم ، فكما أن لها منطقها الخاص والمناسب لأحوالها والمخالف لمنطق البشر ، وكما أن لكل منها تسبيحها الخاص المناسب كذلك لإحوالها فإن منها سجود ، ولكن لا نفقهه كما لا نفقه التسبيح منها ولسنا مكلفين بهذا الفقه بنص القرآن الكريم حيث أثبت لتلك الكائنات تسبيحا ونفى عن البشر فقه حقيقته ، المهم أنها تسبح وتسجد ولأن الله هو الخالق لها جميعا فهو الأعلم بحقائق ذلك .

ومن هنا لا أرى حاجة لذلك الجدل المثار حول أمثال تلك الأمور فى تحديد المراد منها وكيفيته ، وهل هو حقيقة أو مجاز ؟ (٢)

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١٢٠.

(٢) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص روح المعانى ج١٧ ص١٢٦

وبعد أن ذكر تعالى سجود من فى السموات ومن فى الأرض على جهة الإجمال أعقب بتخصيص أمور منها ، وذكر منها ستة ، ثلاثة منها تعود إلى السماء وهى الشمس والقمر والنجوم ، والثلاثة الأخر بعدها وهى الجبال والشجر والدواب تعود إلى الأرض ، وإنما خصت هذه الأمور لأنها قد اتخذت من البعض أربابا من دون الله فمن المجوس من عبد الشمس والقمر وبعض النجوم كما أن المشركين عبدوا أصناما ، وبعضها ، حجرا وبعض منها من شجر كما أن بعض الطوائف يعبدون بعض الدواب ، فكان فى ذكر هذه على وجه التخصيص إشارة بليغة إلى أن تلك الكائنات المتخذة آلهة من بعض البشر هى نفسها منقادة لله تعالى فلينظر كيف يكون المعبود من بعض البشر الخاضعين له خاضعا لله تعالى ، فكل الخلق عدا الإنسان يسجد لله تعالى عن طواعية وإذعان وأما الإنسان ، فأمر السجود وحقيقته معه مختلف لاختلافه عن المخلوقات بتكريم الله تعالى له حيث ميزه بالعقل الذى هو مناط التكليف ، فكان من كثير منه السجود التكليفى والشرعى كما كان من كثير من الناس إباء عن هذا ، وهؤلاء وإن لم يقع منهم سجود التكليف طوعا واختيارا ، فهم غير آبين عليه تعالى انقيادا وكرها ، فهم على كل حال خلق من خلق الله ، والكل إليه منقاد طوعا أو كرها .

وجملة : **(وكثير من الناس)** يراد بها الدلالة على حصول أمر السجود من هذا الفريق وإن لم يذكر السجود بلفظة معهم ، لكن يفهم من سياقه مع ما قبله ، وكذا بمقابلته لما بعده ، **(وكثير حق عليه العذاب)** إذ يفهم من هذا أن الفريق الأول لم يحكم عليه بالعذاب ، وهذا يعنى وقوع السجود الذى هو رمز للطاعة والانقياد لدين الله تعالى الحق ، كما أنه يفهم أن الفريق الآخر لم تكن منه الاستجابة للتكليف بدليل أنه حكم عليه بالعذاب .

ولما كان هؤلاء الذين حق عليه العذاب لإبائهم وتكبرهم على السجود والخضوع والتذلل لله تعالى خالقهم : حسن موقع : **(ومن يهن الله فماله من مكرم)** أى : أن الله تعالى قد حكم عليهم بالعذاب المهين المذل فلا يجدون لهم مكرما من نصير يخلص أو يشفع .

ولعلك أدركت مغزى المطابقة الحاصلة هنا من إثبات الاهانة منه تعالى لمن جارى إبليس فى إبائه واستكباره وسلب الإكرام عنه من كل وجه فقد عدم هذا الآبى الخير

كله محققا ورجاء ، فهو مهان بحكم الله تعالى عليه ، وهو سبحانه المتفرد بالإهانة والإكرام ، فليس لهذا المهان من دونه تعالى من يجلب له إكراما بذاته ولا بطريق الشفاعة عنده سبحانه ، فليس لأمثال هؤلاء من ناصر ولا شفيع وهنا يدرك معنى دخول (من) على : (مكرم) للمبالغة فى تأكيد النفى، أى : كائنا من كان كما إن تقديم : (له) مفيد تقدية نفى هذا الإكرام الأمثال أولئك المتكبرين . نعوذ بالله تعالى من أمثالهم .

ثم يعرض النظم الحكيم لبعض مشاهد الآخرة ، التى يتجلى فيها معنى الإكرام والهوان فى صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان .

يقول تعالى : **(هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد)** (١٩ - ٢٤) .

ومقتضى سياق السورة الكريمة واتصال آيها وتتابعها ، أن تكون هذه الآيات متصلة النزول بالتى قبلها ، فيكون موقع جملة : (هذان خصمان) : الاستئناف البيانى ، لأن قوله تعالى : **(وكثير حق عليه العذاب)** : يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذى حق على أولئك الذين لم يكن منهم خضوع لله تعالى شأن سائر مخلوقاته تعالى ، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك . فاسم الاشارة المثنى : (هذان) : مشير إلى ما يفيده قوله تعالى من قبل : **(وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)** من انقسام الناس إلى فريقين : أهل إيمان . وأهل كفران . فالاشارة هنا إذن إلى ما يفهم من الكلام السابق بتنزيله منزلة ما يشاهد بالعين ، فيشار إليه ، ومثل هذا الاستعمال فى القرآن الكريم ، والكلام البليغ كثير .

و : (خصمان) : مثنى خصم ، ولفظ الخصم : يطلق على الواحد ، وعلى الجماعة ، إذا اتحدت خصومتهم ، نظير قوله تعالى : **(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب)**(١) فقد أريد بالخصم : الجماعة بدليل ما بعده فقد أسند الفعل العائد عليهم فى قوله سبحانه : (تسوروا) : إلى واو الجماعة ، وكذا الحال

---

(١) سورة ص الآية ٢١ .

هنا ، فإن المراد بالخصمين هنا جماعة المؤمنين ، وجماعة الكافرين ، على ما سيتضح .

وأما الاختصام ، فمأخوذ من الخصومة وهى : الجدل والاختلاف بالقول ، وهو من الأفعال المقتضية فى الأصل جانبين . واختصام فريقى المؤمنين وغيرهم : معلوم عند السامعين . وقد قصت السورة الكريمة أطرافا منه فى أكثر من موقع . ولذلك فإن الإخبار عن الفريقين بأنهما خصمان مسرق لغير إفادة الخبر . بل هو تمهيد للتفصيل المراد أصلا وهو الوارد بعده فى قوله تعالى : **(فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار)..ثم قوله من بعد : (إن الله يدخل الذين آمنوا إلى آخر النظم الكريم)** .

وعلى ذلك فالمراد بأحد الخصمين : الفريق الذى يعم أهل الإيمان وبالخصم الآخر ما يعم أهل الكفران ، على اختلاف طوائفهم . ومن هنا يذكر صاحب الكشاف وغيره أن الخصم : صفة وصف بها الفوج ، أو الفريق ، فكأنه قيل هذان فوجان أو فريقان(١) ، غير أنه يلحظ ذكر اسم الإشارة على لفظ المثنى ، : هذان ، ثم العدول إلى الجمع فى قوله تعالى (اختصموا) ، وذلك لأنه لما كان لفظ (خصمين) مثنى على ظاهر لفظه : روعى ذلك فأتى باسم الإشارة الموضوع للمثنى . ولما كان تحت كل خصم جماعة : أتى بضمير الجماعة فى قوله تعالى : **(اختصموا فى ربهم)** ، ولم يعقب صاحب الكشاف أو غيره بما يكشف عما عساه وراء إيثار النظم الكريم ، مراعاة المعنى ، بالتعبير بصيغة الجمع ، بعد مراعاة جانب اللفظ بالتعبير بصيغة المثنى أولا ، وإن ذكروا ما يفيد جواز مراعاة اللفظ فقط فى الموضعين فيقال : هذان خصمان اختصما ، كما مراعاة جانب المعنى ، فيقال : هؤلاء خصمان اختصموا(٢) .

ولعل إيثار ما عليه النظم الحكيم من سلك طريق الجمع بعد الإشارة بلفظ التثنية ، إيماء إلى أن تحت فريقى التخاصم طوائف مختلفة ، ونحل شتى فمنهم من يختصم فى ذاته تعالى ، ومنهم من يختصم فى دينه ، ومنهم من يختصم فى صفة من صفاته . وكل تلك الطوائف مقابل بما يختصم معه من أهل الإيمان فى خصوص ما يختصم فيه .وإن كانت الخصومة فى الجميع فى شأن من شئونه تعالى.

---

(١) الكشاف ج٣ ص٩ . (٢) ينظر معانى القرآن ج٢ ص٢٢٠ .

ولعل قصد هذا التعميم من وراء إيثار حذف المضاف فى متعلق الاختصام . وهو قوله تعالى : **(فى ربهم)** . فمع أن المضاف المحذوف قد فسر بأحد الأمور التى يكون الجدال حولها إلا أن الأنسب تقديره بما يعم كل ما كانوا فيه يجادلون . وعدم الذكر هنا المعين : أمارة ذلك التعميم المقصود . فقد سبق أن أورد تعالى الوعد بالفصل بين الفرق المختلفة فى قوله تعالى : **(إن الذين آمنوا والذين هادوا:** ثم عقب بقوله **(إن الله يفصل بينهم يوم القيامة)**(١) فقوله تعالى هنا **(هذان خصمان)** : كالإشارة إلى من تقدم ذكره . وهم أهل الأديان الستة ، وهذا التفصيل الوارد فى سياق هذا النظم الكريم ، إنما هو مقتضى الفصل الموعود به فيما سبق . ومن هنا كان طريق الجمع فى قوله تعالى : **(اختصموا فى ربهم)** أدل على الغرض والمراد .

ولهذا الضرب من الاستعمال نظائر فى القرآن الكريم نحو قوله تعالى : **(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)**(٢): فإن ظاهر القياس: اقتتلا ، لكن حمل الكلام على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وعلى ذلك فلا مجال لإنكار بعض النحاة الحمل على اللفظ من بعد الحمل على معناه كما فى هذه الآية فقد حمل على المعنى بقوله : **(اقتتلوا)** : ثم حمل على اللفظ بقوله : **(بينهما)** . أو العكس كما فى قوله تعالى : **(هذان** خصمان **اختصموا)** . إذ الممنوع أن يؤدى ذلك العدول إلى لبس فى المراد . وفى أمثال هذا : لا إبهام ، ولا غموض . إذ لفظ الخصم والطائفة ونحوهما مفرد فى اللفظ . ومعناه جمع دائما .

وعلى ذلك فالمراد من هذه الآية : ما يعم جميع المؤمنين ، وجميع مخالفيهم فى الدين . وهذا التوجيه ، لا يصادم ولا يتعارض مع كل مأثور صح وخصص .

إذ يدخل فى ذلك التعميم ما يذكر من حوار جرى بين فريق من أهل الإيمان . ومن فريق أهل الكتاب . حيث قال أهل الكتاب للمؤمنين : نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا . فهذه خصومتهم فى ربهم(٣) ، وقد علاهم المسلمون بالحجة(٤) .

---

(١) سورة الحج الآية ١٧ . والكشاف ج٣ ص٩ . (٢) سورة الحجرات الآية : ٩ .

(٣) الكشاف ج٣ ص٩ . (٤) معانى القرآن ج٢ ص٢١٩ .

ويدخل فى هذا التعميم كذلك ما روى فى الصحيحين من أن هذه الآية نزلت فى حمزة وصاحبيه : على بن أبى طالب كرم الله وجهه - وعتبة بن الحارث . الذين بارزوا يوم بدر ثلاثة من المشركين . وعلى ذلك فهذه الآية مدنية قطعا . ولفظ (هذان) فيها اشارة إلى فريقين حاضرين فى أذهان المخاطبين فنزل حضور حالهما العجيبة فى الأذهان : منزلة الحالة المشاهدة : فأشير إليها باسم الإشارة الموضوع للمشاهد . والمقصود بنزول الآية فى هؤلاء . أنهم أبرز مثال فى هذا العموم . وحتى مع التسليم بخصوص النزول بهؤلاء . فان ذلك لا يمنع من الحمل على التعميم ، إذ العبرة بعموم المعنى ، لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند أهل التفسير وأكثر الأصوليين(١) . والاختصام على الوجه الأول حقيقى . وعلى الوجه الثانى : أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا ، لأن الاختصام فى الدين هو سبب تلك المبارزة : فالعلاقة إذن فى هذا التجوز : السببية .

وأما ما يروونه منسوبا إلى بعض مفسرى السلف من أن المقصود بالخصمين: الجنة والنار . حيث قالت النار : خلقنى الله لعقوبته . وقالت الجنة : خلقنى الله لرحمته ، فقص الله تعالى ما كان منهما(٢) . فلا أرى السياق والمساق ونظم الكلام له ، إذ لو كان الغرض لذلك لكان الكلام : هاتان خصمان اختصما فى ربهما بلزوم طريق التثنية فى التركيب كله مع الإشارة بلفظ المؤنث ، لأن لفظ (خصمان) ومعناه حينئذ على التثنية حقيقة كما أن التفصيل الوارد بعد هذا التركيب يفسد هذا التوجيه .

وبعد هذا التمهيد باستحضار الفريقين . أعقب تعالى بما يفصل أمر الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى : **(إن الله يفصل بينهم يوم القيامة)** وذلك ببيان حال جزاء كل منهما : **(فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار)**. وفى هذا الكلام على ما ذكر الشهاب ما يعرف عند أهل البديع :بالتقسيم والجمع والتفريق(٣) .

----

(١) أسباب النزول ص١٨٣ ، بن كثير ج٣ ص٢١٢ ، تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٣ .

(٢) روح المعانى ج١٧ ص١٣٤ .

(٣) حاشية الشهاب ج٦ ص٢٨٩ .

وإيضاحه أن التقسيم وارد فى قوله تعالى : **(إن الذين آمنوا)** إلى قوله تعالى : **(والذين أشركوا)** حيث ذكر طوائف الملل المختلفة على وجه التفصيل، وإما الجمع فمع قوله تعالى : **(إن الله يفصل بينهم)** إلى قوله تعالى : **(هذان خصمان اختصموا فى ربهم)** . وأما التفريق ففى قوله تعالى : **(فالذين كفروا : إلى قوله : (وذوقوا عذاب الحريق)** حيث كان ذلك تفصيلا لحال جزاء أهل الكفر ثم جاء من بعد ذلك تفصيل حال أهل الإيمان فى قوله سبحانه : **(إن الله يدخل الذين آمنوا .. إلى قوله : (وهدوا إلى صراط الحميد)** .

وقد أورد النظم الحكيم فيما يتصل بجزاء الكفرة وأحوالهم فى النار أمورا ثلاثة:

أحدهما قوله تعالى : **(قطعت لهم ثياب من نار)** أى : أعد لهم ذلك . وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر أجسادهم. فالكلام على طريق الاستعارة التمثيلية التهكمية ، وليس هناك : تقطيع ولا ثياب على الحقيقة . ويلحظ فى صياغة فعل التقطيع على التضعيف: إشارة إلى السرعة فى إعداد ذلك لهم فيحصل لهم ثياب من نار . وفى هذا مزيد نكاية بهم . والمراد بالثياب : إحاطة النار بهم من كل جانب شأن الثوب المحيط بجسد صاحبه ، وكأن جمع الثياب لإفادة تراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضهما فوق بعض على حد قوله تعالى : **(سرابيلهم من قطران)**(١) وهذا التوجيه أنسب وأبلغ من القول بأن جمع ثياب لمراعاة جمع لابسيها فلكل من أهل النار على حدته : ثوب واحد . ولهم على وجه التعميم ثياب(٢) ، فالقول بالتوجيه الأول يحقق المبالغة المناسبة لمعنى المبالغة الحاصلة من تضعيف : (قطعت) على قراءة السبعة.

وصريح كلام الألوسى ، أن فعل التقطيع قد عبر عنه بالماضى : (لأن الاعداد قد وقع ، فليس من التعبير عن المستقبل بالماضى لتحقيقه كما فى نفخ فى الصور(٣) . وأما الفخر : فالكلام عنده جار على سبيل ما عبر فيه عن المستقبل بالماضى لتحقق وقوعه(٤) . والظاهر أن التوجيه الأول أنسب وعليه قوله تعالى :

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٥٠ .
(٢) روح المعانى ج١٧ ص١٣٤ .
(٣) روح المعانى ج١٧ ص١٣٤ .
(٤) تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٢ .

(أعدت للكافرين)(١) . فالتعبير بالماضى لأنه بمعنى : إعدادها وتهيئتها لهم ، ولذا لم يقل : ألبسوا مثلا .

وإذا أوفت هذه الجملة من النظم الجليل بتمام المعنى والغرض من تصوير حال النار وقد أحاطت بهؤلاء إحاطة الثوب بلابسه . وعلى هذا النحو البليغ فى إفادة معانى الوعيد والترهيب ، أعقب بإبراز مظهر آخر من ذلك المشهد الرهيب : **(يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود)** فذكر تعالى فى الجملة الأولى ما يصب على رءوسهم من العذاب . فحيث أبان فيما سبق إحاطة النار شأن إحاطة الثوب، أبان هنا عما ينزل عليهم من العذاب من فوق الرءوس ، وذلك لإفادة المبالغة فى حصول العذاب لهم من كل جانب ومن كل جهة على حد قوله تعالى : **(لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش)** (٢) .

والحميم على المشهور في استعماله : الماء الحار الذى انتهت حرارته ، على ما يأخذ مما أثر عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما - : لو سقط من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها(٣) يريد بذلك : تصوير بالغ ما به من حرارة .

والتعبير بمادة الصب لمناسبة كونه من فوق رءوسهم . فصب الماء إراقته من أعلى . قال تعالى : **(أنا صببنا الماء صبا)**(٤) .

وأما إيثار المضارع مع فعل الصب فلغرض استحضار تلك الحال البالغة فى التهويل حتى وكأنها الآن تشهد ولإفادة مداومة تلك الحال وتجددها مرة بعد مرة مبالغة فى أمر التعذيب كذلك .

ويرجع الألوسى التعبير فى قوله تعالى : **(من فوق رءوسهم)** إلى الإيذان بشدة الوقوع(٥) ، وهذا وجه حسن . ولعل الأوجه والأحسن والأنسب بالسياق

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢١٢ .

(٤) سورة عبسى الآية ٢٥ ، وينظر مفردات الراغب ص٣٠٢ .

(٥) روح المعانى ج١٧ ص١٣٤ .

والغرض : أن الصب وإن كان على رءوسهم ، إلا أن ذلك بدأه . ثم هو يسرى فى أجسادهم وأمعائهم . ومنتهاه : نضج الجلود وذوبها . وبهذا الملحظ تلتقى هذه الجملة مع التى قبلها ، وهى قوله تعالى : **(يصهر به ما فى بطونهم والجلود)** . فهذه كالشارحة لما تقدمها ، فحيث ذكر تعالى أولا ما يعذب به الجسد ظاهرا ، ثم ذكر ما يصب على الرأس من الحميم : أتبع بما يكشف عن أن ذلك يصل إلى باطن المعذب . فهذا الحميم الذى يصب من فوق رءوسهم يندفع فى تدفق إلى حيث يصل إلى بطونهم فيذيب ما فى البطون من أمعاء بل يصل ذلك الذوب إلى ظاهر الجسد . وهو الجلد ، فيؤثر فى الظاهر تأثيره فى الباطن ، وعلى ذلك يبدو واضحا أمر عطف الجلود على : (ما) فى قوله (يصهر به ما فى بطونهم) وتأخير الجلود.

وأما القول بأن تأخير الجلود : للإشعار بغاية شدة حرارة ماء الحميم يوهم أن تأثيره فى الباطن أسبق من تأثيره فى الظاهر . مع أن الحاصل على العكس ، فلا أرى حاجة تدعو إلى تكلف مثله ، فإن المعنى على ما سبق مستقيم واضح ويعضده ما ورد فى الصحاح عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أنه تلا هذه الآية ، فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق إلى قدميه . وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان(١) .

ولا حاجة أيضا لتكلف ما ذكر من (أن التأثير فى الظاهر غنى عن البيان ، وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ، ولذلك قدم الباطن لأنه المقصود الأهم(٢) ، فإن كلا الأمرين مقصود فى ذاته ومهم ، وتقديم ما قدم ، وتأخير ما أخر : إنما هو لمطابقة واقع الحال الذى يكون عليها العذاب .

ويذكر الكشاف : أن ما عليه الآية الكريمة هنا أبلغ من قوله : **(وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم)**(٣) .

والقول بأبلغية بعض آيات الكتاب الحكيم على بعض مما تكلم فيه العلماء منذ قديم وكانت لهم حوله آراء عديدة ، أو مختلفة ، كما قد يبدو عند بادى النظر(٤)

---

(١) تفسير بن كثير ج٣ ص٢١٢ . (٢) روح المعانى ج١٧ ص١٣٤ .

(٣) سورة محمد ١٥ الآية وينظر الكشاف ج٣ ص٩ .

(٤) اعجاز القرآن للباقلانى ص٣٦ - ٣٨ .

وخلاصة ما يمكن أن يقال فى هذا المقام بإيجاز : أن أية موازنة بين آى الكتاب العزيز ، إنما تكون حيث لا يكون القصد منها سوى لمح خصائص كل تركيب فى سياقه ومقامه . وتبصر مناسبة ما عليه كل نظم لخصوص غرضه ، وأى قول بالتفضيل ، إنما ذلك بحسب التركيب ذاته ، وإلا فإن القرآن المجيد . مع اعتبار المقامات ، سواء كله فى البلاغة والفضل والإعجاز .

وحيث فرغ النظم الحكيم من بيان العذاب المحيط بهم ، والملابس لهم ، ذكر ما يفيد ، طمعهم فى الخروج من النار ، حتى إذا هموا بذلك ضربت الخزنة رءوسهم بسياط من حديد أحمته النار : (فتخسف رءوسهم فيصب فى أدمغتهم الحميم)(١) . وهذا معنى قوله تعالى : (ولهم مقامع من حديد) .

والمقامع : جمع مقمعة . بصيغة اسم آلة القمع ، والقمع : الكف عن الشىء بعنف ، والمقصود بها هنا : السياط أو المطارق التى تضرب بها رءوسهم زيادة فى التعذيب ، وكفالهم وزجرا عما يطمعون فيه من الخروج .

والضمير فى (ولهم) عائد إلى الكفرة المعذبين بتلك المقامع . ولا داعى لتكلف عود الضمير على ما يفسره المعنى وهو : الزبانية المكلفين من قبله تعالى بهذا الأمر . واللام المصاحبة للضمير : تفيد معنى الاستحقاق ، وقد يلمح فيها معنى الفائدة . وفى كلا الحالين فالمعنى : على التهكم بهم ، وقد يفهم منها معنى التعليل ، أى : تلك المقامع لأجل تعذيبهم . وعلى كل حال فالمعنى مع كل هذه الاعتبارات واضح ، فلا ضرورة لجعل اللام هنا بمعنى : (على) نظسر ما فى قوله تعاتلى : **(ولهم اللعنة)**(٢) . أى : عليهم اللعنة(٣) ، فإن السياق مختلف .

وإذا ما اشتد العذاب ، وبلغ الغاية بهذا الضرب والزجر ، يتكرر منه الطمع فى الخروج ، وتقع منه المحاولة فى ذلك ، فإذا هم يردون فى كل مرة خائبين ، وقد أسمعوا ما فيه تهكم بهم يزيد من أمر ما هم فيه من عذاب وهذا معنى قوله تعالى **(كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ..الآية)** .

---

(١) معانى القرآن ج٢ ص٢٢٠ .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٥ .

(٣) روح المعانى ج١٧ ص١٣٥ .

كلمة : (كلما) هنا الإفادة تكرار فعل هؤلاء المعذبين وطمعهم فى الخروج . وكذلك تكرار ردهم من قبل خزنة جهنم ، ففى كل مرة تقع منهم المحاولة ، يكون الرد والزجر والإعادة .

وأكثر أهل التفسير على أن النظم الحكيم هنا على إضمار ، لأن (الرد لا يكون إلا بعد الخروج ، فالمعنى : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها)(١) وعلى ذلك فإن فعل الإعادة معطوف على فعل الخروج المقدر ثم فسروا الخروج المقدر : بما يروى من أن النار تضربهم بلهيبها ، فترفعهم ، فإذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا(٢) . ولعل الأقرب أن هؤلاء لشدة ما يلحق بهم من ضروب العذاب ، فلا يجدون ، وقد أحاط بهم الغم وملأ نفوسهم - سوى محاولة الخروج هربا ، فيحاولون ، ويتكرر منهم ذلك ، وفى كل مرة يصدون ويهانون ، فيتضاعف ألمهم بذلك الصد ، فيحصل لهم ألم الخيبة ، مع ألم ما هم فيه من عذاب ، وعلى ذلك ، فالإرادة فى هذا السياق على معنى المشارفة والمقاربة مجازا مرسلا .

وعلى كل حال فإن مرجع الضمير فى قوله تعالى (منها) إلى جهنم لا إلى الثياب المقطعة لهم من نار فى الآية الكريمة السابقة ، فإن مثل ذلك الحمل ركيك وفيه إخلال بالمعنى ، إذ هم بذلك يريدون الخروج من أحد ضروب العذاب فحسب ، وليس ذلك بنافع لهم فى شىء ، وإنما هم يريدون ، لو مكنوا من الخروج من مقر ذلك العذاب بكل ضروبه ، لذلك كان عود الضمير على النار مستقرهم : أليق .

ويلحظ فى مجىء : (غم) على التنكير : معنى التعميم ، فقد احتشدت عندهم الهموم ، وتظاهرت عليهم . أى : أنهم قصدوا إلى الخروج وحاولوه : لتكاثف أنواع الهموم عليهم ، وقد يلمح من وراء هذا التنكير : معنى التقليل ، فكأنهم يودون بعزمهم على الخروج زوال شىء مما يلحق بهم من بداية ما يطلق عليه لفظ الغم . أى : شيئا ما من غم ، ولعل دخول : (من) على : (غم) تصحح لهذا الحمل ، لكن يبقى الأظهر حمل التنكير على التكثير والتعظيم ، على معنى من غم عظيم ألم بهم ، لكونه بسبب ما توالى عليهم من ضروب

---

(١) الكشاف ج٣ ص٩ ، وينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص١٢ .

العذاب ، وبهذا يفهم وجه ذكر : (من غم) فى هذا الموقع ، وخلو موقع السجدة منه قوله تعالى : **(كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها)**(١). لأن الغرض فى سياق موقع الحج : يقتضى ذلك فقد : **(قطعت لهم ثياب من نار)** . كما أن : **(لهم مقامع من حديد)** . ومن كان ، حيث تكون ثيابه من نار ، وفوق رأسه حميم يذيب من شدة حرارته أحشاء بطنه حتى يذوب ظاهر بطنه . ومن كان عليه ملائكته موكلون يضربونه بسياط من نار ، كيف يجد سرورا ، أو يجد متنفسا من ذلك الكرب الذى عليه حاله ، وليس مع موقع السجدة شىء من هذا . وإنما قبله : **(وأما الذين فسقوا فمأواهم النار..)** فلم يكن الحال على ما عليه موقع سورة الحج ، مما اقتضى ذكر لفظ (من غم) معه دون سورة السجدة .

كما يلحظ فى باب التشابه بين الموقعين كذلك : إنه قيل فى موقع الحج : (وذوقوا) . وفى السجدة قيل : (وقيل لهم ذوقوا) . ومع أن تقدير الكلام على إضمار القول هنا ، إلا أنه ينبغى التماس وجه تخصيص موقع السجدة بالاظهار دون موقع الحج . ولعل الغرض من الإضمار : قصد الايجاز لطول الكلام بوصف العذاب . وهذا الإيجاز يتفق وتلك الحال التى قصد بها المبالغة فى أمر تعذيبهم ، فيترك من الكلام من أجل ذلك ما يفهم من غير ذكره وإنما يقتصر على ما يحقق أمر العذاب والهوان ، فالمقول إذن فى تلك الحال هو المقصود ولهذا جاء قوله تعالى وذوقوا ، من غير تصريح بلفظ القول . وأما سورة السجدة ، فقد خصت بإظهار القول : موافقة لقوله تعالى فى مواضع منها: **(أم يقولون افتراه)** . **(وقالوا أئذا ضللنا)** . **(قل يتوفاكم)** . **(حق القول)** . وليس فى الحج شىء من ذلك .

وفى ذكر : (أعيدوا فيها) دون إليها : دلالة على أنهم يعودون ويدفعون إلى قعر جهنم إمعانا فى أمر التعذيب ، ومبالغة فى أمر الزجر والهوان .

والأمر بالذوق : أمر إهانة وتهكم بهم .

والحريق : النار الضخمة المستعرة شديدة الإهلاك(٢) .

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٠ .

(٢) تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٣ .

ولما ذكر تعالى ما أعد لأحد الخصمين من ذلك العذاب على هذا النحو الذى يبعث فى النفس مزيد الرهبة والخشية ، إذا بالنظم الحكيم يتحول ليعرض ما عليه حال الفريق الآخر فى تلك الخصومة ، فالذين آمنوا : مقرهم الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، لا جهنم التى كانت مستقرا لذلك الفريق المقابل . وملابس أهل الإيمان : لم تقطع من النار ، كملابس أولئك . إنما فصلت من الحرير . ولهم فوق ذلك : حلى من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله تعالى إلى طيب القول ، ويسر الطريق ، وهذا ما يفيده قوله تعالى : **(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات** . إلى قوله : **(وهدوا إلى صراط الحميد)** .

فهذا النظم الحكيم : بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة . وكان مقتضى الظاهر : أن يكون هذا الكلام موصولا بالواو مجملة : **(فالذين كفروا قطعت)** لأنه قسيم تلك الجملة فى تفصيل الإجمال الذى فى قوله تعالى : **(هذان خصمان اختصموا فى ربهم)** . بأن يقال : **والذين آمنوا** : إلى آخره . انما عدل الحق عن ذلك الأسلوب ، وجاء على بلفظ باسم الجلالة الجامع . وذلك كله لاستدعاء الأسماع لهذا الكلام ، كما أن فيه إشارة إلى كمال مباينة هؤلاء المؤمنين لحال أولئك الكفرة وإظهار لمزيد العناية بأمر المؤمنين ، ودلالة على تحقيق مضمون الكلام كذلك . والبليغ لا تفوته معرفة أن هذا الكلام : قسيم الذى قبله فى تفصيل الإجمال ، جىء به لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا فى المسكن والملبس والخطاب .

فقوله تعالى : **(يدخل الذين آمنوا** .. إلى آخره مقابل قوله : **(كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها** . وقوله : **(يحلون فيها من أساور من ذهب)** : يقابل قوله : **(يصب من فوق رءوسهم الحميم)** .وقوله : **(ولباسهم فيها حرير)** : مقابل قوله : **(قطعت لهم ثياب من نار)** . وقوله : **(وهدوا إلى الطيب من القول)** : مقابل قوله : **(وذوقوا عذاب الحريق)** ، فإنه القول النكد .

وبعد هذا الإجمال فيما يتصل بأحوال أهل الإيمان ، نسوق إيضاحا لبعض خصائص تلك الأحوال ، وأسرار التعبير فيها .

فبعد أن أخبر تعالى بوعده الصادق المحقق عن طيب مسكنهم بإدخالهم جنات تجرى من تحتها الأنهار على المعنى الذى سبق إيضاحه مع نظير هذا التركيب فى

تلك السورة ، أبان تعالى عما يحلى به أهل الجنة وما يلبسون : **(يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير)** .

فنبه تعالى أنه موصلهم فى الآخرة إلى ما حرمه عليهم فى الدنيا من هذه الأمور . وأن كان من أحله لهم فى الدنيا . وهم النساء يشاركنهم فيه ، لأن المباح للنساء فى الدنيا بالإضافة إلى ما سيكون فى الآخرة يسير ، أو هو كلا شىء أصلاً(١) .

والتحلية : وضع ما يحلى به على أعضاء الجسم ، وقد جاء فعل التحلية على طريق ما لم يسم فاعله ، اتساقا مع ما سبق من أفعال وردت على تلك الصيغة ، ومع ما يلحق كذلك ، حيث يلحظ بناء سائر الأفعال التى وردت فى وصف حال الفريقين على هذا الطريق ، سوى موضع واحد . وذلك لمغزى وغرض نشير إليه قريبا إن شاء الله تعالى .

وما يحلون به : أساور من ذهب ولؤلؤا . والأساور : جمع أسوره ، الذى هو جمع : سوار . ويفهم من مجىء اللفظ على صيغة جمع الجمع : معنى التكثير المناسب لمزيد تنعم أهل الإيمان . نظير ما فى قوله تعالى : **(يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا)**(٢) ، ويلحظ دخول (من) على أساور) لقصد التوكيد ، فهى كما تفيد التوكيد فى سياق النفى بحال النفى كما يرى الأخفش . فإن هذا السياق ينقض . وعليه المعول ، ووجه التوكيد المفاد بدخول (من) هنا : أنه لما لم يعهد تحلية الرجال بالأساور ، كان الخبر عنهم يحلون بها معرضا للتردد فى إرادة الحقيقة ، فجىء بالتوكيد لإفادة المعنى الحقيقى .

وعلى قراءة بعض السبعة : (لؤلؤا) بالنصب عطفا على أساور ، مراعاة لمحله، فمع كونه مجرورا لفظا بمن لكنه منصوب محلا لأنه فى موقع أحد مفعولى (يحلون) ، والمعنى على ذلك : **(يحلون لؤلؤا)** . أى : عقودا ونحوها . كما يحلون أساور . وأما على قراءة باقى السبعة : (لؤلؤ) . بالجر فعطف على لفظ أساور المجرور . والمعنى : أساور من ذهب وأساور لؤلؤا .

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٣١

وعلى ذلك فالقراءة الأولى تفيد حصول نوعين مما يحلى به وهما : أساور وعقود كا تفيد أن لكل منهما وصفا يخصه فالأسور من ذهب ، والعقود : لؤلؤ ، وأما على ثانى القراءتين : فالمحلى به واحد . لكنه ذو حالين : فالأساور هى التى يحلون فيها . وهى من ذهب ، وهناك أساور أخرى من لؤلؤ ، ومع الاختلاف فى الظاهرة ، لكن مآل المعنى يكاديكون واحدا وهو : حصول التحلى بأكثر من طريق، اتحد النوع أو اختلف . والله الأعلم بمراده .

وينبغى الإشارة : كذلك إلى أن سريان معنى التوكيد على القراءتين واحد . لأن التوكيد تعلق بالجملة كلها ، لا بخصوص المعطوف عليه ، وهو أساور ، حتى يحتاج إلى إعادة ذكر (من) المؤكدة مع المعطوف وهو : لؤلؤ) .

وبعد أن أوضح النظم الحكيم حال ما يحلى به أهل الجنة : جاء ببيان حال ما يلبسون فيها : (ولباسهم فيها حرير) .

وأول ما يلحظ هنا : العدول فى الأسلوب ، حيث لم يجىء النظم الكريم : ويلبسون على صيغة المضارع ، على نسق : (يحلون) قبله ، والحكمة البادية لذلك : حصول الدلالة على معنى الثبات والاستمرار . كما دلت صيغة : (يحلون) على أن التحلية متجددة بأصناف وألوان شتى . وقد يقال : بل إن العدول إلى الجملة الاسمية للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان ، إذ لا يمكن أولا يتصور عراؤهم عنه ، إنما المحتاج إلى بيان : لباسهم من أى جنس فجىء معه بما يبينه ، بخلاف أمر التحلية ، فإنها ليست من لوازمهم الضرورية ، ولذا كان بيانها مقصودا بالذات ، ولعل هذا هو السر فى تقديم التحلية على اللباس كذلك .

وأما القول بأن سلوك هذا الطريق فى التعبير (للدلالة على أن الحرير لباسهم المعتاد ، أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل)(١) . فمما لا يكاد تجد النفس له مذاقا ، نعم إن للفاصلة فى القرآن العظيم فضلا وبلاغة ، وإنما ذلك لإفادتها ما يناسب المعنى والغرض من الكلام الذى هى فيه .

ولعل المغزى من وراء توحيد ثياب أهل الجنة مع أنه قد سبق مع ثياب أهل النارجمع فى اللفظ الإشارة إلى أن ثياب أهل الجنة ، وإن تعددت بتعدد اللابسين

---

(١) الفتوحات الآليهة ج٣ ص١٦١ .

لها لكنها مع الجميع من جنس واحد وهو الحرير ولذا وحد اللفظ ، فلا مباينة ، ولا أدنى تفاوت يسوغ انفرادا كل يثوب يخصه .

ولعل فى إعادة ذكر : **(فيها)** مع لباس أهل الجنة مع سبق ذكرها مع ما يحلون به على خلاف ظاهر المقام قصد تأكيد أن مكان حل هذه الحلى وذلك اللباس هو الجنة فقط ، لا الدنيا ، فإن هذين على رجال أهل الإيمان فيها حُرام .

وبعد بيان حال ما ينعم به أهل الإيمان من طيب المسكن والحلى واللباس ، أعقب تعالى بما يكشف عن تمام النعمة وكمال النعيم ، وذلك فى قوله تعالى : **(وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إل صراط الحميد)**

وعلى ذلك فأنسب ما فسرت بهما هاتان الجملتان ، بالسايق والمقام : أن أهل الإيمان إذا صاروا إلى الدار الآخرة هدوا إلى البشارات التى تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام من كل مُكدور ، وهو معنى قوله تعالى : **(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)**(١) ، وهذا أشد مناسبة بمقابلة ما سبق ، وأن أسمع لأهل النار فى قوله تعالى : **(وذوقوا عذاب الحريق)** . فهذا مقول الملائكة للكفرة على سبيل الإهانة وما هنا مقول للمؤمنين على سبيل التكريم .

ويحتمل أن يكون : الطيب من القول ، هو قول أهل الجنة اعترافا بفضل الله تعالى عليهم وحمدا له ، بإرشاده تعالى لهم أو إلهامهم تلك الأقوال ، يقولونها بينهم ، نظير ما فى قوله تعالى : **(دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)**(٢) .

وعلى ذلك فجملة قوله تعالى : **(وهدوا إلى صراط الحميد)** ، كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية فى الجملة السابقة ، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين ، وسيجىء ذكر مقابلها ، وذلك من بديع بلاغة المقابلة .

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة يونس الآية ١٠ .

والصراط هنا : الجنة : وإطلاق الصراط عليها باعتبار أنها طريق الفوز ، وأظهر ما فسر به : (حميد) هنا : إنه وصف لله تعالى المستحق لذاته غاية الحمد . وقد يفسر هذا الوصف على أنه راجع لطريق الجنة الذى هداهم تعالى إليه، فهو طريق حسن ميسور ، لا مشقة فيه ، فهو حميد لذلك .

وقد يحمل هذا التركيب : (وهدوا إلى صراط الحميد) على أن المقصود بالصراط الحميد : دين الإسلام ، شبه بالصراط لأنه موصل إلى رضى الله تعالى، وعلى هذا فالجملة : إشارة إلى سبب استحقاق تلك النعم ، حيث وفقوا إلى الهداية السابقة فى الدنيا .

يبقى من بيان هذا النظم إيضاح بعض الظواهر البيانية البارزة والتى لا ينبغى للباحث عن الإعجاز البيانى أن يتجاوزها .

وأول تلك الظواهر البيانية الواضحة : توارد الأفعال المستعملة فى بيان حال كل من فريق الاختصام ومآله على طريق ما لم يسم فاعله فقد مضى من ذلك فى بيان جزاء أهل الكفر : (قطعت) (يصب) : (يصهر) : (أعيدوا) وكذا : يقال المقدر مع فعل الإذاقة . كما ورد التعبير على هذا الطريق أيضا فى بيان حال أهل الإيمان: (وهدوا) إلى الطيبب) : (وهو إلى صراط) .

وإيثارهذا الطريق وراءه غاية وقصدا ، ذلك لأن الفاعل لكل تلك الأفعال متعين ومعروف وواحد ، وهو الله تعالى ، أو بعض ملائكته سبحانه بأمر منه ، فلا ابهام إذن ، ولا لبس يعوز إلى الذكر فليسلك طريق الإيجاز فالمقام له ، فالمشهد مزدحم، والأحداث عديدة متلاحقة . والمراد فرط التنبه إليها فى ذاتها وافراغ الذهن لها ، فهى المحور والأصل المقصود بيانه ، وهكذا الحال مع أكثر مشاهد القيامة ومقدماتها . فتلك ظاهرة بيانية مطردة ، قل أن تخطئها فى احداث اليوم الآخر ، حيث يعمد القرآن عمدا إلى صرف الحدث عن محدثه ، فلا يسند إليه ، وإنما يأتى به مبنيا للمجهول . يقول تعالى: (إذا زلزلت الأرض زلزالها)(١): (فإذا نفخ فى الصورنفخة واحدة)(٢).(وحملت الأرض والجبال فدكتا)(٣) (إذا رجت الأرض رجا.وبست الجبال بسا)(٤) ، (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا ..)(٥).

---

(١) سورة الزلزلة الآية ١ . (٢) الحاقة : ١٣ . (٣) الحاقة : ١٤ .

(٤) سورة الواقعة ، الآيتان (٤ ، ٥ . (٥) النبأ الآيات : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

وهكذا ترى أمثال هذه المواقع على هذا الطريق من التعبير منشورة فى الكتاب العزيز ، بل قد تجد التعبير بتلك الصيغة يتتابع فى السورة الواحدة ، واقرأ إن شئت سورة التكوير من أولها تجد أن كل آية ختمت بفعل مبنى على تلك الصيغة حتى الآية الثالثة عشرة منها .

ويلحظ أن أكثر المفسرين والبلاغيين قديما قد شغلهم أمر تأويل الفاعل مع أنه فى الحقيقة معين – عن الالتفات إلى اطراد هذه الظاهرة الأسلوبية فى تلك السياقات وسر تلك الظاهرة البيانى دقيق وجليل ، فاطراد إسناد الحديث إلى غير محدثه بالبناء للمجهول ، أو الاسناد المجازى ، أو نحو ذلك يدل على الحال التى يكون عليها الكون كله يومئذ ، فكله مهيىء مستجيب ، وسائر الكائنات مسخرة، فما تحتاج فيها إلى أمر ، ولا إلى آمر ، فالأرض تتزلزل تلقائيا ، والجبال ترج وتنسف . والنجوم تطمس ونحو ذلك ، مما يفيد معنى الطواعية التامة .

ومن وراء هذا الطريق كذلك : تركيز الانتباه فى الحدث ذاته وحصر الوعى فيه، فلا يتوزع إلى غيره فالحدث هو المقصود ، واللفت إليه هو ما يتجه إليه البيان القرآنى .

وظاهرة أسلوبية أخرى تلحظ فى يسر . فقد كانت الألفاظ المعبر بها فى جانب جزاء الكفرة : بالغة الإثارة ، رهيبة الموقع ، بليغة التأثير والدلالة على المراد . حيث عبر بألفاظ : التقطيع والثياب المتخذة من النار ، وكذا الصهر والمقامع بالنار ولفظ (من غم) ولفظ الإذاقة المعبر به عن إهانتهم وبالغ زجرهم ، فضلا عن أنه قد روعى فى صياغة تلك الألفاظ ما ينبىء عن بالغ أثرها ، فجاءت صيغ الجمع، وهذه وتلك مما يدل على فرط سوء حال أهل النار ، وثمة ظاهرة أسلوبية أخرى ، فقد لحظ أن الآيات الواردة فى بيان جزاء الكفرة : قصار ، وهذا القصر ملحوظ فيه القوة والحسم ، بما يلقى فى نفس المخاطب معنى جدية الموقف الحاسم ، بحيث لا يحتمل الإطالة .

ومع وضوح تلك الظواهر الأسلوبية ومغزاها على النحو الذى سبق فإنه يلحظ أن الأسلوب القرآنى حيث عمد إلى الاخبار عن حال أهل الإيمان خالف الظاهر ، فلم

يسلك معهم طريق التعبير المار مع الكفرة ، فلم يقل الذين آمنوا وفى تلك المغايرة إشعار من أول الأمر باختلاف الحال فضلا عن أن اسناد ادخال أهل الإيمان الجنة إلى صريح لفظ الجلالة يضفى على أهل الإيمان معنى التكريم والإكبار ، والإقبال على إثابتهم باسمه الأعظم .

وبعد أن فصل الحق تعالى بين فريقى الإيمان والكفر ، أنبع بما يفيد تعظيم بيته الحرام ، وعظم جرم الصادين عنه ، ومالهم من عقاب .

يقول سبحانه وتعالى : **(إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) (٢٥) .**

وهذه الآية الكريمة على ما يبدو استئناف ، قصد به توعد هؤلاء الكفرة الذين عمدوا إلى الصد عن سبيل الله ومنع المسلمين من أداء شعائر الحج . ويستأنس لذلك بما أثر من كون الآية نزلت فى أبى سفيان وأصحابه ممن صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه الكرام عام الحديبية عن الذهاب إلى المسجد الحرام(١) .

ويمكن إجراء أمر المناسبة ، بأن يجعل ما فى الآية هنا : مقابل لقوله : **(وهدوا إلى صراط الحميد)** بالنسبة إلى أحوال المشركين ، إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل فى الأحوال المذكورة فى آية :**(فالذين كفروا قطعت .. إلى آخره)** كما تقدم . فموقع هذه الجملة : الاستئناف البيانى والمعنى : كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم : اتباعهم صراط الله وامتثالهم أوامره . كذلك كان سبب استحقاق الكفرة ذلك العذاب : هو كفرهم وصدهم عن سبيل الله .

وفى هذا مع تلك المناسبة لما سبق : تخلص بديع إلى ما بعده من بيان حق المسلمين فى المسجد الحرام ، وتهويل أمر الصد عنه على أى وجه كان ، وكذا التنويه بهذا البيت ، وتنزيهه عن أن يكون مكانا للشرك والظلم والعدوان .

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد المصدر به الآية الكريمة : للاهتمام بمضمونه .

ويلحظ مجىء الفعل : (يصدون) بصيغة المضارع بعد مجىء فعل الكفر على

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٤ .

صيغة الماضي : للدلالة على تكرر ذلك الأمر منهم ، وأنه دأبهم ، وعلى ذلك فليس المقصود من المضارع هنا معنى الحال ، أو الاستقبال وإنما الاستمرار والدوام ، كما يقال : فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء ، لا يراد به حال ، ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته ، فكأنه قيل هنا : إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله . ونظيره على هذا الطريق في التعبير ، وإن كان مقابلا له في المعنى : قوله تعالى : **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)**(١) ، وقد نقل الفخر عن أبي على الفارسي ما يفيد أن التعبير بالمضارع على أصل بابه فهو دال على معنى الحال والاستقبال ، ولا عدول والمعنى : إن الذين كفروا فيما مضى ، وهم الآن يصدون ، وهذا يفيد : أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل(٢) ، ومع أن التوجيه الأول أنسب وأبلغ إلا أن هذا الحمل أولى من القول بأن فعل (يصدون) بمعنى : صدوا إلا أنه عبر بالمضارع استحضارا للصورة الماضية تهويلا لأمر الصد ، فإن ذلك الأمر غير مقصور على أولئك الكفرة ممن نزلت فيهم الآية ، بل إن هذا الحكم والعقاب جار على من كان على مثل طريقتهم .

وأما التعبير بالماضي مع فعل الكفر ، فلأن ذلك الكفر صار كالقلب لهم ، مثلما صار الإيمان لتبأ نظير قوله تعالى : **(إن الله يدخل الذين آمنوا)**(٣) .

(وسبيل الله) : الإسلام ، وعلى ذلك فالصد عن المسجد الحرام مما شمله الصد عن سبيل الله تعالى ، لكن خص بالذكر للاهتمام به ، ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام ، وذكر بنائه ، وشرع الحج له من عهد إبراهيم عليه السلام والمراد بالمسجد الحرام هنا : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم فيها ، فالتعبير إذن من باب المجاز المرسل ، حيث عبر بالجزء والمراد الكل . لكون ذلك الجزء أهم بذلك المراد ، ودال عليه ، ويدل على ذلك : **(الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد)** ، فالمراد بالعاكف : الملازم له في أحوال كثيرة : وهو كناية عن الساكن بمكة ، لأن الساكن بها : يعتكف كثيرا في المسجد الحرام . أو

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨ .

(٢) تفسير الفخر ج٢٣ ص٢٤ .

(٣) سورة الحج الآية ٢٣ .

الشأن أنه كذلك . بدليل مقابلته بالبادى . فأطلق العكوف فى المسجد على سكنى مكة مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم العرفى ، وفى وصف المسجد الحرام بجملة الصلة : **(الذى جعلناه للناس)** إشارة إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه ، لأنهم بذلك قد خالفوا ما أراد الله ، فإنه تعالى قد جعله للناس كلهم ، يستوى فى أحقية الانتفاع بشعائره الناس كلهم . أى : الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وناء وطارىء . ولا يخفى على هذا : وجه المطابقة بين العاكف والبادى ومغزاها حيث أفادت معنى الاستواء التام بين الجميع فى حق التمكين من أداء شعائر الحج . وهذا التركيب وإن لم يكشف عن وجه الاستواء ، فإن أمره والمراد به واضح لظهور أن الاستواء فى ذلك المسجد الحرام بصفة كونه مسجداً يحج إليه : إنما فى شعائر الحج من نحو الطواف والسعى . والوقوف بعرفة .

ثم ينصرف النظم الحكيم إلى حيث ذلك الوعيد الوارد على سبيل التعميم المنتظم لهؤلاء الذين وقع منهم الصد ، وكذا من يكون صفه مثل ذلك فى كل زمان وحين ، وذلك قوله تعالى : **(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)** .

وإذا كان الصد عن المسجد الحرام الحادا بظلم . فإن هذه الجملة تذييل للجملة السابقة ، لما فى لفظ (من) الشرطية من العموم الشامل لكل صاد وملحد بظلم . والباء الداخلة على : (إلحاد) مفيدة للتوكيد على ما ذكر أبو عبيدة(١) ، نظير قوله تعالى: **(تنبت بالدهن)**(٢) ، وكأن المعنى : ومن يرد فى هذا البيت الحرام إلحادا وبعدا عن الحق والاستقامة ، كصدهم من يريد زيارته ، وغير هذا مما ينافى كون هذا البيت مثابة للناس وأمنا ، حتى يتهيىء بذلك لمن أراد أداء مطلوب التكليف المأمور به عقب الإخبار عنه بكونه مثابة للناس وأمنا ، حيث ذكر تعالى : **(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)**(٣) .

وإنما حذف مفعول :(يرد) لقصد التعميم ليتناول كل ما ينافى حرمة هذا البيت كأنه قال : ومن يرد فيه مرادا ما ، عادلا عن الحق ظالما : نذقه من عذاب أليم

---

(١) مجاز القرآن ج٢ ص٤٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٥ .

ويفهم من ذلك : أن الواجب على كل من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهم ويقصد .

والإلحاد : العدول عن القصد ، وقد أثر تفسير المراد به هنا على وجوه شتى . وإن لم يكن بعضها أولى من بعض بحيث ينفى الأخذ بواحد منها اعتبار غيره ، لذلك أستصوب أن الإلحاد بظلم : عام فى كل المعاصى ، لأن كل المعاصى صغرت أم كبرت ، يعظم أمرها فى خصوص هذا المكان عن سائر البقاع ، وعلى ذلك يدخل فى الإلحاد : الشرك ، وقتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد ، ودخول مكة بغير إحرام ، وارتكاب ما لا يحل للمحرم . والمنع من عمارته حتى أدخل فيه بعضهم : قول الرجل فى المبايعة : لا والله ، وبلى . والله .

و (من) فى قوله تعالى : **(من عذاب أليم)** آتية للتوكيد وقد يلمح فيها معنى : التبعيض بناء على التعميم فى معنى الإلحاد بظلم ، فالمراد بالإلحاد متفاوت ، فيتفاوت تبعا لذلك درجة العذاب على حسب ما اقترف .

وعلى كل حال فتلك الجملة جواب الشرط المتقدم والمقصود به إنشاء الوعيد ، وهذه الجملة : دالة كذلك على خبر : (إن) المصدر بها النظم الكريم ، فالكفرة الصادون عن دين الله وعن مسجده الحرام قد تحقق منهم الإلحاد بظلم قطعا ، فينطبق عليهم حتما حكم الجزاء لتحقق شرطه فيهم ولهذا استغنى عن الاخبار عنهم لفهم المعنى من جملة الجواب ، ودعك من قول من زعم أن الخبر جملة : **(يصدون عن سبيل الله)** والواو زائدة ، والغرض الإخبار عن الذين كفروا بالصد ، فلا يخفى ما فى مثل هذا التوجيه من جراءة على النظم الحكيم ، فضلا عن أن القول بزيادة الواو مرغوب عنه فى عرف أهل اللغة ، فإن فى الأخذ به إفسادا للمعنى والغرض والسياق(١) .

ولما ذكر تعالى حال الكفرة ، وصدهم عن المسجد الحرام ، وتوعد من أراد فيه غير ما أحل الله : ذكر تعالى حال أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وتوبيخهم على سلوكهم غير طريقه باتخاذ الأصنام ، وكذا الامتنان عليهم بإيفاد غيرهم من الناس إليهم حجاً لهذا البيت العتيق .

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١٣٨ .

يقول عز وجل : **(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)** (٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) .

هذا النظم الحكيم : عطف على جملة : **(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم...)** عطف قصة على قصة ، ويعلم من ذلك تعليل الجملة المعطوفة عليها بأن الملحد فى المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراد الله تعالى من تطهيره حين أمر ببنائه ، ثم التخلص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين ، وكفرانهم نعمة الله فى إقامة المسجد الحرام وتشريع الحج إليه لمنافع الناس .

والتبوئة : الإسكان . **(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها)** (١) والمراد هنا عينا لإبراهيم مكان البيت ودللناه عليه :

والمكان : المساحة من الأرض . فتبوئته المكان : إذنه تعالى لإبراهيم بأن يتخذ هذا المكان مباءة . أى : مقرا يبنى فيه بيتا ، وفى هذا التركيب إيجاز . فكأن الأصل : وإذ أعطينا إبراهيم مكانا ليتخذ فيه بيتا ، فقال : مكان البيت لأن هذا حكاية عن قصة معروفة لهم ، وسبق ذكرها فيما نزل قبل هذه الآية من القرآن .

والبيت : معروف معهود عند نزول القرآن ، فلذلك عرف بلام العهد . ولولا هذه النكتة لكان ذكر (مكان) : حشوا .

وأصل البيت : مأوى الإنسان يبيت فيه ليلا ، ثم شاع استعماله من غير اعتبار التقييد بزمن الليل ، وجمعه : بيوت وأبيات ، لكن البيوت بمكان السكنى أخص ، كما أن الأبيات بالشعر أنسب .

واللام فى : (لإبراهيم) : لام العلة مثلها فى قولهم : شكرت لك ، أى : شكرتك لأجلك ، وفى ذكر اللام فى أمثال هذه المواقع ضرب من العناية والتكرمة.

والخطاب فى قوله تعالى : **(أن لا تشرك بى شيئا)** لإبراهيم عليه السلام ، كما هو ظاهر فإن الحديث عما كان معه . ويؤيد ذلك أيضا قراءة: **(أن لايشرك)**

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٦ .

بياء الغيبة ، والقول بأن الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم . بعيد ، ولا سند له من سياق أو غرض . والمراد بهذا الخطاب : لا تجعل فى العبادة لى شريكا . ولا تشرك بى غرضا آخر فى بناء البيت . ومثل هذا الخطاب يجرى على ما يعرف عند أهل البلاغة بأساليب الإلهاب والتهييج ولتلك المخاطبات بلاغتها ، ومن وراءها أغراض وغايات جليلة ، ولذا وجدناها واردة مع أكثر الأنبياء عليهم السلام فقد خوطب بها داوود وسليمان ، وموسى وهارون وكذا نوح وعيسى ، كما وردت فى حق الأنبياء جميعا فى مقام وسياق واحد ، لكن يبقى الرسول صلى الله عليه وسلم - أكثر الأنبياء جميعا مخاطبة بتلك الأساليب ، فقد وردت فى حقه على صور شتى ، حيث خوطب بها عليه الصلاة والسلام على أسلوب الأمر تارة ، والنهى تارة والشرط والقسم تارة أخرى ، وهذا يشير (دون ريب - إلى أن لتلك المخاطبات أغراضا كبرى وغايات جليلة ، إذ هى دليل تأكيد سلطان الربوبية على سائر الخلق حتى أقرب الناس إليه ، فهو يواجههم بأمثال تلك الأساليب الحاسمة لأتصالها بأمور هى أصول الدين والعقيدة ، وليكون من وراء ذلك تنبيه إلى الناس جميعا . فإذا كان الأنبياء والرسل وهم المعصومون يؤمرون بما لا يتصور تخليهم عنه ، وينهون عما لا يتصور فعلهم له ، فكيف الحال بمن يقع منهم المنهى عنه وترك المأمور به من سائر الناس .

والمراد من الأمر بتطهير البيت : ما يشمل الطهارة الحسية والمعنوية أى : طهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده ، أو المعنى ، أمرنا إبراهيم ببناء البيت فى ذلك المكان . وبعد أن بناه قلنا : لا تشرك بى شيئا وطهر ، وعلى هذا فالكلام على تقدير حذف دل عليه الكلام قبله . وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة: (بيتى) لتشريف البيت .

والطواف : المشى حول الكعبة . وهو عبادة قديمة من زمن إبراهيم وقد أقرها الإسلام . والمراد بالقائمين : الداعون تجاه الكعبة ، ومنه سمى مقام إبراهيم ، وهو مكان قيامه للدعاء . والمراد بالركع السجود : المصلون ، ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير فيكف وقد اجتمعت .

ويلحظ فى هذا التركيب : جمع الطائفين والقائمين جمع سلامة ، وجمع الركع : جمع تكثير ، وإتيان السجود على لفظ المصدر .

ولعل الغرض من وراء ما عليه كل لفظ فى هذا السياق : أن جمع السلامة أقرب إلى لفظ الفعل المضارع ، فطائفون بمنزلة : يطوفون وكذا الحال مع القائمين، فهو بمنزلة يقومون ففى لفظه إشعار بعلة التطهير وهو حدوث الطواف والقيام وتجددهما إذ المضارع يدل على هذا المعنى . وأما الركع . فلم يجمع جمع السلامة على وفق ظاهر ما سبق لأنه لا يحتاج فيه إلى بيان الفعل الباعث على التطهير لأنه غير مستقل بذاته فى العبادة لدخوله فى معنى الصلاة المعبر عنها فى هذا السياق بلفظ القائمين على ما قد يفسر المعنى عليه .

وأما وجه المخالفة بين الركع والسجود فى اللفظ حيث لم يأت : السجد كما قيل: **(الركع** : لأن السجود يطلق على وضع الجبهة على الأرض ، كما يطلق على الخشوع ، فلو قيل السجد لم يتناول إلا المعنى الظاهر . نظير قوله تعالى : **(تراهم ركعا سجدا)**(١) فما هنا من رؤية العين . ورؤية العين لا تتعلق إلا بالظاهر فكان التعبير بلفظ السجد ملائما لذلك ولكن لما كان القصد هنا الرمز إلى السمود المعنوى الذى هو الخشوع ، والصورى الذى هو عبارة عن وضع الجبهة على الأرض : كان التعبير بلفظ السجود على المصدر أبلغ .

ولم يعطف السجود على الركوع ، كما عطف القائمين على : الطائفين لأن الراكع والساجد واحد ، والعطف يقتضى المغايرة والتعدد .

ثم جاء قوله تعالى : **(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا الآية)** على طريق العطف على جملة : **(وطهر بيتى)** .

والتأذين : رفع الصوت للإعلام بشىء ، وأصله : أذن بالتخفيف : إذا سمع . ثم صار بمعنى : بلغه الخبر . فجاء منه أذن بمعنى أخبر ، والتعبير بالفعل هنا على صفة التضعيف : مشعر بتكرير الفعل ، أى : أكثر الإخبار بالإعلام بهذا الأمر . والكثرة كما تكون بالتكرار : تحصل كذلك برفع الصوت القائم مقامه . وفى المأثور - إن صح - ما يفيد حصول الأمرين جميعا من إبراهيم عليه السلام(٢) .

والمراد بالناس هنا : ما يعم البشر ، على معنى كل ما أمكنك إعلامه منهم .

والظاهر المتبادر من السياق والنسق ، وما عليه أكثر أهل هذا الشأن : أن المخاطب المأمور بذلك : إبراهيم عليه السلام ، كما أن فى المأثور ما يؤيد ذلك(٣)

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ . (٢) ينظر تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢١٦ .

(٣) روح المعانى ج١٧ ص١٤٣ .

وأما ما ذكر عن بعض مفسرى السلف من كون الخطاب هنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر به فى حجة الوداع فبعيد جدا ، ولا قرينة عليه من سياق ، وأما الحكم ببعد هذا التوجيه بناء على كون السورة الكريمة مكية : فغير مسلم ، لعدم سلامة ما بنى عليه . فإن من آيات السورة ما هو مدنى قطعا .

وإيقاع فعل الإتيان على ضمير خطاب إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : (يأتوك) لكون ذلك الإتيان بسبب إعلامه ونداءه فى ظاهر الحال ، وإن كان الآمر والمعلم فى الحقيقة هو الله تعالى ، وما كان إبراهيم سوى مبلغ عنه تعالى ما أراد . وقد يفهم من ذلك التعليق أيضا : أن إبراهيم عليه السلام كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ الناس التوحيد وقواعد الدين . وعلى كل حال فإن هذه الجملة جواب للأمر قبلها : (وأذن) جعل التأذين سببا للإتيان تحقيقا لتيسير الله تعالى أمر الحج على الناس ، فدل جواب الأمر على أنه سبحانه قد ضمن لإبراهيم استجابة دعائه . وكأن المعنى : عليك البلاغ وعلينا الاستجابة .

ثم أتبع النظم الحكيم بما يكشف عن حال من يكون منهم الإتيان فى قوله : **(رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .**

و(ورجالا) : جمع : راجل ، كصحاب جمع : صاحب وعطف عليه : (وعلى كل ضامر) بواو التقسيم التى بمعنى : أو نظير قوله تعالى :(..ثيبات وأبكارا)(١) إذ معنى العطف هنا : على اعتبار التوزيع بين راجل وراكب ، فالراكب غير ماسن . والمقصود بذلك استيعاب أحوال الأتيان المشار إليه أى : يأتوك ركبانا : أو مشاة على أقدامهم . ولكون حال الآتى ماشيا أغرب قدم قوله تعالى : (رجالا) . ثم بعده : (على كل ضامر) تكملة لتتميم أحوال الإتيان . فإن إتيان الناس للحج حينئذ لا يخرج عن أحد هذين الحالين . وإنما حرصت فى بيان تلك الحال على ذكر : (يومئذ) : لأرد بذلك على زعم من قال بسقوط فرض الحج على من ركب البحر ، على ما أورد عنهم صاحب البحر(٢) ويقاس على ذلك سقوط الحج على من ركب الجو أيضا . وذلك مما لا يقول به عاقل .

---

(١) سورة التحريم الآية ٥ .

(٢) البحر المحيط ج٦ ص٣٦٤ .

وكنت قد قلت إن تقديم حال الماشي على الراكب لكون حال الحاج ماشيا أغرب وقد يقال بل التقديم أفضل ، لظهور معنى المشقة فيه أكثر ، ويستأنس لذلك بما أثر عن بن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : (ما آسى على شيء فاتنى إلا أنى لم أحج ماشيا حتى أدركنى الكبر ، أسمع الله تعالى يقول : (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) فبدأ بالرجال قبل الركبان) وفى ذلك المعنى أيضا بعض الأحاديث وردت .

والضامر : قليل لحم البطن يطلق على البعير والناقة ، والضمور من محاسن الرواحل والخيل لأنه يعينها على السير والحركة ، وكأن ذلك الوصف مراد به أن تلك الرواحل الآتين عليها : مهيأة بما هى موصوفة به بما يعينها على تحمل المشاق والسير الطويل البعيد والمدلول عليه صريحا فى قوله تعالى : (من كل فج عميق) . وفى ذلك غاية المناسبة . فهم آتون ركوبا من مكان هو غاية فى البعد ، فلتكن وسائطهم المتخذة إذن : لائقة بحالهم ، فجاء الضمور محققا لتلك المناسبة على أكمل حال .

وأما العدول عن لفظ ركبان مع أنه أخصر ، إلى ما عليه النظم الحكيم فالغرض الدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة .

والمراد بلفظ : (كل) فى هذا التركيب : معنى الكثرة . أى : وعلى رواحل كثيرة ، فليس المراد استغراق جنس الرواحل ، على نحو ما مر إيضاحه فى بيان هذه السورة الكريمة .

ولأن نهاية الطريق البعيد يرى وكأنه إلى أسفل : وصف الفج : أى الطريق بالعمق إشارة إلى التناهى فى البعد .

وحيث أمر تعالى إبراهيم عليه السلام بإعلام الناس بالحج أتبع النظم الحكيم فذكر حكمه وشعائره ، فكان قوله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام الآية).

وقوله : (ليشهدوا) : يتعلق بقوله : (يأتوك) (فهو علة لأتيان الناس بالحج) ومعنى :(ليشهدوا منافع لهم) . أى : ليحضروا فيحصلوا منافع لهم . وأهم تلك المنافع : ما وعدهم الله تعالى به على لسان إبراهيم - عليه السلام - من الثواب . فكنى النظم الحكيم بشهود المنافع عن نيلها ، وذلك

دلالة على التحقق ، حتى لكأن ما وعدوا به صار يتبليغهم وإتيانهم أمرا يشهد بالعين . وهذا أبلغ فى تحصيل المراد وتأكيده . وإبراز لفظ : (منافع) على التنكير ليفيد التعميم فيشمل المنافع الدينية ، فإن اجتماع أهل التوحيد فى صعيد واحد يهيىء لأن يأخذ كل منهم عن الآخر ما به كمال الإيمان . ويشمل كذلك المنافع الدنيوية ، لأن فى اجتماع الحجيج تعارفا وتعاملا .. ومن هنا أفاد التنكير معنى التعميم . ويمكن أن يفهم أيضا : معنى التعظيم ، لأنه تعالى أراد منافع مختصة بهذه العبادة لا توجد فى غيرها من العبادات .

وبعد هذا الإجمال والتعميم فى أمر منافع الحج ، ورد قوله تعالى : **(ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام)** على جهة التوضيح والتخصيص . والمراد بهذا التركيب الذبح فى الحج . وكنى عنه بذكر اسم الله تعالى لأن المسلمين لا ينفكون عن ذكر اسمه سبحانه إذا ذبحوا ، وفيه تنبيه كذلك على أن الغرض الأصلى فيما يتقرب به إلى الله تعالى: أن يذكر اسمه ، وأن يخالف المشركون فى ذلك فإنهم كانوا يذبحون للنصب والأوثان(١) .

وأكثر أهل الفقه والتفسير على أن المقصود بالأيام المعلومات : عشر ذى الحجة، وذلك لكونها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها وقد حسن هذا الكلام تحسينا بينا أن جمع بين قوله :**(ويذكروا اسم الله)** . وقوله : **(على ما رزقهم)** ، ولو قيل لينحروا فى أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئا من ذلك الحسن)(٢) .

ولفظ : (على) فى قوله : **(على ما رزقهم)** للإستعلاء والمراد هنا : الملابسة والمصاحبة ، فالكلام على تقدير مضاف ، أى : عند نحر بهيمة الأنعام ، فالاستعلاء على ذلك مجازى . وجاء قوله تعالى : **(من بهيمة الأنعام)** : بيانا لمدلول : (ما) الموصولة ، فلما كانت البهيمة : مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر . فسرت بالأنعام ، وهى : الإبل والبقر والضأن والماعز . والمراد : ليذكروا اسم الله تعالى على بهيمة الأنعام . وإنما جىء بلفظ : الرزق لغرض جليل، فقد أدمج تعالى فى هذا الكلام معنى الامتنان بأنه سبحانه رزقهم بتلك

---

(١) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص٣٠ .

(٢) الكشاف ج٣ ص١١ .

الأنعام التى يتقربون بها ، وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله تعالى فى العبادة ، واطعام ذوى الحاجة من عباد الله من لحوم تلك الذبائح وفى ذلك سد لحاجة المعوزين ، ولذلك فرع على ما سبق بقوله : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير).

وأمر الأكل هنا يحتمل أن يكون للوجوب على شريعة ابراهيم - عليه السلام- فيكون الخطاب له ولمن كان معه ، ويحتمل أن يكون الأمر على عمومه ، فإن أهل الجاهلية ما كانوا يأكلون من هذه الذبائح ترفعا على الفقراء ، فأمر المسلمون بذلك لما فيه من مخالفة لهؤلاء المتكبرين ومساواة الفقراء(١) . وأن كان أول التوجيهين أحب إلىّ ، فإن السياق : قص وتذكير بما كان منه تعالى مع نبيه إبراهيم - عليه السلام - ومن هنا لا أكاد أرى الحكم بإباحة الأكل من هذا الذبح أو استحبابه يؤخذ من هذا السياق .

وما أردت التطويل بذلك . وإنما القصد إلى اللفظ ودلالته وموقعه فى السياق وملابساته ، وعلى هذا الطريق نلحظ العدول عن أساليب الغيبة الواقعة فى ضمائر: (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم..) إلى الخطاب فى قوله : (فكلوا منها وأطعموا..) على طريق التلوين والالتفات، وفى هذا : لفت إلى أن هؤلاء المحكى عنهم شهود وقد لبوا النداء : فهم بين يديه يتلقون عنه تكاليفه تلقى المشافهة والمباشرة ، فجعلوا لذلك فى صورة المخاطبين الماثلين .

والبائس : الذى أصابه البؤس ، وهو : ضيق الحال ، وهو الفقير على قول جمع من المفسرين ، ومن أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنه كالبيان له، وإنما ذكر البائس مع أن الفقير يغنى عنه : لترقيق قلوب الناس على الفقير بتذكيرهم أنه فى بؤس ، لأن وصف فقير لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب. فهو غير مشعر بمعنى شدة الحاجة ، وقد حصل بذكر مجموع الوصفين التأكيد والمبالغة فى الحث على بذل ما يسد حاجته . وقد فرق بعضهم بين الوصفين ، فالبائس : الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه ، والفقير الذى تكون ثيابه نقية . ووجهه غير دال على حقيقة حاله(٢) . ولا أكاد أجد لهذا التفريق بين الوصفين من حيث الواقع مجالا .

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٣٠ .   (٢) تفسير الفخر ج٢٣ ص٣٠ .

وموقع : (ثم) ، والمراد بالتفث مما أشكل أمره على أهل اللغة والتفسير . ولفظ التفث لم يرد فى الكتاب العزيز فى غير هذا الموضع . وأكثر أهل العلم على أن المراد به : الوسخ(١) ، وكأن المعنى : قص الأظفار ، والأخذ من الشارب أو هو تحلل الحاج مما كان محرما عليه بالاحرام . وعلى الأخذ بأحد هذين الحملين أو بإعتبارهما معا أو نحوهما ، فلابد من إعتبار ضرب من التجوز جرى عليه الكلام ، إذ القضاء فى الأصل : القطع والفصل ، والمراد به هنا على هذا الإزالة . أى : ليزيلوا ما طرأ عليهم بنحو تقليم الأظفار والأخذ من الشارب(٢) .

وهناك من فسر التفث بمناسك الحج كلها من نحو الوقوف بعرفة والسعى والرمى، والقضاء على هذا بمعنى الأداء ، كأنه قيل : ثم ليؤدوا ، وكأن التعبير عن النسك بالتفث لما أنه يستدعى حصوله . فإن الحجاج ما لم يحلوا واشعث غيب، ومع أن الألوسى عقب على هذا التوجيه ما يفيد بُعْده(٣) ، غير أن صاحب التحرير قد أخذ به مستندا إلى أن فعل : (ليقضوا) ينادى على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا ، وعلى ذلك فموقع : (ثم) فى عطف جملة الأمر على ما قبلها مفيد معنى التراخى الرتبى . فيقتضى أن المعطوف الواقع بعد (ثم) : أهم مما ذكر قبلها ، فإن أعمال الحج هى الأهم فى الأتيان إلى مكة(٤).

وإذا كان الأمر بقضاء التفث واردا على سبيل الإطلاق ، فإن الأمر بعده فى قوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) على سبيل التقييد ، أى : إن كان قد وقع من أحدهم نذر فعليه وفاءه ، وهذا التقييد وإن لم يصرح به ، لكنه ملحوظ من وراء إيقاع الأمر بالوفاء على النذر . والنذر : التزام قربة لله تعالى لم تكن فى الأصل واجبة .

وبعد الأمر بقضاء التفث ، والوفاء بالنذر إن وقع : ختم هذا الخطاب المحكى عما كان مع إبراهيم عليه السلام - بأمر الطواف بالبيت العتيق .

---

(١) مجاز القرآن ج٢ ص ٥٠.

(٢) روح المعانى ج١٧ ص١٤٦ .

(٣) السابق نفس الصفحة .

(٤) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٤٨ .

ومع تعدد تفسير المراد بالعتيق ، فإن اعتبار الملحظ فى كل ما ذكر يسوغ الأخذ به مجتمعا ، إذ لا تنافى يمنع الجمع بينها .

والمتبادر من هذا الوصف : القدم ، فإن هذا المسجد بصريح آيات الكتاب العزيز أول بيت وضع للناس . لكن روى عنه - صلى الله عليه وسلم - : إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط(١) ، وأما ما كان من مثل ما وقع من الحجاج بن يوسف : فلم يقصد به التسلط على البيت الحرام ، لكن احتال بما كان منه لاخراج ابن الزبير الذى تحصن به ، ثم عاد وبناه . أو سمى البيت عتيقا لكونه محررا غير مملك لأحد من الناس ، وقد أجرى بعض المفسرين التعبير على هذا بما يؤول إلى الاستعارة المكنية ، فقد شبه البيت الحرام بالعبد العتيق فى أنه لا ملك لأحد عليه(٢) ، فالعبد المشبه به مطوى ذكره . وإنما المذكور : وصفه الذى كان له بعد أن صار حرا ، واجراء التجوز على هذا النحو مما لا يستجيب إليه الذوق والفهم الدقيق لرموز الألفاظ وطرق صياغتها ، فإن ورود لفظ : العتيق على صيغة (فعيل) يؤذن بأن هذا الوصف للبيت الحرام منذ كان ، وليس وصفا طارئا عليه شأن المعتق بعد أن كان عبدا ، فوصف العتق عارض له ولذلك أرى الوصف هنا على حقيقته فليس متعين فى باب الرق بدليل الإضافة معه فيقال : عتق رقبة وهذا مشعر باتساع الاستعمال فى الأصل لذا يحتاج إلى الإضافة حتى يتعين المراد . ويفهم من هذا الوصف : معنى التعريض بالمشركين ، فقد كانوا يمنعون من يشاءون من دخول البيت الحرام ، فكأن المعنى : ليس لأحد سلطان عليه حتى يمنع من أراد منعه فذلك بيت الله للناس جميعا ، جعله لهم مثابة وأمنا .

كما ذكروا أن هذا البيت عتيق ، لأن الله تعالى قد نجاه من الاغراق زمان الطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، حيث لم يشمله الإغراق صيانة منه تعالى لهذا البيت وإعظاما لشأنه إذ هو فى الأرض رمز لتوحيده تعالى وإخلاص العبادة له . كما قد يفسر وصف عتيق على أنه بمعنى : معتق بصيغة اسم الفاعل ، والكلام حينئذ من باب المجاز المرسل ، وكأن المعنى أن الله تعالى بفضله يغفر لمن حج هذا البيت ويعتقه من النار مادام قد وفى بشرط خلوص النية وسلامة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص١١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٥٠ .

القصد . فكان البيت الحرام معتقا لمن حج إليه من النار باعتبار أنه سبب الغفران المؤدى إلى ذلك ، فالعلاقة المصححة لهذا التجوز السببية ، وفى مروى صحاح الحديث ما يستأنس على قبول هذا التوجيه باعتباره أحد الوجوه التى يمكن أن يفهم عليه هذا الوصف .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه ، بيت أمر الله تعالى خليله إبراهيم - عليه السلام - بإقامته على التوحيد . وتطهيره من كل مظاهر الشرك . بالحج إليه ، ليذكروا ، اسم الله تعالى وحده اعترافا بوحدانيته سبحانه وتذكر النعمة على ما رزقهم . فذلك بيت حرام ، حرمات الله فيه مصونة فلا شرك فيه يذكر ، ولا آثام أو مخالفات لمنهج الله فيه ترتكب ، وتأكيدا لتلك المعانى اتجه النظم الحكيم من بعد ما ذكر بحال إبراهيم - عليه السلام - مع هذا البيت : إلى هذه الأمة حثا على الاستمساك بحرمات ذلك البيت .

يقول سبحانه وتعالى : **(ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق .)** . (٣٠ - ٣٣)

واسم الإشارة فى قوله تعالى: **(ذلك ومن يعظم شعائر الله..)** مستعمل للفصل بين كلامين ، كما يقدم المتكلم أو الكاتب جملة من كلامه أو كتابه فى بعض المعانى ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا ، والقصد منه : التنبيه على مزيد الإهتمام بالكلام بعده ، فالإشارة مراد بها التنبيه وذلك حيث يكون ما بعدها غير صالح لوقوعه خبرا عنه . وهذا الاستعمال من أساليب الاقتضاب البديعة فى الانتقال من غرض إلى غرض أو من معنى إلى معنى آخر فى الغرض الواحد ، والمشهور فى ذلك الاستعمال : لفظ : (هذا) نظير قوله تعالى: **(هذا وإن للطاغين لشر مآب)**(١) . لكن استعمل هنا إشارة

(١) سورة ص الآية ٥٥ .

البعيد : (ذلك) : للدلالة على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهذا الموقع من الاقتضاب القريب من التخلص ، لملائمة ما بعده لما قبله على ما سيتضح ، ومن هنا فلا وجه لمن أنكر وقوع ما يعرف عند أهل البلاغة والبديع بالتخلص والاقتضاب لما فيهما من التكلف على زعمه(١) ، فإن جملة : **(ومن يعظم حرمات الله..)** : انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه مما سبق الحديث عنه مع قصة بناء البيت الحرام ، للتنبيه إلى أن الإسلام مبنى على أساس الحنيفية .

والحرمات : جمع حرمة . وهى ما يجب احترامه ، والاحترام اعتبار الشىء ذى حرم ، كناية عن عدم الدخول فيه . أى : عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله تعالى . أو ارتكاب منهى عنه ، لكن يبقى للتعبير القرآنى فضل مزية ، إذ يشعر مع إفادة اجتناب المحرم : بمعنى الاكبار والتعظيم والتوقير لما شرع الله تعالى ، فهم لا يقربون محرما ، وهم كذلك على حال من الإعظام لهذا المحرم ، فلا ينبغى الاجتراء عليه ، فموجب التعظيم صيانته واجلاله ، وعدم التلبس به ، أو اقترابه .

والمراد بالحرمات : كل ما أوصى الله تعالى باجتنابه ، ويدخل فى ذلك : محارم الإحرام بالحج . وفى المأثور ما يفيد حصر الحرمات فى خمس تتعلق كلها بالذوات دون الأحوال ، أو بعبارة أخرى : أنها تختص بأمور حسية ، لا بأمور معنوية ، إذ هى المسجد الحرام ، والبيت الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم مادام محرما(٢) . وظاهر السياق ودلالات ألفاظه أدل على قصد التعميم الشامل لهذه الحرمات وغيرها مما يخص أعمال الحج وأمثالها مما هو من حدود الله تعالى .

وضمير : (فهو) : عائد إلى معنى التعظيم المأخوذ من فعل : **(ومن يعظم حرمات الله)** . ومعنى **(فهو خير له عند ربه)** . أى : أن ذلك التعظيم لحرمات الله تعالى : مما يثاب عليه يوم القيامة وفي ذكر وصف الربوبية هنا مع إضافته إلى ضمير المعظم لحرمات الله اشارة إلى تشريفه تعالى لهذا المعظم لحرماته وتكريمه لإضافته إلى وصفه الجليل .

وهذا الكلام مخاطب به المسلمون تنبيها لهم على أن تلك الحرمات لم يعطلها الإسلام . فيكون الانتقال على هذا : من غرض إلى غرض ، ومن مخاطب إلى

---

(١) ينظر البرهان ج١ ص٤٣ . (٢) روح المعانى ج١٧ ص١٤٧ .

إلى مخاطب آخر ، فإن المسلمين كانوا يعتمرون ويحجون قبل الفتح . أى: قبل افتراض الحج .

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام من قبل أنفسهم ، كالبحيرة والسائبة والوصيلة ، فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله أصلا ، على حين أنهم يعتدون على حرماته تعالى فيحلون ما حرم الله فأتى النظم الحكيم من بعد ذلك يبين حل الأنعام إلا ما حرم الله منها كالميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، : **(أحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم)** . وذلك كيلا تكون هناك حرمات إلا لله . فلا يشرع أحد إلا بإذنه فإن أمر التحريم والتحليل من شئونه تعالى الخاصة به سبحانه ، فليس لأحد من خلقه كائنا من كان أن يفترى على الله كذبا فيحل حراما ، أو يحرم حلالا لغرض ، فذلك إثم وبهتان ، وقد توعد الله تعالى أمثال هؤلاء بأشد العقاب .

ومعلوم أن المراد بحل الأنعام : إباحة ذبحها والأكل منها . وهذا مما يعلم عقلا وشرعا وعرفا ، بحيث يغنى هذا العلم عن تكلف تقدير حذف فى الكلام ، فإن المعنى فى مثل هذه التراكيب أوضح من أن يتكلف معها اعتبار التقدير والحذف ، ثم يستثنى النظم الحكيم من ذلك الحلال . ما يتلى تحريمه فى القرآن العظيم ، وهو مذكور على التفصيل فى سورتى الأنعام والنحل ، وكلتا السورتين سابقة النزول على سورة الحج . وعلى ذلك فإن التعبير بالمضارع فى قوله تعالى : **(إلا ما يتلى عليكم..)** ليشمل ما نزل سابقا . ولا يزال يتلى . وليشمل كذلك ما قدر الله إنزاله وكان فى سورة : العقود . وهى من أواخر ما نزل فالمضارع إذن دال على الاستمرار التجددى المناسب لحال ما كان قد نزل ، والدال كذلك على معنى الاستقبال المناسب لحال ما لم يكن قد نزل ، وهذا أولى من القول بأن الغرض من المضارع : استحضار الصورة لمزيد الاعتناء ، إذا عليه يفوت اعتبار ما لم يكن قد نزل آن ذاك ، أو القول بإبقاء المضارع على أصل معناه من الدلالة على الحال والاستقبال(١) ، فإن ذلك الاعتبار يضيع ما سبق ونزل فى سورتى الأنعام والنحل. وعلى كل حال ، فإن هذه الجملة : اعتراض مقرر لما قبلها من الأمر بالأكل والإطعام دافعة لما عسى أن يتوهم من أن الإحرام يحرم ذلك كما حرم الصيد مثلا.

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٣٢ .

ثم إنه سبحانه بعد أن حث على تعظيم حرماته ، وأثنى على من يعظمها أتبع **(فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور)** .وذلك لأن توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الحرمات . وإنما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد ، لأن الشرك من باب الزور ، فالمشرك زاعم أن مثل الوثن تحق له العبادة ، فكأنه تعالى قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هى رأس بالزور ، واجتنبوا قول الزور كله ، ولا تقربوا منه شيئا ، فالكلام إذن جاء على طريق ذكر العام بعد الخاص . وعند صاحب البرهان ما يفيد أن المراد الزور هنا : الكذب ، ويراد به الشرك . فإن هذا اللفظ حيث ورد فى القرآن يراد به هذا المعنى إلا موقع المجادلة: **(منكرا من القول وزورا)**(١) . فإنه كذب غير شرك(٢) . وإن كنت أرى حمل الزور هنا على مطلق الكذب أنسب وهو . من الزور بمعنى : الانحراف فإن الكذب منحرف عن الواقع . وإنما أعيد أمر الاجتناب مع قول الزور ، ولم يعطف قول الزور على الرجس : لمزيد الاعتناء فكرر الفعل دليل على هذا المعنى .

والمخاطبون بذلك أهل الإيمان ، والمراد بأمرهم باجتناب الأوثان واجتناب الزور محمول على معنى طلب الدوام والاستمرار ، نظير ما فى قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا آمنوا ..)**(٣) .

والفاء الداخلة على فعل اجتناب الرجس دالة على التفريع للتصريح بأمر اجتناب عبادة الأصنام ، والكذب على الله من نحو قول بعض أهل الشرك فى بعض المحرمات هذا حلال وزعمهم فى بعض ما أحل الله ، هذا حرام .

وعلى ذلك فالتعريض ظاهر من وراء هذين الأمرين ، فهما وإن كانا فى الظاهر موجهين إلى المسلمين على المعنى المشار إليه . فإن الغرض التعريض بمن وقع منهم ذلك على ما جاء صريحا فى خطاب أهل الشرك : **(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ..الآية)**(٤) .

والرجس حقيقته : الخبث والقزارة ، ووصف الأوثان بالرجس : لأن تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس . ولأن عبادتها أعظم من التلـوث بالنجـاسات . فهذه

---

(١) سورة المجادلة الآية : ٢ . (٢) البرهان ج١ ص١٠٧ .
(٣) سورة النساء الآية ١٣٦ . (٤) سورة النحل الآية ١١٦ .

الأوثان : رجس معنوى لكون اعتقاد ألوهيتها فى النفوس بمنزلة تعلق الخبث بالأجساد ، فاطلاق الرجس عليها تشبيه بليغ وكأن الأصل : فاجتنبوا الأوثان التى هيالرجس فكل منهما ينبغى تجنبه والتجرز عنها اثم صار الكلام إلى حذف كل من الأداة والوجه مبالغة فى هذا التشبيه لمزيد تأكيد أمر اجتناب تلك الأوثان . وهذا الوصف مشعر كذلك بغاية الاستحقار والاستخفاف بتلك الأصنام المزعومة شركاء لله سبحانه .

وقوله تعالى : **(من الأوثان** : بيان للرجس وتمييز له ، لأن الرجس مبهم يتناول كل شىء نجس ، فكأنه تعالى قال : فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، وليس المراد أن بعض هذه الأوثان ليس كذلك .

ثم جاء قوله تعالى : **(حنفاء لله)** : مرادا به الحث على إخلاص العبادة لله . وحنفاء جمع حنيف ،بهى هو فى الأصل : الاستقامة ، أو الميل إلى الحق(١) . فكأنه تعالى يقول : تمسكوا بهذه الأمور التى أمرت بها ، ونهيت عنها على وجه العبادة لله وحده لا تشركوا معه غيره ولذلك أعقب بما يدل صريحا على ما فهم ضمناً ، فقال سبحانه : **(غير مشركين به)** . فإن الدلالة على المطلوب بالتصريح به بعد فهمه مما قبله ضمنا : أبلغ فى تحصيل المعنى المراد وأوكد .

يكشف لك عن هذا : إنك لو طويت الذكر فى نفسك عن قوله تعالى : **(غير مشركين به)** . لرأيت المعنى المراد غير تام على وجه القطع . فإن : **(حنفاء لله)** : يفيد إخلاص العبادة لله تعالى أيضا ، لكن لا يمنع التعبير فى ذاته إمكان إخلاص العبادة لغير الله تعالى كذلك ، فكان التصريح بما ذكر أدل على المطلوب . لذا قلت : إن فى التعقيب بقوله : **(غير مشركين به)** : بلاغة وتوكيدا .

وفى حذف متعلق الإشراك : إشارة إلى التعميم ليتناول كل ما يتخذ معه تعالى شريكا ، أو يتصور فيه ذلك ، أى : غير مشركين به شيئا من الأشياء . والباء فى قوله : **(غير مشركين به)** : للمصاحبة والمعية . أى : غير مشركين معه غيره ، ويفهم من ذلك أيضا : تأكيد إفراده تعالى بالعبادة .

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٣٣ .

وبعد أن نهى تعالى عن عبادة الأوثان وقول الزور ، وشدد على إخلاص النية في العبادة : ضرب المثل بيانا لحال من يخالف وأشرك : (**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق**) .

وهنا يصور النظم الحكيم حال من زلت قدماه ، أو تزل عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بددا ، كأن لم يكن من قبل أبدا . إنه مشهد السقوط من شاهق . وهل هناك ما هو أعلى من السماء . فكأن هذا المشرك خر من السماء . وفى مثل لمح البصر يتمزق فتخطفه الطير ، أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار فى هوة ليس لها قرار .

وإيثار التعبير بأسلوب الشرط فى هذا التركيب : لإفادة معنى التعميم ، فيتناول من هم على حال الإشراك فعلا ، وكذا من تحدثه نفسه بالارتداد ممن لم يخالط الإيمان قلوبهم ، فهم لايزالون يعبدون الله على حرف . وهذا التعميم أنسب فى مثل تلك المواقع ، حيث الغرض : المبالغة فى التحذير . واتساقا مع هذا الغرض جاء التصريح بلفظ الجلالة : (بالله) إذ هو الاسم الجليل الأعظم الجامع لكل صفات الكمال والجلال ، فهو يضفى على الكلام مهابة . وفيه أيضا : إشعار بقبح أمر الإشراك . إذ كيف يشرك مع الله ذى الجلال والكمال غيره من أمثال ذلك الرجس من الأوثان .

وفى هذا التركيب : تمثيل بديع فى وصف حال المشرك وكيف أنه يهدر وجوده إهدارا مطلقا ، وكيف يهوى من أفق الفطرة الصادقة إلى محط الضياع والضلال(١) .

ومما يزيد من حسن هذا التمثيل : أن كان من القبيل القابل لتفريق أجزائه إلى تشبيهات ، يقول صاحب الكشاف : (يجوز أن يكون هذا التشبيه من المركب والمفرق ، بأن صور حال المشرك بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا فى حواصلها.أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفرقا ، فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان

---

(١) التصوير البيانى ص٨٨ .

وأشرك بالله : بالساقط من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره : بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطرح به فى وادى الضلالة : بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة .

وقد أشار هذا التركيب إلى أن المشركين قسمان ، قسم على شك وارتياب ، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه طائر آخر . وهذا المعنى يشير إليه لفظ : (فتخطفه) أى : أن كل طائر يحاول أن ينال منه شيئا فى سرعة وخلسة . وكذا الآخر : يحاول وهكذا يظل الأمر وتظل المحاولة من الطير ، وكذلك حال المتذبذب ، متى لاح له خيال أو وهم اتبعه وترك ما كان عليه . فيبقى حالة على هذا النحو من تجاذب أهوائه وتوزع فكره ، فلا استقرار عنده ولاثبات على شيء . وأما القسم الآخر : فمصر على الكفر مستقر فيه ، وقد شبه بمن ألقته الريح فى واد بعيد عميق بحيث لا يدرى عن أمره شيء إذ هو ليس فى مكان بعيد فحسب بحيث يمكن أن يتوصل إليه ، ولو بجهد ومشقة . وإنما هو فى مكان متناه البعد ، كما أنه مستور ، فلا تراه عين فكيف يدرك أمره ، وهذه المعانى كلها من وراء إيثار التعبير بلفظ : (سحيق) دون : بعيد . وعلى ذلك فإن تفسير من فسر (سحيق) بمعنى البعد : إنما هو إيضاح للمعنى على جهة العموم . وإلا فإن بين اللفظين فرقا بينا ، ولكون هذا التمثيل مما لا تجر العادة بمثله ، كما أن فيه إسنادا إلى الطير والريح بما هو غير مألوف : أتى لفظ الطير والريح فى هذا التمثيل بلفظ التعريف . وفى ذلك رمز إلى أن ذلك الطير ، وتلك الريح : معلم ومعروفه منه تعالى ، فهو ليس طيرا من أى طير ، ولا هى ريح من كل ريح ، وإنما ذلك طير مهيأ منه تعالى لهذا الأمر ، كما أن تلك ريح خصت من قبله تعالى بهذا الشأن ، فلا غرابة إذن فى هذا الخيال المعبر ، وإن خرج عن العرف والمألوف .

كما يلحظ فى إيثار مادة : (خر) وهى وإن كانت بمعنى السقوط ، إلا أن الساقط من السماء : مقابل بطبقات الريح تدافعه ، ولكنه ملقى من مكان شاهق فينتج عن ذلك شبه صفير ، فكان لفظ (خر) بكل تلك المعانى أتم وأنسب . كما أن لفظ الهوى مع الريح أوفق للدلالة على مصاحبة من تهوى به إلى حيث المكان المقدر سقوطه فيه ، وهنا يلحظ حسن موقع الباء الدالة على المصاحبة فى : (تهوى به الريح) . إذ هى دالة على عدم إفلات من تهوى به الريح بل هى لا

تفارقه ، وهو معها لا يستطيع الفكاك عنها . كما أن التعبير بالمضارع فى جانب خطف الطير ، وهوى الريح : أدل على معنى تكرر ذلك الحال وتجدده ، وذلك أبلغ فى تصوير المراد .

ثم عاد من بعد ذلك النظم الحكيم إلى التذكير بحرمة شعائر الله والتحريض على صيانتها . فجاء قوله : **(ذلك ومن يعظم شعائر الله ..الآية)** .

وشعائر الله : لقب لمناسك الحج . وعلى ذلك فمضمون هذه الجملة أخص من مضمون جملة : **(ومن يعظم حرمات الله)** . وذكر الأخص هنا بعد الأعم : للاهتمام .

وضمير : (فإنها) عائد إلى شعائر الله المعظمة فيكون المعنى : فإن تعظيمها من تقوى القلوب . وإضافة : (تقوى) إلى : (القلوب) لأن تعظيم الشعائر : اعتقاد قلبى ينشأ عنه العمل .

وفى إيراد النظم الحكيم من بعد جملة : **(لكم فيها منافع ..إلى آخره)** :ما يؤيد تفسير الشعائر بالهدى . فتلك الجملة حال من : (شعائر الله) والأجل المسمى : هو وقت نحرها . والمحل بمعنى : بلغ المكان واستقر فيه . وهو كناية عن نهاية أمرها . كما يقال : بلغ الغاية . ونهاية أمرها : النحر أو الذبح .

وقد جاء فى قوله تعالى : (ثم محلها إلى البيت العتيق) ما يعرف فى البديع برد العجز على الصدر . بإعتبار مبدأ هذه الآيات وهو قوله تعالى : **(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت)** .

وهذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة فى شتى الأمم ، وإنما يوجهها الإسلام الوجهة الصحيحة ، حيث يتوجه بها إلى الله تعالى وحده دون شريك .

يقول عز وجل : **(ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والبدن جعلناها لكم**

من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) (٣٤ - ٣٧) .

أي : شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم أن يتنسكوا إلى .
أي: يذبحوا لوجه تعالى على وجه التقريب فيذكروا اسم الله تعالى عليها خاصة .
ثم فرع على هذا الانفراد بالوحدانية في قوله : (فإلهكم إله واحد فله أسلموا) . أي : إذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا ، فقد نبهكم بذلك على أنه إله واحد ، إذ لو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة .

ثم صرف الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - آمرا إياه بإبلاغ البشرى منه تعالى لمن تواضع له وخشع واستجاب ظاهره وباطنه لمطلوبات التكاليف، فهو يؤديها على وجهها من كمال اليقين وتمام الرضا : (وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ..إلى آخره) والمخبت الذي لا تكبر عنده ، وأصله كما قال الراغب : نزول الخبت وهو المطمئن من الأرض(١) ، ثم استعير هذا الوصف للمتواضع ، كأنه سلك نفسه في الانخفاض ، مبالغة في لين جانبه . والمراد بهم هنا : المؤمنون . لأن التواضع من شيمهم ، كما أن التكبر من سمات المشركين، قال تعالى : (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)(٢) .

وقد أتبع الحق تعالى صفة المخبتين بأربع صفات ، حثا للمؤمنين على تحصيلها والثبات عليها ليصلوا بها إلى مرتبة المحسنين .

وهذه الصفات : وجل القلوب عند ذكر الله تعالى ، والوجل الخوف المشوب بخشية وإجلال ، والأمر الآخر : الصبر على المكاره في سبيله تعالى ، لا عن عجز ولا ضجر . وإنما هو صبر المؤمن المطمئن قلبه إلى أن وراء كل مكروه حكمة ، وهذا معنى : (والصابرين على ما أصابهم) ، ولا يخفى حسن موقع وصف الصبر هنا ، فإن مناسك الحج محفوفة بضروب من المشاق ، والوصف الثالث : إقامة الصلاة . ولعل التنبيه على ذلك في هذا السياق . لأن السفر مظنة للتقصير في

---

(١) مفردات الراغب ص (٢) سورة غافر الآية : ٣٥ .

أدائها ، أو إقامتها على وجهها الأكمل . وآخر هذه الصفات : الإنفاق مما أنعم الله به عليهم فى وجوه الخير ، وهذا يناسب حال الحج وما فيه من هدى قصد به سد حاجة المحتاجين ولذا مضى النظم الحكيم بعد ذلك يتحدث عن أحوال ذلك الهدى والغرض الأصيل منه **(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ..** الآية) .

وهكذا يربط الإسلام بين العقيدة والشعائر ، فهى منبثقة عن العقيدة ، وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها .

والبدن : جمع بدنة ، وهى : البعير العظيم البدن . مأخوذ من البدانة ، وخص البدن بالذكر لأنها أفضل فى الهدى لكثرة لحمها .

ومعنى كونها : **(من شعائر الله)** : أنه تعالى جعلها معالم لتؤذن بالحج ، وجعل لها حرمة ، ويقرر النظم الحكيم أن الله أراد بها الخير لهم ، فجعل فيها نفعا وهى حية تركب وتحلب ، وهى ذبيحة : تهدى وتطعم فينبغى أن يقابل ذلك النفع والخير منها بذكر إسمه تعالى شكراً له واعترافا بفضله : **(فاذكروا اسم الله عليها صواف)** أى : ليكن ذكركم هذا على وجه الإخلاص ، هذا على تفسير كلمة صواف بالإخلاص ، فهى جمع : صافية ، والأولى أن تكون بمعنى أن هذه الإبل مصفوفة للذبح ، والحكمة فى إصفافها : ظهور كثرتها للناظرين فتسر بذلك نفوس المحتاجين ، ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا ، كما فى تلك الحال ظهور لمعنى التكبير وإعلاء اسم الله تعالى . فإن إيقاف الناس أبلهم للنحو مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة : مما يزيد الموقف هيبة وجلالا ، إذ هو رمز لاستجابة أهل الإيمان جميعا لإحدى شعائر دينه ومناسك الحج. وليس المقصود من أمر الذبح على تلك الحال مجرد تحصيل الفعل دون إخلاص النية ، وإنما المراد صدق التوجه فيما يقبل عليه المؤمن من أوامر التكليف ، وهذا لا يكون إلا عن قوة اليقين بالله تعالى حتى تصير شرائعه وشعائره عقيدة فى القلب راسخة ، تصدر عن وعى ورضى وتسليم . **(فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر)** ومعنى وجبت جنوبها ، أى : سقطت إلى الأرض وسكنت عن الحركة وهو كناية عن زوال الروح ، والقصد من هذا التوقيت : المبادرة بالانتفاع بالهدى إسراعا إلى الخير الحاصل من ذلك فى الدنيا بإطعام الفقراء

المحتاجين ، القانع منهم الذى لا يسأل ، والفقير : المعتر الذى يتعرض للسؤال ، وهذا معنى القانع والمعتر ، وقد ذكروا أن الأمر فى الوصفين على العكس ، فإن القانع هنا مأخوذ من القنوع وهو التذلل . لا من القناعة وهى التعفف ، وعلى هذا فالقانع : المحتاج الذى يسأل ليسد حاجته . والمعتبر . من يحضر موضع العطاء تعريضا بحالة من غير تصريح بطلب العطاء وعلى أية حال: فقد تحقق بالوصفين استيعاب حالتى الفقراء ، سواء من سأل منهم أو تعفف .

والمؤمنون حين يؤمرون بالذبح والنحو : **(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها الآية)** فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله تعالى ، إنما تصل إليه : تقوى القلوب وصدق إخصلاصها . لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم بدماء الأضحيات على طريق الشرك المنحرف عن الحق ، ففى هذه الجملة : إشارة إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم : ليسا مقصودين بالتعبد فى ذاتهما ، ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدى ، كما أن فى ذلك الفعل رمزا لاستجابة أهل الإيمان وإقبالهم على أوامره وامتثالهم لها عن يقين وإذعان . ومن هنا يحصل لهم بهذا منافع أخرويه ، وذلك هو ثواب الله تعالى لهم ، فجمعت بهذا تلك الشعيرة بين خير الدنيا للفقراء ، وخير الآخرة للمؤمنين القائمين بتلك الشعيرة .

ثم يمضى النظم الحكيم : **(كذلك سخرها لكم لتكبروا الله .. إلى آخر الآية)** . وهذه الجملة . وإن كانت فى الظاهر تكريرا الجملة : **(كذلك سخرناها لكم)** فى الآية السابقة إلا أن الغرض من إعادة الذكر أن يبنى عليها التنبيه على أن الثناء على الله الذى سخر ما يقدمونه للهدى : هو رأس الشكر المنبه عليه فى الآية السابقة فوقع بالتكرار : التوكيد . وكأن المعنى : تشكروا الله على هدايته إياكم لشعائر دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر(١) .

ويلحظ ختم الآية الكريمة بخطابه - صلى الله عليه وسلم - بتبليغ البشرى إلى المحسنين من أهل الإيمان : **(وبشر المحسنين)** وفى التعبير بوصف الإحسان هنا إشارة إلى أن المؤمنين المتمثلين لتلك الصفات التى سبق ذكرها صاروا بها الى رتبة الإحسان الذى هو فوق رتبة الإيمان - والله أعلم .

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٥ .

وتلك الشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع أولئك الذين يصدون عن سبيل الله . وعن بيته الحرام ويمكن كذلك المؤمنين من مزاولة التكاليف تحقيقا لمنهج الحياة على نحو ما أراد سبحانه وتعالى ومن هنا كان إذنه تعالى لأهل الإيمان بالقتال جهادا . ومن قبله عز وقدر ضمان ووعد صدق بالنصرة والمؤازرة يقول سبحانه وتعالى :(**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**) . (٣٨ - ٤٠) .

فحيث بين الله تعالى فيما سبق مناسك الحج وما فيه من منافع فى الدنيا والآخرة وكان قد سبق ذلك إخبار منه تعالى بعد أهل الكفر . أتبع بما يزيل الصد ويكون معه التمكين من أداء المناسك . وعلى ذلك فإن قوله سبحانه :(**إن الله يدافع ..إلى آخره**) كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على الصد .

وعلى هذا فالكلام متصل بقوله تعالى : (**إن الذين كفروا ويصدون.**)(١) وما وقع بين الكلامين من ذكر الشعائر مستطرد لمزيد تهجين فعلهم وتقبيحهم لازدياد قبح الصد بازدياد تعظيم ما صدوا عنه .

ويمكن اجراء أمر المناسبة على أن هذا الكلام استئناف بيانى جواب لسؤال يخطر فى نفوس أهل الإيمان ينشأ من قوله تعالى : (**إن الذين كفروا ويصدون .**) فقد توعد سبحانه المشركين على صدهم بالعذاب الأليم كما بشر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة، وطال الكلام فى ذلك بما تشوقت معه نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم فى الدنيا . وهل

---

(١) سورة الحج الآية ٢٥ .

ينتصر لهم من أعدائهم فيها أو يدخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة . فكان المقام مقتضيا تطمين نفوسهم بأنه تعالى كما أعد لهم النعيم المقيم فى الآخرة هو أيضا مدافع عنهم فى الدنيا وناصرهم .

والمخاطبون بهذه الجملة : المؤمنون فتصديرها بحرف التوكيد (إن) : لمجرد تحقيق الخبر وابراز الاعتناء التام بمضمونه أو يجرى ذلك على مقتضى تنزيل غير المتردد منزلة المتردد لامتداد زمان انتظارهم وشدة توقهم ذلك الإذن واستطبائهم النصر .

وقراءة جمهور السبعة (يدافع)(١) على صيغة المفاعلة . إما للمبالغة أو للدلالة على تكرار الدفع . فإن تلك الصيغة قد تتجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين . فيبقى معه معنى التكرار فقط كالممارسة أى : إن الله تعالى يبالغ فى دفع كيد المشركين الذى من جملته الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام . مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما يتجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمؤمنين .

يقول صاحب الكشاف توجيها لمجىء التعبير على تلك الصيغة لأن المعنى (يبالغ فى الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المبالغ يجىء أقوى وأبلغ)(٢) .

ونقل أبو حيان عن ابن عطيه فى وجه حسن تلك الصيغة هنا : لأنه قد عنّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم . فتجىء مقاومته ودفعه مدافعة عنهم)(٣) .

وأما على قراءة الباقين (يدفع)(٤) فعلى الأصل .

وبعضهم خاض فى الترجيح بين القراءتين، والحكم باستحسان المعنى على هذه أو

---

(١) السبعة فى القراءات ص٤٣٧ .

(٢) الكشاف ج٣ ص١٥ .

(٣) البحر المحيط ج٦ ص٢٧٣ .

(٤) السبعة فى القراءات ص٤٣٧ .

تلك(١) بما لا ينبغي مجاراته . إذ مع كل قراءة دون ريب معنى ومغزى يرجح لها وتحسن به مادامت واردة بطريق التواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قرأ على وفق ما أنزل عليه من الله تعالى .

ويلحظ حذف مفعول الدفع إيجازا . بدلالة المقام عليه من كونه تعالى إنما يدفع بأس المشركين فلذلك جاء قوله تعالى من بعد : **(إن الله لا يحب كل خوان كفور)** فنبه بهذه على أنه سبحانه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا وصفه وفى البحر أنه لم يذكر ما يدفعه سبحانه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم(٢) . وإن كان السياق والمقام يبين المراد فى الحقيقة .

والتعبير بالموصول : لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر . وأن دفع الله تعالى عنهم لأجل إيمانهم . كما ألمح فى سلك هذا الطريق فى التعبير عن أهل الإيمان أن الله تعالى قد ضمن النصر لهؤلاء حيث إنهم قد آثروا الإيمان فصاروا إليه بعد ما كانوا .

ثم يأتى قوله تعالى :**(إن الله لا يحب كل خوان كافور)** تعليلا للوعد الحق بالنصر . فإنه تعالى(لا يحب أعدائهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول . ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها)(٣) أو يجعل ذلك تعليلا لما فى ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين . وايذانا بأن دفعهم بطريق القهر والخزى(٤) .

ومادام ذلك الوعد محققا بأداة التوكيد فهذ الوعيد أيضا محقق فليبرز فى معرضه فجرى على سنن التوكيد كذلك .

ولقصد مزيد المبالغة فى أمر الوعيد كان اظهار الاسم الأعظم عدولا عن ظاهر الحال حيث كان ظاهر المقام للإضمار لسبق ذكر اللفظ الجليل فى جملة الوعد .

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٢٧٣ .

(٢) السابق نفس الصفحة .

(٣) الكشاف ج٣ ص١٥ .

(٤) روح المعانى ج١٧ ص١٦١ .

وقد أوثر التعبير بنفى المحبه :(لا يحب) عن صريح لفظ : يبغض ونحوه : تنبيها على مكان التعريض بأن المؤمنين المدافع عنهم هم آحباؤه تعالى .

ولفظ (كل) اسم وضع لضم أجزاء الشىء على جهة الاحاطة من حيث كان لفظه مأخوذا من لفظ (الإكليل) والكلة . والكلالة . مما هو للاحاطة بالشىء . وقد يراد به الانضمام لذات الشىء وأحواله المختلفة . والغرض حينئذ افادة معنى التمام كقوله تعالى :**(ولا تبسطها كل البسط)**(١) . أى : بسطا تاما . كما قد يراد بها : انضمام الذوات . وهو المفيد للاستغراق أى : شمول الحكم لسائر أفراد المتحدث عنه اثباتا نظير قوله تعالى **(وكل فى فلك يسبحون)**(٢) أو نفيا كما هو حال هذا التركيب :**(إن الله لا يحب كل خوان كفور)** حيث أفاد (كل) فى سياق النفى عموم نفى محبة الله عن جميع الكافرين إذ لا يحتمل المقام غير ذلك . ولا يتوهم من قوله **(لا يحب كل خوان)** . أنه يحب بعض الخوائين. وعلى ذلك يرد على عبد القاهر اطلاقه الحكم فى أن كل تركيب سبق النفى فيه لفظ العموم يفيد أن بعضا كان وبعضا لم يكن . ووضع تلك القاعدة وضعا قاطعا من غير أن يحتاط لما عساه يكون قد جاء فى الكلام البليغ على خلافه . ولئن تيسر للإمام تطبيق ما رآه على كثير من الاستعمالات البلغية فى المنظوم والمنثور . فقد ورد كثير مما هو أبلغ نظير قوله تعالى **(والله لا يحب كل مختال فخور)**(٣) **(والله لا يحب كل كفار أثيم)**(٤) .

والحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى لأن هذه الآيات ومثلها فى القرآن كثير ، تقدم فيها النفى على (كل) وهذا يعنى لو سلمت القاعدة على اضطراد : أن الله سبحانه لا يكره كل خوان كفور . وإنما يكره البعض ومثله كل كفار وكل مختال إلى آخره . وهو مما لا يكون .

وقد سبق للسعد أن استدرك على الشيخ بما لا يخرج عما أوضحناه .

والخوان : الشديد الخون . والخون كالخيانة الغدر بالأمانة . والمراد ما عليه حال

---

(١) سورة الاسراء الآية ٢٩ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٣٣ .

(٣) سورة الحديد الآية ٢٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٧٦ .

الكافر لأن الكفر خيانة لعهد الله الذى أخذه على سائر المخلوقات يوم خلقهم بأن يوحدوه وجعل ذلك فى الفطره. كما أبلغه الناس على ألسنة الرسل عليهم السلام.

وأما الكفور فشديد الكفر حيث تعدد كفر هؤلاء وتجدد منهم مع كثرة نعم الله تعالى عليهم وكثرة الأدلة على صدق الهيته سبحانه .

ودفاع الله تعالى عن أهل الإيمان يكون تارة بمباشرتهم قتال أهل الشرك وتأييد الله لهم ولذا جاء قوله تعالى (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**) .

وسواء قراءة (أذن) بالبناء على صيغة المعلوم أو قراءة (أذن) على صيغة المبنى لغير المعلوم(١). فإن الفاعل على كل حال متعين بحيث لا ينصرف الذهن لغيره سبحانه . كما أن المأذون فيه معلوم من الحال التى كان عليها المؤمنون . فقد كانت نفوسهم متعلقة بأن يؤذن لهم فى قتال أولئك المشركين . ومن ثم آثر النظم الحكيم طى كل من الآذن . وهو الله تعالى . والمأذون فيه وهو القتال ايجازا لدلالة الحال والسياق على المراد . ثم إن فى ذكر لفظ (يقاتلون) ما يعين المراد المأذون فيه . كما أن المراد بمن أسند إليهم فعل القتال : المؤمنون وذلك على قراءة (يقاتلون) بالبناء للمجهول أو على قراءة البناء للمعلوم(٢) . غير أن المراد من القتال يختلف.

فعلى قراءة البناء للمجهول فالمراد : القتال المجازى من نحو ما كان يفعله المشركون بالمسلمين من نحو الأذى والطرد والتعقب لأثارهم .

وأما على قراءة البناء للمعلوم . فالمراد التهيؤ والاستعداد . أى : أذن للذين تهيئوا للقتال وانتظروا إذن الله تعالى به .

وقد نقل الفخر عن الفراء والزجاج أن المراد (أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين فى المستقبل)(٣) . وإن كنت أرى فى دلالة فعل القتال على الحال مزيد تصوير ودلالة على شدة تهيؤ وحرص تلك الفئة المؤمنة لتلقى الإذن حتى

---

(١) كتاب السبعة ص٤٣٧ . (٢) السابق نفس الصفحة .

(٣) تفسير الفخر ج٢٣ ص٤٠ .

لكأنهم باشروه ساعة الإذن به لتشوق نفوسهم إليه . وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المؤمنين أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فأنى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى أكثر من سبعين آية.

والباء فى : **(بأنهم ظلموا)** : إما أن تكون متعلقة بفعل الاذن لتضمنه معنى الاخبار . أى : أخبرناهم بأنهم مظلومون . وهذا الاخبار كناية من الإذن للدفاع . لأنك إذا قلت لغيرك :إنك مظلوم فكأنك استعديته على ظالمه وذكرته بوجب الدفاع . وقرينة ذلك تعقيبه بقوله سبحانه :**(وإن الله على نصرهم لقدير)** .

وإما أن تجعل الباء سببية كما هو مذهب أكثر المفسرين أى : أذن للمسلمين فى القتال بسبب ما وقع عليهم من ظلم .

وجملة **(إن الله على نصرهم لقدير)** وعد للمسلمين بالنصر وتأكيد لما مر من العدة بالمدافعة عنهم وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدى المشركين . بل تغليبهم . وإظهارهم عليهم . وقد أخرج الكلام على سنن الكبرياء. فإن الرمزة والابتسامة من الملك الكبير كافية فى تيقن الفوز بالمطلوب فما الحال وقد برز الكلام هنا من العظيم القادر سبحانه على هذا النحو من بليغ التوكيد زيادة فى توطين نفوس المؤمنين .

ثم إنه تعالى لما ذكر أنه أذن لأهل الإيمان فى القتال ، وضمن لهم النصر لما لحقهم من ظلم : أعقب ببيان وجه ذلك الظلم الواقع عليهم فقال : **(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)** .

فقد بين النظم الحكيم ذلك الظلم بهذين الوجهين :

أحدهما : أنهم أخرجوا من ديارهم . والثانى أن أولئك الكفرة قد أخرجوهم بعلة أنهم قالوا ربنا الله . وكل من الوجهين على انفراده عظيم فى الظلم فكيف حال الظلم مع اجتماع الآمرين **(فقد أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين ، لا موجب الإخراج والتسيير)** (١) .

----

(١) الكشاف ج٣ ص١٦ .

وفى اجراء هذه الصلة على المؤمنين إيماء إلى أن المراد بالمقاتلة المذكورة فى الآية الكريمة السابقة ما كان يلحق بالمسلمين من أذى وذلك واضح على قراءة فعل المقاتلة على البناء للمجهول على ما سبق ايضاحه .

وهذا الأذى يدخل فى باب الفتنة إذ كان القصد به ارتداد من آمن (والفتنة أشد من القتل)(١) .

وقوله (بغير حق) فى موقع الحال من ضمير (أخرجوا) أى : أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم الموجب اخراجه .

والاستثناء فى قوله : **(إلا أن يقولوا ربنا الله)** استثناء من عموم الحق ولما كان المقصود من الحق هنا ما يوجب الإخراج . أى : الحق عليهم . كان هذا الاستثناء مستعملا على طريقة الاستعارة التهكمية . أى : إن كان عليهم حق فهو قولهم : ربنا الله ، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ما قد يتخيل أنه حق عليهم . وهذا من تأكيد الشىء بما يوهم نقضه وهو ما يعرف عند أهل البديع بتأكيد المدح بما يشبه الذم . ولهذا الضرب فى سياقه ومقامه بلاغته لكونه كدعوى الشىء ببينة ، ولكونه كذلك يوهم أول الأمر وقبل تمام الكلام خلاف ما هو الغرض حتى إذا ما تم الكلام علم الغرض المراد على الوجه الآكد والأبلغ . ومثله **(هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله)** (٢).

وحيث كان منه تعالى الإذن للمسلمين بالجهاد كان الحث والتحريض على تحصيله . وهذا مراد قوله سبحانه :**(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع .. الآية)** فهذا تحريض منه تعالى على القتال المأذون فيه وأنه تعالى أجرى العادة بذلك فى الأمم كى يتنظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من التهدم وأهلها من القتل والشتات . وكأنه تعالى لما قال:**(أذن للذين يقاتلون)** فيما قبل بقول هنا : فليقاتل المؤمنون . فلولا القتال لتغلب على الحق فى كل أمة وزمان وذلك نظير قوله تعالى :**(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)**(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ١٩١ . (٢) سورجة المائدة : ٥٩ . (٣) سورة البقرة :٢٥١

وقد ذكر صاحب الكشاف فى توجيه المعنى احتمالين .

أحدهما أن المراد (دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين فريق بالمجاهدة ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها . ولم يتركوا للنصارى بيعا . ولا لليهود صلوات . ولا للمسلمين مساجد) . وعلى ذلك فالتعريف فى (الناس) تعريف الجنس . فتكون هذه الجملة تذييلا لجملة : **(أذن للذين يقاتلون)** أى: أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال كما أذن للأمم قبلهم . لكيلا يطغى عليهم المشركون .

والتوجيه الثانى : لولا ذلك الدفاع «لتغلب المشركون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين»(١) وعلى هذا التوجيه فذكر الصوامع والبيع : إدماج قصد به حث أهل الكتاب على تأييد المسلمين . فالتعريف فى الناس على هذا الاعتبار : تعريف العهد : أي : الناس الذين يقاتلون وهم المسلمون ومشركو أهل مكة خاصة .

ومع صحة الحمل على الوجهين وسلامة المعنى عليهما إلا أن النفس إلى الأول منهما أميل لكون المعنى عليه أملأ ، ولكونه بخصوص سياقه أنسب حيث ذكر معه ما يعم متعبدات الأمم على اختلاف أزمنتهم وشرائعهم .

وإضافة الدفع إلى الله تعالى على طريق التجوز العقلى لأنه حيث أذن للناس بأن يدفعوا عن متعبداتهم . فكأن إذنه سببا فى الدفع .

وعلى قراءة أكثر السبعة (لهدّمت) بالتضعيف(٢) . فالمعنى على قصد المبالغة فى الهدم . أى : لهدمت هدما مبالغا فيه إذ هو ناشىء عن فرط غيظ وعدوان ، بحيث لا يبقون لتلك الأماكن أثراً وهذا يتسق وغرض التحريض والحث . على القتال المقصود من الكلام ففى هذا مزيد بعث على الدفاع الذى لولاه لكان ذلك التهديم على هذا النحو المبالغ فيه .

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٦ . وفى تعبير الزمخشرى كزازة وفظاظة حيث جعل «المشركين من أمة محمد» والأولى والأجدر أن يقول «المشركين» عامة أو «المشركين إبان حياة الرسول» .

(٢) كتاب السبعة ص٤ .

وقد يقـال : بل التضعيف مـراد به الكثرة ، وذلك لتعدد متعلق الهـدم على النحو المفصل فى النظم الحكيم . لكن لا يخفى كون أول التوجيهن أقرب . إذ هو أمس رحما بالمقام والغرض الداعى إلى مزيد المبالغة فضلا عن إيثار مادة الهدم فى ذاتها إذ تدل على معنى تقويض الشىء وتسقيطه بحيث لا يبقى له غرضه .

ومع كثرة ما ذكروا ما أثر فى توجيه المراد بتلك المتعبدات الواردة فى هذا النظم الكريم إلا أننا نختصر على ما هو أليق بالمعنى والسياق .

فالصوامع : جمع صومعه : بناء مرتفع يصعد إليه بدرج كان الرهبان يتخذونه متعبدا لكونه أبعد عن مشاغلة الناس إياهم(١) .

والبيع : جمع بيعة : متعبد النصارى(٢) ولا يعرف أصل اشتقاقها . ولعلها معربة . ولا يختص برهبانهم كالصومعة . وبهذا يفهم وجه العطف بينهما .

وأما الصلوات فعلى ظاهر السياق وما عليه كثير من أهل التفسير أن المراد بها كنائس اليهود(٣) . ومع ذلك فقد بدا ابن جنى كأنه غير ملتفت إلى كون تلك اللفظة هنا عبرانية بل هى عنده عربية الأصل وهى بمعنى الصلوات المعهودة فى عرفنا وإن أريد بها فى هذا السياق المساجد وهى على حذف المضاف . أى : مواضع الصلوات(٤) .

ولا يخفى أن عطف صريح لفظ المساجد على الصلوات يعكر صفو هذا التوجيه وأما المساجد : فجمع مسجد مكان عبادة المسلمين .

ولعل تخصيصه بهذا الاسم اعتناء بشأن ما اشتق منه حيث إن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وليس لاختصاص السجود بصلاة هذه الأمة فإن مثل قوله تعالى **(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين)**(٥) يدفعه .

---

(١) المفردات للراغب ص٢٩٠ . (٢) تفسير غريب القرآن ٢٩٣ .

(٣) تفسير غريب القرآن ص٢٩٣ .

(٤) المحتسب ج٢ ص٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية ٤٣ .

ولعل الغرض من تأخير المساجد ذكرامع أن ظاهر الحال التقديم لشرافتها مراعاة الترتيب الوجودى الزمنى وهذا ألصق بحقيقة الغرض من الكلام على نحو ما وضح. أو يقال إنما أخرت المساجد لتقع فى جوار مايفيد مدح أهلها فقد أعقبت بما يفيد هذا المعنى . بل قد بلغ الأمر عند بعض أهل العلم حدا يكشف عن عظيم الإحساس بمواقع الألفاظ ودلالاتها ، وما ينبىء كذلك عن صدق الشعور الدينى لديهم حيث فهموا تأخير لفظ مساجد لقصد تبعيده عن قرب لفظ التهديم . وهذا فيما أفهم ورع فى الفهم إن جاز هذا التعبير .

وأما تأخير : صلوات على : بيع على خلاف الترتيب الزمنى فلعل الفرض ؛ المناسبة بين لفظ الصلوات وبين المساجد .

وعلى كل حال فإن مراعاة الترتيب الوجودى فى ذكر تلك المتعبدات أنسب بالسياق مما قيل : إنه روعى معها أمر الأشرفية . فقد بدأ النظم الحكيم بما هو شريف فعطف ما هو أشرف منه ثم انتهى إلى ما هو أشرف من الجميع فأمر الترتيب على هذا الاعتبار جار على الطريق المعروف عند أهل هذا الشأن بأسلوب الترقى ولهذا الوجه من البيان القرآنى بلاغته . ومع صحة المعنى عليه فى هذا السياق واقعا . لكن الأصح والأنسب بهذا المقام مراعاة ما كان وقوعا

والمتبادر جعل قوله تعالى **(يذكر فيها اسم الله كثيرا)** وصف لمساجد خاصة . لكن المأثور عن كثير من مفسرى السلف عود الوصف إلى جميع ما ذكر من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد . فهى جميعا معاد ضمير (فيها) . واستظهر ذلك أبو حيان بناء على أن الغالب فى الوصف الوارد بعد متعدد رجوعه إلى كل منها . ولا ينافى ذلك انتساخ الذكر فيما عدا المساجد لكن يبقى على أية حال من وراء تعقيب المساجد بهذا الوصف معنى ومغزى لا ينبغى أن يفوت متذوق القرآن الكريم فهما وتفسيرا فلإن كان قد ذكر الله تعالى فى متعبدات تلك الأمم التى نسخت شريعتها فهو تعالى لا يزال وسيظل يذكر اسمه فى المساجد إلى ما شاء الله .

وهنا يلمح حسن موقع المضارع :(يذكر) فقد دل على استحضار صورة ذلك الذكر الذى كان ومضى فى تلك المتعبدات وهو دال كذلك على حصول هذا الذكر

حالا ومستقبلا فى متعبد هذه الأمة .

أرأيت كيف دل المضارع على ما كان ووقع استحضارا لصورته وجعلها بمشهد من التحدث معهم ، ثم دل أيضا على أصل معناه من الوقوع فى الحال والاستقبال فيما هو كائن ويكون من أهل الايمان الحق الناسخ لما سبق . وهذا فيما أعلم ضرب من الاستعمال فريد وعجيب . إذ لم أقع على مثله فى منظوم أو منثور كما لم أقرأ لأحد التنبيه عليه فلعل الله تعالى جاعل له نصيبا من التوفيق والقبول .

ثم إن فى وصف الذكر المفهوم من فعل (يذكرون) بالكثرة مفيداً معنى الدوام والاستمرار لاستغراق الأزمنة فإن أهل كل دين سماوى يذكرونه تعالى كل فى زمانه وأيضا لإفادة معنى المداومة من الذاكرين على حد قوله سبحانه خطابا لهذه الأمة : **(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا)** (١)

وبعد أن أذن الله سبحانه للمسلمين فى القتال وحضهم عليه أعقب بمزيد توكيد وعده تعالى لهم بالغلبة وذلك قوله **(ولينصرن الله من ينصره)** .

أى : أمر الله تعالى المسلمين بالدفاع عن دينهم وضمن لهم النصر فى ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم هذا ينصرون دين الله فالكلام على طى مضاف معلوم من السياق . فما داموا ينتصرون لدين الله تعالى فكأنهم ينصرون الله سبحانه ولذلك أكد النظم الحكيم بلام القسم ونون التوكيد لاقتضاء أمثال باب الوعيد له .

وهذه الجملة : فى موقع التذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين المخرجين من ديارهم والمأذونين بالدفاع وكذا أمثالهم . ولقد أنجز تعالى وعده لهم حيث سلط الصحابة والأتباع والسلف الصالح من هذه الأمة على صناديد العرب وأكاسرة الفرس وقيـاصرة الروم ، ودعـاة الصليب من الإفرنج وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم إلى أن خلف من بعـد ذلك خَلْفٌ ضيعوا فصار بهم الحال إلى ما لا يزال أمره ماثلا .

ولقصد المبالغة فى توكيد الوعد بالنصرة أكثر اختتم هذا النظم الحكيم بقوله تعالى **(إن الله لقوى عزيز)** فهذا تعليل للجملة السابقة أى: كان نصرهم مضمونا . لأن ناصرهم سبحانه قدير على ذلك بالقوة والعزة

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤١ .

والجمع بين وصفى القوة والعزة لإفادة معنى تمام النصر . فهو تعالى القوى القادر . فوصف العزة فيه معنى امتناع غيره تعالى عن أن ينال منه شيئا . فهو تعالى الناصر القادر عليه وهو تعالى عزيز لا ينال ولا يغلب .

وكفاك بإله جامع ما يضمن تحقق الوعد بالنصر وتحقق الوعد بعدم الخذلان جل وعلا .

وفى ذلك مزيد ترغيب فى الجهاد من حيث وعدهم سبحانه بالنصر ثم نبه على أنه قادر على هذه النصرة ، وأنه لا يجوز عليه المنع لما يريد وهو معنى : عزيز لأن العزيز هو الذى لا يضام ولا يمنع عما يريد .

ثم إنه تعالى وصف الذين أذن لهم فى القتال بما ينبىء عن عظم الثناء عليهم لقيامهم على حدود الله تعالى وتكاليفه . فقال عز وجل : **(الذين إن مكناهم فى الأرض .. الآية)** .

فالمراد من جملة الصلة : المهاجرون أصلا . فهذا ثناء عليهم وشهادة لهم بكمال دينهم . فهم الذين أخرجوا من ديارهم فيصير معنى النظم الحكيم : إن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطة ونفاذ القول فإنهم آتون بتلك الأمور الأربعة المذكورة ومعنى **(إن مكناهم فى الأرض)** أى : جعلنا لهم التمكين بإنجاز وعدنا لهم النصر فكان لهم به التمكين .

ولا يمتنع أن تكون هذه الجملة بدلا من اسم الموصول المدلول عليه بمن الموصولة فى قوله تعالى **(من ينصره)** فى الآية الكريمة السابقة . والمراد حينئذ : كل من ينصر الدين من أجيال المسلمين وعلى كل فالكلام مسوق للتنبيه على شكر نعمة النصر بأن يداوموا على الاتيان بما أمر الله تعالى به من قواعد الإسلام . فالكلام وإن كان واردا فى معرض الثناء وابراز المتحدث عنهم على حال الامتثال . فإن من وراء ذلك بعثا وحثا وتحريضا على مداومة القيام بتلك المطلوبات . فإن فى ذلك دوام نصرهم الموعودين به وانتظام عقد حياتهم والسلامة من اختلال أمرهم . فإن حادوا عن السبيل فقد فرطوا فى ضمان نصرهم . وأمرهم إلى الله حينئذ .

وبعد أن أبان تعالى فيما تقدم من نظم حكيم إخراج الكفرة أهل الإيمان من ديارهم ظلما . ورخص للمسلمين قتال أهل الشرك دفاعا . وضمن

للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه القلبة وأكد وبالغ فى ذلك بأكثر من ضرب وطريق . جاء النظم الحكيم بما يجرى مجرى السلوان للرسول صلى الله عليه وسلم . والتسكين لفؤاده الشريف ، والبعث على مزيد الصبر على ما يناله هو وصحبه الكرام من أذى ، وما يقابلون به من جحود ونكران فقال سبحانه وتعالى : **(وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)** (٤٢ - ٤٦).

يقول سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :**(لست بأوحدى فى التكذيب . فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم . وكفاك بهم أسوة)**(١)

وفى سياق الآيات ما ينبىء عن تمثيل هؤلاء الجحده بالأمم السالفة التى استأصلها الله تعالى . وفى ذلك تهديد لهم بالمصير إلى مصيرهم .

ويلحظ حذف جواب الشرط المصدر به النظم الحكيم إيجاز ، لوجود ما يدل عليه، فقد أفاد قوله سبحانه :**(فقد كذبت قبلهم .. إلى آخره)** أن المراد : فلا تجزع لتكذيبهم إياك أو فلا غضاضة عليك فى تكذيب قومك ، أو فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . ونحو ذلك مما يلائم أحوال أمثال ذلك الكلام .

وأكثر أهل التفسير تنبهوا إلى ما يلحظ من طى لفظ القوم مع موسى عليه السلام . حيث جاء النظم الحكيم: **(وكُذِب موسى)** ولو جرى على النسق لقيل: وقوم موسى . نبهوا على أن ذلك لكون موسى عليه السلام لم يكذب من قومه بنى اسرائيل . وإنما كُذب من القبط قوم فرعون . وفيه شىء آخر كأنه قيل بعد ما ذكر من تكذيب كل قوم رسولهم . وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظيم معجزاته فما ظنك بغيره(٢) .

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٦ .

(٢) الكشاف ج٣ ص١٦ . البحر ج٦ ص٣٧٦ روح المعانى ج١٧ ص١٦٥ .

وهذا تخريج لا ريب مقبول وله وجه من الحسن غير أنه يلحظ مع حذف لفظ قوم مع موسى عليه السلام فقد أعيد ذكر لفظ التكذيب معه فجاء النظم **(كذب موسى)** مما دفع ابن المنير إلى إيراد احتمال أنه تعالى لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم . ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول كلام حسن تكريره ليلى قوله تعالى : **(فأمليت للكافرين)** فيتصل المسبب بالسبب كما قال سبحانه فى سورة (ق) بعد تعديدهم : **(كل كذب الرسل فحق وعيد)**(١). فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب بعد أن جدد ذكره. والله أعلم(٢) .

ثم إنه يلحظ كذلك إيثار النظم الحكيم التعبير عن قوم شعيب بأصحاب مدين . والتمس صاحب التحرير لذلك وجها حتى لا يتكرر لفظ القوم أكثر من ثلاث مرات. ولا أكاد أرى لهذا التوجيه مذاقا . فإن الحاكم فى أمر التكرار : الأحوال والمقتضيات . وليس لأمر العدد فى ذلك مدخل . والشواهد لهذا فى القرآن الكريم مبثوثه . ولعل الأقرب أنه لما كان ذكر الأنبياء عليهم السلام ليس هو فى ذاته المقصد وإنما المراد إيراد التكذيب الواقع من أقوامهم عليهم كان التلوين فى النظم الحكيم فذكر بعض الأنبياء عليهم السلام فى صحبة أقوامهم المكذبين إياهم تارة . ويذكر التكذيب الواقع من الأقوام تارة وكذا ذكر اللفظ الدال على القوم المكذبين كما فعل مع قوم شعيب عليه السلام تارة أخرى . وهذا من التلوين والافتنان فى التعبير معروف وله بلاغته .

وقوله تعالى : **(فأمليت للكافرين)** فيه عدول عن ظاهر الحال حيث وضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أن الإمهال لهم ثم إهلاكهم هو الكفر بالرسل وفى ذلك تعريض بالوعيد لمشركى قريش .

والإملاء ترك المتلبس بالكفر دون تعجيل عقوبته وإمهاله استدراجا حتى يحسب أنه بمأمن فيزداد فى طغيانه إلى أن يحل عليه العذاب بغتة على وفق ما قدر الله تعالى وأقت .

---

(١) سورة (ق) الآية ١٤

(٢) هامش الكشاف ج٣ ص١٦

والفاء فى : فأمليت للكافرين : دلالة على أن تقدير هلاكهم حاصل من وقت تكذيبهم . وإنما أخر لهم لنحو ما أشرت إليه من قصد الاستدراج . وهو تعقيب موزع . لكل قوم من هؤلاء تعقيب إملائه ولما كان الأخذ والأهلاك حاصل بعد الإمهال بزمان على حسب ما أراد الله وقدر مع كل قوم عطف فعل الأخذ بحرف المهلة (ثم) .

والأخذ : حقيقته : التناول لما لم يكن فى اليد . واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم . ومناسبة هذه الاستعارة وبلاغتها : أن الإملاء لهم يشبه بعد الشىء عن متناولته فشبه انتهاء ذلك الإمهال بالتناول شبه ذلك بأخذ الله إياهم . لظهور قدرته تعالى عليهم بعد وعيدهم .

ومناسبة عد قوم إبراهيم هنا فى عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التى ذكر فيها من أهلكوا من الأقوام حيث لم يذكر فى القرآن أمر تعذيبهم صريحا كما كان الحال مع الأقوام الأخرى لأن قوم إبراهيم عليه السلام أقرب شبها بمشركى قريش فى أنهم كذبوا رسولهم وآذوه وألجأوه إلى الخروج من موطنه **(وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين)**(١) فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من مكة فى قوله تعالى : **(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق)** مناسبا لذكر قوم إبراهيم فى خصوص هذا الموضع .

وأما عطف جملة **(فكيف كان نكير)** بالفاء . فلأن حق ذلك الاستفهام أن يحصل عقب الأخذ .

وكيف : استفهام عن حال الشىء لا عن ذاته ولهذا لا يجوز أن يقال : كيف الله. هذا أصلها فى الوضع . لكن تعرض لها معان تفهم من سياق الكلام أو من قرينة الحال مثل معنى التنبيه والاعتبار على نحو ما يلمح هنا وإن حمله صاحب التحرير على معنى التعجيب (أى : فأعجب من نكيرى كيف حصل . ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا . وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم)(٢) .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٩ .

(٢) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٨٤ .

والنكير : الإنكار الزجرى لتغير الحالة التى عليها من ينكر عليه(١) وكأن مناسبة إيثار : (نكير) فى هذا السياق دون العذاب ونحوه أنه وقع بعد التنويه بالنهى عن المنكر ليتنبه المسلمون إلى تغيير المنكر قدر استطاعتهم ، فإن الله تعالى عاقب على المنكر بأشد العقاب فكما أن فى هذا وعيداً للكفرة ففيه أيضا إشارة وتنبيه إلى المؤمنين .

وحيث اختتم هذا النظم الكريم بما يؤول إلى وعيد أهل الشرك أتى بعده بتفريع يزيد أمر ذلك الوعيد وضوحا لكشفه عما حل بتلك القرى الظالم أهلها . فكان قوله جلت قدرته : **(فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة .. الآية .**

ومحصول المعنى على الظاهر : وكثير من القرى دمرناها على أهلها الظلمة بكفرهم نعم الله عليهم . وكثير من الآبار والقصور عطلت عن سقائها أو أخليت عن ساكنيها .

وهذه الجملة تفريع على جملة **(فكيف كان نكير)** فعطفت عليها بفاء التفريع والتعقيب الذكرى لا الوجودى . لأن اهلاك تلك القرى على هذا النحو مبين لكيفية نكيره تعالى وأخذه إياهم بعد الإمهال فناسب أن يذكر ما هو بمثابة التفسير بعد المفسر بحرف التفريع ثم إن هذا التفريع قد صدر بما يدل على كثرة العدد المتناول للأقوام المذكورين تفصيلا فيما سبق وكذا أمثالهم فإن (كأين) بمعنى كم للتكثير لأنها دالة على العدد قال تعالى **(وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله)**(٢) . وعلى ذلك فلا وجه لما ذكر من كونها بمعنى رب هنا فإن معنى الكثرة أنسب بهذا السياق المراد به الزجر والاعتبار .

وعلى قراءة جمهور السبعة **(أهلكناها)** بالنون الدالة على المتكلمين فالغرض إفادة معنى التعظيم والجبروت المناسب إهلاك تلك القرى الكثيرة على هذا النحو المدمر لها ولمن فيها .

وأما على قراءة أحد السبعة **(أهلكتها)**(٣) بالتاء فذلك على وفاق ما جاء

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٦

(٢) سورة الطلاق الآية ٨

(٣) السبعة فى القراءات ص٤٣٧

عليه فعل الإملاء حيث أسند إلى التاء فى قوله تعالى من قبل : **(فأمليت للكافرين)** وكذا قوله سبحانه من بعد : **(وكأين من قرية أمليت لها)** .

ولك أن تقول ولم كان الإسناد إلى التاء فى هذه المواقع ؟ فحيث كان الإمهال استدراجا من شئونه تعالى الخاصة التى تغيب حكمته على من سواه آثر معه التعبير بضمير الإفراد الدال على تفرده سبحانه بعلم وحكم ذلك الأمر .

والمراد بأهلكناها : إهلاك نفس القرية . ويدخل إهلاك من فيها تبعا لأن العذاب النازل إذا بلغ حد إهلاك القرية فتصير متهدمة فقد حصل بذلك هلاك أهلها. فلا حذف إذن هنا على نحو ما ذكر الفخر من أن التقدير أهلكنا أهلها(١). وآيات القرآن الكريم فى الدلالة على حصول إهلاك القرى على الحقيقة عديدة وصريحة : **(فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم)**(٢) . **(فجعلنا عاليها سافلها)**(٣) كما أن فى خصوص هذا السياق ما يظهر به تحقيق حصول إهلاك القرى . **(فهى خاوية على عروشها)** فالتعبير هنا على طريق التجوز بعلاقة اللزوم .

ثم إن فى ذكر جملة **(وهى ظالمة)** الدال على الحال : مغزى ومعنى دقيق وجليل. فمن ورائه إشارة إلى أن إهلاك تلك الأقوام وعلى هذا النحو المبالغ فيه بحيث دمرت قراهم عليهم . إنما كان وهم متلبسون . بالظلم منغمسون فيه فكان الإهلاك على هذا النحو المقدر لهم من قبله تعالى وحالهم فى الظلم كذلك عدلا منه سبحانه.

ثم إنا نرى التركيب **(وهى ظالمة)** وإنما الظالم على الحقيقة أهلها على حد قوله تعالى **(ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)**(٤) . فالتعبير إذن جار على ضرب من التجوز حيث أسند الظلم إلى القرية دلالة على شيوع وعموم ظلم القوم ساكنيها إلى حد صح معه أن ينسب إلى القرية بما يؤذن عن بليغ الظلم الواقع والمقتضى لحلول ما نزل بساحة تلك القرى الظالم أهلها .

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٤٤ .

(٢) سورة النحل الآية ٢٦ .

(٣) سورة الحجر الآية ٧٤ .

(٤) سورة النساء الآية : ٧٥ .

والفاء فى قوله تعالى : **(فهى خاوية)** فى معنى التفسير والبيان لا التعقيب لأن جعلها على حال الخواء مصاحب للإهلاك وملازم له حقيقة . وقد يفهم الترتيب على معنى إن تمام الإهلاك إنما كان بالخواء على العرش .

ومعنى خاوية على عروشها : أنها لم يبق فيها سقف ولا جدار . ومعنى (على عروشها) إن جدرانها ساقطة فوق سقفها (أى خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف) أو المعنى أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان مائلة فهى مشرفة على السقوف الساقطة)(١) .

وتعطيل الشىء : إبطال الانتفاع به وإن بقى هو فى ذاته نافعا . فالبئر المعطلة : نابعة بالماء وحولها وسائل السقى غير أنها لا يستقى منها لهلاك أهلها وكثير من الآبار النابعة تركت مهجورة .

وقصر مشيد : معطوف على بئر معطلة أى : وكم قصر مرفوع البنيان أو مبنى من الشيد وهو الجص أخليناه عن ساكنيه كما يشعر السياق .

وظاهر التنكير مع كل من (بئر) (وقصر) عدم إرادة معين وإن أثر أو قيل بالتعيين(٢) .

وعلى ذلك فإن محصول المعنى أنه تعالى يبين أن القرية مع تكلف بناء أهلها لها وتنعمهم بما فيها صارت بكفرهم على هذا الوصف ، وكذا البئر التى يأتيهم منها الرزق رغدا ، وكان منها سقايتهم أضحت معطلة فلا شارب ولا وارد ، والقصر الذى أحكموه وطولوه صار خواء فلا ساكن ولا منتفع به أصلا وإنما جعل تعالى إبقاء هذين بمعزل عن التدمير عبرة لمن اعتبر وتدبر على ما فى مثل قوله سبحانه وتعالى **(وإنكم لتمرون عليهم مصبحين)**(٣) .

ومن هنا يفهم وجه الجمع بين البئر المعطلة والقصر المشيد وإخصاصهما بالذكر فهما رمز الحياة والرخاء وطيب العيش الذى كانوا عليه قبل حلول أمر الإهلاك

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٦ .

(٢) روح المعانى ج١٧ ص١٦٦ .

(٣) سورة الصافات الآية : ١٣٧ .

بكفرهم تلك النعم . وعلى القول بدخول هذين فى الإهلاك والتدمير فالقصد من تخصيصهما حينئذ الدلالة على عموم الإهلاك لما علا والقصر رمزه ، ولما سفل والبئر رمزته . والله أعلم بمراده .

ولما ذكر سبحانه حال من كذب الرسل من الأمم الخالية وما حل لهم وقد كان من وراء ذكر ذلك قصد الاعتبار والتدبر . وحيث كان مشركو قريش هم الداخلون تحت هذا المقصود بطريق الأولى وقد كان عند العرب آثار باقية لتلك الأمم الخوالى يمرون عليها مصبحين وممسين ومع ذلك لا تتمكن من نفوسهم العظة ولهذا أعقب الحق بما ينبىء عن الإنكار والتعجيب فى قوله **(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها)** .

والاستفهام المصدر به الآية الكريمة تعجيبى من حالهم فى عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذبة أنبيائها . وهذا التعجيب متعلق بمن سافر منهم ورأى آثار وشواهد ما كان ، وبمن لم يسافر كذلك فإن شأن من سافر أن يخبر القاعدين بعجائب ما شاهد فى أسفاره على ما يشير إليه قوله تعالى أو آذان يسمعون بها كما أشار قوله تعالى : «**قلوب يعقلون بها**» إلى حرمان من سافر النفع والتدبر مما رأى وشاهد فصار بمثابة من ليس بذى قلب ، أصلا .

ومن هنا نزل سفره منزلة العدم فجعل الاستفهام دالا على نفى السير فكان التعجب من انتفائه على خلاف ظاهر مقتضى الحال .

ويفهم من الاستفهام فى هذا السياق كذلك الحث والحض على السير والسفر . وهذا المعنى وإن كان بحال من لم يسافر أليق فهو لائق أيضا بحال من سافر فمادام لم يفد شيأ من سيره الذى كان فليعاود السير والسفر لعله يتذكر . وعلى ذلك فالكلام هنا جار على الفريقين معا وليس كما ذهب صاحب الكشاف من جريان الكلام على احتمال قصد أحد الفريقين(١) . إذا الواقع أن منهم من سافر وشاهد وفاتته العبرة كما أن منهم كذلك من لم يسافر أصلا والكلام عن الجميع . ومن هنا كان الاستفهام بمعنى الإنكار التعجيبى على من سافر ولم يعتبر ولمعنى الحث لمن لم يكن منه سفر ليقع منه فيعتبر .

---

(١) الكشاف ج١٣ ص١٧ .

وإنما ذكر السير لتوقف السفر عليه . وخص السيردون الركوب لكونه أليق بالمراد فمادام الاعتبار والتذكر مقصود السفر أوثر السير لأن من شأن الماشي المهل فيعتبر بما رآه مما نثر من الآثار التي هي موضع الاعتبار على خلاف حال الراكب فإن في الركوب عجلة يفوت معها مقصود السفر هنا .

ولعلك لا تغفل عما في هذا التركيب من إضمار ما عطف عليه السير ونادت به فاء التعقيب إذ المقام يقتضى أن التقدير أغفلوا فلم يسيروا وتلك الغفلة المقدرة حاصلة مع من لم يسافر على الحقيقة وأما مع من سافر فعلى التنزيل كما وضح.

ولما كان الغرض من السير إنما هو التذكير وأخذ العبرة وحال هؤلاء دالة على عدم اعتبارهم نفى عنهم آلة التدبر والتعقل حتى لكأنهم صاروا بغير قلوب وأسماع فجاء قوله تعالى **(فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها)** حيث لم يعملوا قلوبهم فيما خلق القلب له من التدبر والتفكر والنظر فيما ينبغي أن ينظر فيه . فهذا على أن يجعل الذى لا يعى ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كأنه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به . وفاته الذى هو فائدة القلب والمطلوب منه كما جعل الذى لا ينتفع بسمعه ولا يتفكر فيما يؤديه إليه وسماع ما يسمع على فائدته بمنزلة من لا سمع له أصلا .

وعلى ذلك فالقلب هنا كناية عن الخاطر والتدبر نظير قوله تعالى : **(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)** .

وقد وجه صاحب التحرير مراد القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل . لأن القلب هو مفيض الدم . وهو مادة الحياة . على الأعضاء وأهمها الدماغ الذى هو عضو العقل ولذلك قال : **(يعقلون بها)** وإنما آلة العقل هى الدماغ . ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة . ثم أجرى عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال : **(يعقلون بها)**(١) .

وإما تفسير من يفسر القلب هنا على أنه بمعنى العقل فإنه يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة . فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كأن القلب اسم للعقل كما يتوهمه من لا يعرف مخارج الكلام فمحال باطل

---

(١) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٨٨ .

لأنه يؤدى إلى ابطال الغرض من الآية وإلى تحريف الكلام عن صورته وإزالة المعنى عن جهته(١) . إذ لو كان العقل هو مراد القلب على الحقيقة فإن وصف القلوب هنا بما بعده فى قوله تعالى : **(يعقلون بها)** مشكل المعنى .

ومادام الغرض الحث على النظر والتوبيخ على تركه وذم من يغفل عنه ولا يحصل ذلك إلا بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر كأنه ليس بذى قلب وكأنه جماد وكأنه ميت لا يشعر ولا يحسن . لهذا نفى عن هؤلاء القلوب والأذان على هذا الاعتبار وإن كانوا فى الحقيقة أحياء ولهم قلوب وآذان .

وقد ذكرت الأذان مع القلوب هنا لأن الأذن آلة السمع والسائر فى الأرض ينظر آثار الأمم ويسمع آخبار فنائهم ، ثم إن حظ كثير من المتحدث إليهم أن يتلقوا الأخبار من المسافرين إذا هم لم يسافروا .

وفى ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يعلم أن القلوب التى تعقل إنما طريق علمها وتدبرها مشاهدة آثار العقاب كما أشار إليه ما ختمت به الآية الكريمة: **(فإنها لا تعمى الأبصار)** فحصل من مجموع هذا النظم الكريم أنهم بمنزلة الأنعام فإن لهم آلات الاستدلال ومع ذلك انعدمت منهم آثارها . فلهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها فكانوا بهذا كله كالأنعام بل هم أضل .

ولعلك تلحظ ما فى هذا التركيب **(يعقلون بها)** يسمعون بها من الحذف إيجازا حيث حذف كل من متعلق فعل العقل والسمع لشهادة المقام له ودلالة السياق عليه ، أى يعقلون بها ما يجب أن يعقل من التوحيد الذى هو غاية التفكر والتدبر . ويسمعون بها ما ينبغى أن يسمع من أخبار الأمم الخالية والمهلكة فيأخذوا من ذلك العبرة فيؤمنوا وهذا التقدير أليق بالمقام وأنسب بالسياق مما قدره الزمخشرى من الوحى أى : يسمعون ما يجب سماعه من الوحى(٢) .

ثم فرع النظم الحكيم على ما سبق . وذيل له بقوله تعالى : **(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)** .

---

(١) دلائل الاعجاز ببعض تصرف ص٢٩٤ .

(٢) الكشاف ج٣ ص١٧ .

وهذا التركيب على حدته باب من أبواب الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم حيث اشتمل على أفانين من البيان تند عن الحصر والبيان ولكن نجتهد فى اقتناص ما هو إلى التناول أقرب .

فالضمير فى قوله تعالى : **(فإنها لا تعمى الأبصار)** : ضمير القصة والشأن ومع أنه يجوز فى مثل هذا الضمير التذكير . لكن حسن وجه التأنيث هنا وقوع ما فيه تأنيث وحيث جاء بعده **(لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب)** .

وأجاز أمثال صاحب الكشاف اعتبار ضمير : (فإنها) عائدا على الأبصار بعده فيكون ضميرا مبهما يفسره (الأبصار) . وفى تعمى ضمير راجع إليه والمعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإنما العمى بقلوبهم . أولا يعتد بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالاضافة إلى عمى القلوب)(١) .

فالكلام تذييل لتهويل ما يهم من عدم فقه القلوب . وإنه العمى الذى لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو .

والعمى المسند إلى القلوب مستعار لانتفاء إدراك المبصرات وتدبرها مع سلامة حاسة البصر لشبه به فى الحالة الحاصلة لصاحبه .

وتعريف الأبصار والقلوب والصدور : مراد به الجنس المستوعب المتحدث فى شأنهم وأمثالهم . فهذا مفاد التذييل وإن كان القصد إلى هؤلاء بطريق الأولى لأنهم المتحدث عنهم والسياق لهم .

وأما الجمع فى هذه الألفاظ فباعتبار أصحابها .

وأما تصدير هذا التركيب بحرف التوكيد فلغرض توطين مؤداه فى النفوس لما به من غرابة . لا لأنه مما يشك فيه وقد جرى الاستعمال القرآنى فى أكثر أحواله على تصدير الجمل المفتتحة بضمير الشأن بأداة التوكيد .

والقصد المستفاد من النفى بلا وحرف الاستدراك :(لكن) قصر ادعائى للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المعبر عنه بالعمى كأنه غير عمى وجعل عدم الاهتداء إلى

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص١٧ .

دلالة المبصرات ومقتضاياتها مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة فى استحقاق من هذا حالة لهذا الاسم الذى استعير له . وعلى ذلك فالقصر ترشيح للاستعارة .

وأما وصف القلوب بأنها : **(التى فى الصدور)** فالقصد توكيد لفظ القلوب نظير ما فى قوله تعالى : **(ولا طائر يطير بجناحيه)**(١) . ومثل قوله **(يقولون بأفواهم)**(٢) . فهو لزيادة التقرير والتشخيص .

وقد أوضح صاحب الكشاف وجه إفادة هذا الوصف للتوكيد بما يلائم غرض الكلام فيقول (فان قلت : أى : فائدة فى ذكر الصدور؟ قلت : الذى قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر . وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله فى القلب استعارة ومثل فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول : ليس المضاء للسيف . ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك : الذى بين فكيك : تقرير لما أدعيته للسانه وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك غفلة ولا سهوا منى . ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدا)(٣) .

كما يفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بافئدتهم مع شدة اتصالها بهم . إذ هى قارة فى صدورهم على نحو من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم - : فالآن أنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبى . فإن كونها بين جنبيه يقتضى أن تكون أحب الأشياء إليه . وهذا من بلاغة الفاروق .

ولما قص تعالى عن هؤلاء المشركين تكذيبهم وتكذيب ما سبقهم من الأمم وما حل بهم . وكان من جملة ما كذب به المشركون نزول العذاب بهم حتى أنهم طلبوه استكبارا وغرورا أعقب الحق تعالى بصريح استعجالهم وبيان أن وعد الله بعذابهم لايتخلف وسيحل بهم لا محالة حتى وإن ادخو لهم إلى يوم القيامة يقول عز وقدر:

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٦٧ .

(٣) الكشاف ج٣ ص١٨ .

(ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (٤٧)

فالمقصود بهذا النظم الكريم بيان ضرب من ضروب تكذيب هؤلا المصرحة به جملة الشرط فى قوله تعالى : **(وإن يكذبوك)** فإن من تكذيبهم إنكارهم الوعيد بالعذاب وقالوا : لو كان محمد - صلى الله عليه وسلم - صادقا فيما توعد به لعجل لنا . بل إنهم طلبوا نزوله صريحاً على ما أخبر القرآن الكريم عنهم فقالوا **(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء)**(١) وكأن هذا استهزاء منهم .

وذكر استعجالهم بصيغة المضارعة للاشارة إلى تكريرهم ذلك . وتجدده منهم حينا بعد حين إمعانا فى الاستهزاء وإظهارا لبالغ الكبر . وتوركا على المسلمين .

والرسول صلى الله عليه وسلم - لم يتوعدهم بالعذاب من تلقاء نفسه وإنما كان ذلك بلاغا عن ربه عز وجل وكذا جاء النظم الحكيم هنا بتعليق استعجالهم بضمير خطابه عليه الصلاة والسلام من حيث كان المواجه لهم لأمر الدعوة والمباشر لأمر الوعيد والإنذار .

ويلحظ الحاق الباء بلفظ (عذاب) لإفادة توكيد استعجالهم وقوعه كأنه تعالى يقول : يحرصون على تعجيله . وهذا فى الاستعمال نظير ما فى قوله تعالى : **(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة)** (٢).

ولما كان استعجالهم أمر العذاب تعريضا منهم بأنهم موقنون نفى وقوعه أعقب النظم الحكيم بما ينبىء عن تحققه حتما : **(ولن يخلف الله وعده)** أى : فالعذاب المنذرون به واقع عليهم لا محالة لأنه من قبل من لا يتخلف عنده وعد ولا وعيد جل وعز .

وفى إيثار نفى الخلف بلن وإضافة الوعد إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة الأعظم : (وعده) دلالة على مزيد المبالغة فى توكيد الوقوع .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد الآية ٦ .

ويلمح من وراء ذلك الوعيد لهؤلاء الكفرة معنى تأنيس قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين معه فلا يستبطئون .

والظاهر المتبادر أن جملة : **(وإن يوما عند ربك)** : عطف على سابقتها فإن الله تعالى قد توعدهم بالعذاب الصادق على عذاب الدارين وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكما وكناية عن ايقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد . وإيماء إلى عدم وقوع عذاب الآخرة بلازمين فرد الله تعالى عليهم ردا عاما بقوله : **(ولن يخلف الله وعده)** وكأن ذلك تثبيتا للمؤمنين . ثم أعقبه بانذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا . وهو أشد وأنكى . فحصل بمجموع الجملتين المبالغة في الرد عليهم وتوكيد ما أنذروا به على النحو المقدر أجل حلوله من قبله عز وجل . وعلى ذلك فإن جملة : **(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)** مراد من وراء الاخبار بها التعريض بالوعيد .

واليوم هنا مصروف بحكم السياق إلى يوم القيامة ولعل تنكيره فى هذه الآية ونظائرها مع كون اليوم من الاعلام الدالة على يوم القيامة : قصد إفادة تجهيل ميقاته . فأن أجل هذا اليوم مما استأثر تعالى بعلمه . فهو من أمهات باب الغيب الذى لم يشأ سبحانه اطلاع أحد عليه حتى أقرب وأحب خلقه إليه .

وسلوك طريق التنكير هنا لهذا المعنى الملتمس يوافق الغرض المسوق له الكلام . فإن من بليغ الانذار والتوعد إيبهام ميقات المتوعد به حتى يكون المنذر والمتوعد دائما على توقع من أمر وقوعه فى كل حين . ثم هو لا يأتيهم إلا بغتة فيكون وقعه أشد وأنكى .

وهؤلاء وإن رأوا هذا اليوم بعيد الوقوع . لكنه عند الله تعالى مقدر ومتحقق فهو بهذا قريب . وذلك مفاد قوله تعالى : **(إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا)**(١) ونظير تلك الآية قوله عز وجل : **(ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون)**(٢) .

وذكر صاحب الكشاف على تخيير أن يكون المراد بجملة : (وإن يوما عند ربك) : استقصار أجل حلول العذاب بهم فى الدنيا (كأنه تعالى قال : ولم

---

(١) سورة المعارج الآية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٣ .

يستعجلوا به ؟ كأنهم يجيزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف . والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده به ليصبينهم ولو بعد حين . وهو سبحانه حليم لا يعجل . ومن حلمه ووقاره . واستقصاره المدد الطوال أن يوما واحدا عنده كألف سنة عندكم)(١) .

والظاهر من السياق أن ليس المراد استقصار أجل ما حلول العذاب بهم فى الدنيا على نحو ما ذكر الزمخشرى وكثير من المفسرين(٢) فإن هذا الاستقصار يغنى عنه قوله تعالى عقب هذا : **(وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها)** .

ثم إنه يلحظ أن لفظ الوقار الوارد فى عبارة صاحب الكشاف مقرونا بالحلم غير مناسب إذ يفهم منه فى اللغة : السكوت وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤده ونحوه مما لا يليق إطلاقه على الله تعالى إلا بتوقيف . واما الوقار الوارد فى قوله تعالى : **(ما لكم لا ترجون لله وقارا)**(٣) . فقد فسر بالعظمة فليس من هذا .

وعلى كل حال فإن الأنسب بالمقام والسياق أن الآية الكريمة تضمنت عذاب الدنيا والآخرة فالمراد بالعذاب المستعجل به : عذاب الآخرة وإن يوما من أيام عذاب هؤلاء فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا . فكيف يستعجلون بعذاب مَنْ يومٌ واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة لأن أيام الشدائد مستطالة أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كألف سنة من سنىّ العذاب .

ولما كان من المقصود فى سياق النظم الحكيم : تسكين قلوب أهل الإيمان وحضهم على بذل مزيد الصبر على غرور قومهم المعاندين : آثر النظم الجليل : وصف الربوبية مضافا إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم - فى قوله تعالى (عنده) لسبق معاد الضمير صريحا بذكر لفظ الجلالة قبله فى جملة : **(ولن يخلف الله وعده)** ومن وراء إيثار وصف الربوبية على الخصوص إيذان . بمعنى المعية والسند وعدم التضييع وأمثال تلك المعانى الملائمة لحث المؤمنين على

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٨ .

(٢) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٧٨ .

(٣) سورة نوح الآية ١٣ .

الصبر على ما يقابلون به من غرور أهل الشرك وجهلهم . فأى جهالة أجهل من أن يسألوا ويستعجلوا حلول هلاكهم .

وعلى قراءة (تعدون) بتاء الخطاب فمع كون المتبادر عود الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه إلا أن هؤلاء الجهلة الجحدة هم المرادون به فى الحقيقة . وذلك على طريق الالتفات من الحديث عنهم بطريق الغيب المشير إلى قبح المتحدث به عنهم واستحقوا معه أن يسلك بهم طريق الغائب حطاً من شأنهم وتقبيحاالحال ما سألوا عنه . وهذا عرف فى الاستعمال القرآنى جار . حيث يعمد إلى قص مفتريات القوم وقبائحهم بسلك طريق الغيبة لكونه أدل على قبح المحكى. وسوء حال المحكى عنهم حتى أنهم صاروا غير أهل للخطاب فاسقطوا عنه رتبته فليتحدث عنهم بما يتحدث به عن الغيب . ولو كان حضورا .

ولكن لما كان القصد من بعد إلى المبالغة فى التوعد كان سلك طريق الخطاب لكونه أكد وأبلغ فى تحصيل أمثال هذا الباب .

وأما على قراءة : (يَعدُّون) . بياء الغيبة(١) فالكلام جار على طريق ما قبله أي : مما يعده المشركون المستعجلون بالعذاب .

وحيث كان استعجال أولئك الجهال بالعذاب دليل ارتيابهم فى وقوعه وأنهم فى أمن منه ورد النظم الحكيم لبيان أن ميقات العذاب موكول أمره إلى حكمه تعالى وتقديره . وأن الإملاء والإرجاء لا يعنى نفى الوقوع . فليكن لهم فيما حل بمن كذب من الأمم الخوالى عبرةٌ ومثل . فيقول سبحانه وتعالى : **(وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير) (٤٨)**

فالمراد : - والله أعلم بمراده - وكم من القرى أخرت إهلاكها وإهلاك أهلها مع استمرارهم فى ظلمهم . فاغتروا بذلك الإمهال حتى ظنوا أو تيقنوا أنهم فى مأمن. ثم أخذتهم فأنزلت بهم العذاب بغتة فلم يكن لهم عنه مدفع فقد جاءهم وهم لا يشعرون . ومع ذلك فعقابهم وعقاب أمثالهم مدخر كذلك إلى حيث يصيرون إليه فى الآخرة . فسأعذبهم هناك العذاب الأكبر .

---

(١) كتاب السبعة فى القراءات ص٤٣٩ .

فجملة هذه الآية عطف على جملة : **(ويستعجلونك بالعذاب)** . أو على جملة : **(ولن يخلف الله وعده)** باعتبار ما تضمنه استعجالهم بالعذاب من تعريض أنهم آمنون من وقوعه . فذكروا بما فى هذا النظم الجليل . فإن أمما كثيرة أمهلت ثم حل بها العذاب .

وهذه الآية نظير قوله تعالى فيما سبق : **فكأين من قرية أهلكناها)** إلا أن الأولى قصد بها أصلا الدلالة على كثرة الأمم التى أهلكت لئلا يتوهم من ذكر قوم نوح ومن عطف عليهم : أن الهلاك لم يتجاوزهم ولذلك أوثر التعبير هناك بلفظ الاهلاك دون الامهال . على خلاف هذه الآية الكريمة فالقصد منها التذكير بأن تأخير العذاب المتوعد به لا ينبغى وقوعه . ولذلك كان ذكر الامهال ثم الأخذ بعده المناسب للاملاء من حيث إنه دخول فى القبضة والتناول بعد بعده عنها .

أو يقال : إنما خصت الأولى بذكر الاهلاك . لاتصالها بقوله : **(فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم)** . أى : أهلكتم وخصت الثانية بالاملاء لأن قوله تعالى : **(ويستعجلونك بالعذاب)** دل على أنه لم يأتهم فى الوقت . فحسن ذكر الاملاء معها(١) . فهم قد استعجلوا العذاب والله تعالت حكمته يريد غيره من الامهال لهم . وتأكيد الحجة عليهم . فكانت بهذا كل نفظة اليق بمكانها الذى هى فيه .

وجملة **(وهى ظالمة)** هنا مقصود بها ما قصد مع نظيرتها فيما سبق . حيث أفادت تلك الحال : كمال حكمته تعالى وعدله فيما ينزل من عقاب على أهل البغى والفساد . كما أن بها إشعارا وتعريضا بظلم هؤلاء المستعجلين من أهل الشرك . وكأن المعنى: أمليت لها وأمهلتها وحالها الظلم المستوجب تعجيل العذاب كدأب هؤلاء الظلمة .

والتعبير بالأخذ فى هذا المقام مؤذن بوقوع المتوعد به بغتة . ثم إن فيه فضل دلالة على مزيد القدرة والتمكن . فلا إفلات ولا منع على ما جاء صريحا فى قوله تعالى : **(أخذ عزيز مقتدر)**(٢) .

---

(١) ينظر درة التنزيل ص. ٣١ ، أسرار التكرار ص١٤٦ ، بصائر ذوى التمييز ج١ ص٣٢٧ .
(٢) سورة القمر الآية ٤٢

ثم إن فى إيثار حرف العطف : (ثم) مع الأخذ حظا عظيما من التناسب لتلازمه مع الإملاء استدراجا حيث كان حلول النكال بعد طول إمهال وإرخاء وبعد تعميم الإنذار وشموله هؤلاء وأمثالهم اختتم النظم الحكيم بهذا التنزيل : (وإلى المصير) أى : إن مصير الناس كلهم إلى وحدى فإلى حكمى مرجع الخلق كله . لا إلى أحد غيرى لا استقلالا ولا شريكا . فأفعل بهم ما أفعل بما يليق بحالهم . فهذا التنزيل مقرر لما قبله من إنذار مفيد بطريق التعريض أن مآل أمر المستعجلين إلى الأخذ الوبيل . ويبقى تقدير ميقاته لحكمه تعالى وحكمته وعلمه .

وتقديم المجرور :(وإلىّ) لمعنى القصر الحقيقى أى : لا يصير الناس إلا إلى الله . وهو يقتضى إن المصير إليه تعالى كائن لا محالة . وهو المقصود من القصر لأنه حصول الفعل بالأحرى . فهو كناية عن عدم الإفلات .

ولما فرغ النظم الجليل من الحديث عن انذار من جحد من قومه - صلى الله عليه وسلم - وبالغ فى تذكيرهم بما حاق بالأمم أمثالهم : صرف الخطاب تعالى إليه عليه الصلاة والسلام آمرا إياه أن يديم أمر هذا التخويف . وأن لا يصده عن ذلك ما يكون منهم من الاستعجال بالعذاب الحاصل منهم على سبيل الاستهزاء والجهل فقال سبحانه وتعالى :

(قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) (٤٩ - ٥١) .

فهذا استئناف بعد المواعظ والانذرات السالفة . وافتتاح النظم الكريم بلفظ (قل) : للاهتمام بما فى حيزه . كما أن افتتاح القول بنداء الناس على هذا الطريق (يا أيها الناس) لمزيد لفت انتباه المخاطبين إلى ما يلقى عليهم .

والمخاطبون بهذا اللفظ على ما يظهر عند بادى النظر خصوص المشركين على ما يرشد إليه موقع هذا الخطاب باعتبار ما قبله .

والغرض حينئذ من خطابهم وانذارهم : إعلامهم بأن تكذيبهم واستعجالهم العذاب لا يحول بينه - صلى الله عليه وسلم - وبين مواصلة أداء مهام رسالته . ففى ذلك قمع لهم . إذ كانوا يحسبون أن حالهم تلك تنال منه فيترك دعوتهم

وفى ضمن ذلك أيضا تثبيت لقلبه - صلى الله عليه وسلم - وسلواناً له على ما يلقاه من جحود ونكران ، فكأنه تعالى يقول : قل يا أيها المشركون المستعجلون بالعذاب: إنما أنا منذر لكم إنذارا بينا بما أوحى إلى من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لى شأن فى إتيان ما استعجلتم مما توعدكم به حتى تستعجلونى حلوله.

وقصر النبى - صلى الله عليه وسلم - على صفة النذارة قصر إضافى . أى : لست مدعيا حلول العذاب بكم كما تستعجلوننى . فذلك من أمر ربى وحده ، وليس لى سوى الانذار والبلاغ فمن آمن فلنفسه ، ومن استمر على كفره فعليها وعلى ذلك فوجه الاقتصار على صفة الانذار ظاهر إذ الحديث والخطاب مع الكفرة .

وأما وجه ذكر المؤمنين وثوابهم فى قوله تعالى :(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ..) فالقصد المبالغة فى إغاظة المشركين . فهو بحسب المآل إنذار لهم أيضا وترهيب أو يقال : إن فى ذكر ذلك فى هذا السياق مزيد ترغيب وحث لهؤلاء لكى يتحولوا عن تلك الحال المنذرين بها الى هذه الحال الموعود بها من آمن.

وقد ذكر بعض أهل العلم والتفسير : أن ما ورد فى هذا السياق من ذكر حال الذين آمنوا وثوابهم وأراد على سبيل التفصيل المبين لحال من نجح معه أمر الإنذار من أولئك الناس المشركين ، فكأنه تعالى يقول : أنذر يا محمد صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الكفرة المستعجلين بالعذاب . وبالغ فى هذا الانذار . فمن آمن منهم ورجع عما كان عليه فجزاءه هذا الثواب . ومن دوام وأصر . فأولئك أصحاب الجحيم على صريح ما أتت به الآية الكريمة التالية .

وهذا دون ريب توجيه حسن طيب ، وقد اختاره الطيبى كما يرى بعض أهل العلم أن لفظ : الناس المصدر به الخطاب هنا عام للمؤمنين والكافرين . فهم جميعا منذرون بقيام الساعة . وقد دل على ذلك تعقيب خطاب الانذار بتفصيل حال الفريقين إنما اقتصر فى الخطاب على الإنذار فقط دون البشارة لأن ما ذكر فى حيز التفصيل الوارد عقبه دال عليه(١) .

ولعل الأنسب أن ما ذكر فى بيان حال ومآل من آمن وعمل صالحا ومن سعى

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٧١ .

فى آيات الله معاجزاً . إنما هو تفريع على خطاب الانذار . وليس تفصيلا له .

وتقديم الجار والمجرور (لكم) المشعر بالاهتمام بإنذارهم : أيماء بليغ إلى أنهم مشرفون على شر عظيم فهم أحرياء بالنذارة . وكأن فى ذلك أيضا إشعارا بتعريض دال على مزيد حرصه - صلى الله عليه وسلم - على نصحهم حتى لا يقع عليهم ما ينذرون به . فكأنه يقول : إن أمركم أنتم فى الانذار مما أحرص عليه لمكانكم منى ومكانى منكم ، فأنا الناصح لكم الحريص على مافيه نفع لكم والموضح لكم عاقبة ما أنتم فيه بما لا ابهام ولا مصانعة . بما ينبىء عنه وصف : (نذير مبين) .

ثم فرع الحق تبارك وتعالى على الأمر بالانذار تقسيم الناس من حيث الواقع بعد تلقى هذا الأمر إلى مستجيب مصدق وإلى معارض مكذب لبيان حال كلا الفريقين فى الدنيا ومآله فى الأخرة قصداً إلى الترغيب والترهيب فقال عز وجل : (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) .

فعلى حمل الخطاب فيما سبق على خصوص أهل الشرك فالمراد بالمغفرة هنا غفران ما قدموه من ذنوب ومعاص جرها عليهم ما كانوا عليه من شرك قبل أن يمن الله تعالى عليهم بالإيمان .

وأما إن طابت نفسك إلى قصد التعميم فى الخطاب : فالمغفرة حينئذ تكون لما سلف منهم قبل الإيمان ، أو لما فرط منهم معه ، وذلك لا ينافى وصفهم بعمل الصالحات.

وحتى يكتمل ما قدر من جزاء حسن لمن آمن وحسن إيمانه بعمل الصالحات : ألحق تعالى قوله (ورزق كريم) بالمغفرة اتماما للنعمة فيفد أنه تعالى قد تفضل عليهم بأن خلع عنهم موجبات ما فرط منهم من ذنوب بالغفران الذى صاروا بعده أهلا لنيل فيض كريم عطائه . ففى ذكر : الرزق الكريم إثر المغفرة من باب التحلية بعد التخلية . على حد ما يذكر أئمتنا من أهل العلم فى مثل تلك الأحوال .

وعطف : (ورزق كريم) على المغفرة على هذا النحو مشعر بأن المراد به هنا : الجنة . وكذا نظائره فيما وقع فى القرآن الكريم .

ونعت الرزق بالكريم يجمع معنى : وفرته وصفائه من المكدرات على معنى

قوله تعالى : **(فلهم أجر غير ممنون)**(١) ولكونه كريما فهو موفور ويأمن من الانقطاع . فهو عطاء دائم فلا خشية من النفاد . والكريم أيضا : لا خبث فيه يمنع متعاطية لاجله ، فلا هو مقطوع لوفرته . ولا هو ممنوع منه صاحبه لخلوصه فى كل مكدر . فليس به ما يخشى من بيتناوله وليس بمتعاطيه كذلك ما يمنعه من تناوله وهذا إتمام للنعمة والتنعم بها على أكمل وجه فلا هى مقطوعة لغرض أو نفاد . ولا هى ممنوعة لمرض أو فساد على نحو ما ورد فى وصف حال فاكهة الجنة: **(لا مقطوعة ولا ممنوعة)**(٢) أرأيت كيف جمع وصف الكرم فى مثل تلك المواقع هذه المعانى الشريفة والغايات الجليلة بلفظة واحدة هى فى الاستعمال الجارى شائعة ومطروقة . غير أن اللفظ المعجز قد أضفى عليها من عطائه السخى ما جعلها تقوم مقام العبارات الطوال وليس ما سبق من شرح وبيان إلا دليل صدق هذا الأمر على الرغم من بذل المحاولة قصد الايجاز فى البيان ما أمكن .

وعلى إثر بيان حال من آمن وعظيم ثوابه : أعقب النظم الجليل ببيان حال من كابر واجتهد فى ابطال أمر هذا الدين ودلائله الناطقة بصدقه وما آل إليه أمرهم من سوء المصير . وذلك على عرف القرآن الكريم الجارى على طريق ذكر المتقابلات ، وهو من طرق النظم والبيان المعجز فى ذكر المتقابلات توكيدا للأغراض المسوق لها الكلام واستدعاء عقول المخاطبين . أو المتحدث فى شأنهم إلى إعمال الفكر والنظر فى حال كل طرف من طرفى التقابل ومصيره .

يقول عزت قدرته **(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم)** .

فالذين سعوا : هم الفريق المقابل للذين آمنوا . فالمراد - والله أعلم - : والذين استمروا على الكفر . غير أنه يلحظ جريان التعبير عن الفريقين بالموصول . وأمر هذا الاستعمال مع من آمنوا ظاهر . إذ هم قد أحدثوا الإيمان الذى من الله عليهم به وصاروا إليه بعد ما كانوا . فكان التعبير عنهم بالذين آمنوا موافقا لحالهم ، وأما مع الفريق الآخر فهم لم يحدثوا كفرا ولا سعيا فى آيات الله ، إنما ذلك شأنهم ، فكان ظاهر الحال يقتضى إبرازهم بالوصف الدال على حالهم المتلبسة بالكفر لا المحدثة له . فيقال مثلا وفى غير النظم المعجز : والكفرة أو والكافرون.

---

(١) سورة التين الآية ٦ .   (٢) سورة الواقعة : ٣٣ .

ولكن آثر النظم الكريم طريق الموصول هنا أيضا لما أرجو له التوفيق .

فلعل الغرض من وراء ذلك الاشارة إلى أن هؤلاء كان حريا بهم الإيمان بعد ما سمعوا من أمر الانذار والتوعد على ذلك النحو البليغ ، وبعد بيان حال ومآل من على هذا الوجه البليغ فى اظهار ما لهم من ثواب . لكن لما لم يكن منهم شىء من التدبر أو الاستجابة لدواعى الإيمان جعلوا وكأنهم قد أحدثوا كفراً وسعيا آخر فكان التعبير عنهم باسم الموصول لوفائه بمثل هذا المراد - والله تعالى الأعلم بمراده

وإنما أوثر فعل السعى دون فعل الكفر لكون السعى أخص فى بيان ما كان عليه حال المشركين المتحدث عنهم فى خصوص هذا المقام فهم قد بذلوا غاية جهدهم فى إبطال آيات القرآن الكريم . فسموها تارة سحرا . وتارة شعراً . وتارة أخرى أساطير الأولين وأصل السعى الإسراع فى المشى ويطلق على الإصلاح والإفساد . وذلك على حسب متعلقه ومقامه ، فيقال : سعى فى أمر فلان . إذا أصلح أو أفسد . والفارق السياق المقول فيه فما هنا مصروف بدلالة الحال والسياق إلى قصد الباطل ومحاولة إفساد الصالح على ما يرشد إلى ذلك أيضا تعليق سعيهم بحال المعاجزة فى آيات الله تعالى فقد كان غرضهم من سعيهم هذا المشاقة .

فعلى حين عمد أهل الإيمان إلى إظهار الحق والتواصى به ، عمد هؤلاء الكفرة إلى إبطال ذلك على ما يدل عليه قوله تعالى : (معاجزين) حيث أبانت تلك الحال ما كان عليه أمر سعى هؤلاء .

وأصل المعاجزة : من عاجزه فأعجزه وعجزه .إذا سابقه فسبقه فإن كل من المتسابقين حريص على إعجاز الآخر عن اللحاق به . كما أن السعى وهو فى الأصل : المشى السريع يطلق على شدة الحرص فى العمل وافراغ الطاقة فيه تشبيها للفاعل الحريص بالماشى الشديد المشى فى كونه يكد للوصول إلى غايته . نظير ما فى قوله تعالى : (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى)(١) . فليس المراد أن فرعون خرج يمشى، وإنما المراد : أنه صرف عنايته لإحضار السحرة بقصد إبطال دعوة موسى عليه السلام ، وعلى ذلك الطريق كذلك:(ويسعون فى الأرض فسادا)(٢)

والكلام هنا تمثيل : شبهت هيئة تفننهم فى التكذيب بالقرآن الكريم وتطلب ما ينقصه من نحو قولهم : هو سحر ، هو شعر ، هو أساطير الأولين ، هو قول

---

(١) سورة النازعات الآية (٢٢ ، ٢٣) . (٢) سورة المائدة الآية (٣٣) .

مجنون ، وتعرضهم بالمجادلات للنبى - صلى الله عليه وسلم - أقول شبهت حالتهم تلك بهيئة الساعى فى طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول ويحول غيره المسابق له من أن يصل أو يلحق به .

وعلى قراءة بعض السبعة : (معجزين) بالتشديد : فالمعنى : مثبطون الناس عن الإيمان . وقال أبو على : ناسبين المسلمين إلى العجز كما تقول فسقت فلانا . إذا نسبته إلى الفسق . وهذا المعنى مناسب لمعنى قوله تعالى فيما سبق : (ويستعجلونك بالعذاب) . حتى لكأن من قصدهم الاستعجال التعجيز مع الاستخفاف والاستهزاء .

وأما على قراءة من قرأ(**) : (معجزين) بالتسكين والتخفيف فالمعنى هم ظانون أنهم يعجزونا . وذلك لظنهم أنهم لا يبعثون .

وحيث أبانت تلك الحال مراد هؤلاء من سعيهم الفاسد . جاء قوله تعالى : (أولئك أصحاب الجحيم) مبينا لأمر عقابهم ومآل مصيرهم أى : ملازمون النار شديدة التأجج . وهو معنى الجحيم . أو هو اسم دركة من دركات النار .

ومع أن تلك الجملة المبين بها عقاب الساعين فسادا فى مقابل ما ورد فى الآية السابقة بيانا لعظيم ثواب من آمن وعمل صالحا إلا أنه يلحظ تصدير جملة الجزاء هنا باسم الإشارة (أولئك) مع خلو الجزاء السابق عنه .

ولعل من وراء ذلك : قصد تعيين هؤلاء المستحقين لهذا العقاب وتمييزهم فى الذهن أكمل تمييز . والتنبيه على أن المخبر عنهم جديرون بما يرد عقب اسم الإشارة من الحكم . لأجل ما ذكر قبله من أوصافهم وأحوالهم الدالة على أنهم إحقاء بما يرد عليهم من حكم وعقاب ، أى : هم أصحاب الجحيم لأنهم استحقوا ذلك بسعيهم فى آياتنا بقصد محاولة إبطالها . ثم إن من وراء التعبير بلفظ : (أصحاب) معنى : الصحبة والملازمة وعدم الانفكاك . وهذا أدل على تغشيهم بالعذاب وتلبسه بهم على الدوام كما أن من مدلولات هذه اللفظة فى مثل تلك المواقع معنى : الخصوصية والملكية ، أى هم أحقاء بهذا الجحيم على نحو أحقيته المالك ملكه . ويلمح من وراء هذا المعنى التهكم بهم . كذلك .

ولما أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وتأنيس نفسه الشريفة فيما يلقاه من عنت قومه وتكذيبهم . بأن تلك الحال شأن الأمم

(**) قراءة التخفيف والقصر ليست بسبعية ولا عشرية ولا من أربعة الشواذ فهى شاذة .

الظالمة على الدوام وأن ليس عليه إلا البلاغ والانذار فمن آمن فقد نجى وضمن لنفسه ثواب النعيم ومن أصر فقد هلك واستحق عذاب الجحيم . أريد الانتقال من بعد ذلك كله إلى تفصيل تسليته وتثبيته وذلك ببيان أن أحداً من الرسل السابقين لم يسلم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدى الأمم وأن الشأن مع كل رسول أن يكون من أممهم مصدقون ومكذبون . فتلك سنة الله تعالى فى خلقه ومع رسله .

يقول سبحانه وتعالى : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم .(٥٢ - ٥٥)** .

وقبل الاستطراد فى ذكر خصائص هذا النظم الحكيم ودلالات ألفاظه . وما وراء ذلك من مغزى ورمز وإيحاء نشير إلى أمر يتصل بهذا النظم وأرى أنه لا ينبغى التغاضى عن ذكره . فإن تلك الآيات الكريمة من ذلك القبيل من النظم الحكيم الذى وجد فيه المغرضون والمبطلون سبيلا إلى إثارة الجدل . واقامة الشبهات حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحول القرآن الكريم ذاته . وقد وجد أمثال هؤلاء المرتابين أو المريبين فى بعض ما أثر وروى وإن افتقد شرط تعديله .وكذا ما درجت بعض كتب التفسير على ترديده : ما يعولون عليه فى نشر مفترياتهم .

ومع أننا نحسن الظن كثيرا بعلمائنا من أهل التفسير فهم ذوو فضل فى العلم ومكان فى الدين ينأى بهم عن الشبهات . غير أن بناءهم على تلك الروايات البادية الضعف إسنادا ومعنى وتواردهم عليه على هذا النحو . أعطى كل ذى غرض خبيث الفرصة سانحة لأن يدعى ويستند فى دعواه إلى ما أثر وذكر فى أمثال تلك المصادر من أمهات كتب التفسير .

فقد أوردت بعض كتب أسباب النزول رواية مفادها : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ بمكة : (والنجم) فلما بلغ (أفرأيتم) اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : ألقى الشيطان على لسانه : تلك الفرانيق العلا . وإن

شفاعتهن لترتجى . فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد وسجدوا فنزلت : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الآية(١) .

ومع وضوح ضعف أمثال هذه المرويات عقلا وسندا فضلا عن منافاتها الصريح آيات القرآن الكريم فى أكثر من موقع بما يشهد بفسادها إلا أننا وجدنا كيف ذلت أقدام رواسخ . وحادت أفهام نوابغ . وجارت أقلام على نحو ما كنا نظنه يصدر عن أمثال جار الله حيث بدا الأمر عنده وكأنه يقر تلك القصة فقد أوردها وأضاف اليها من بيانه وبنى المعنى المراد عليها .

يقول صاحب الكشاف : (والسبب فى نزول هذه الآية : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به . تمنى لفرط ضجره من إعراضهم . ولحرصه وتهالكه على سلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (النجم) وهو فى نادى قومه . وذلك التمنى فى نفسه . فأخذ يقرأها . فلما بلغ قوله : (ومناة الثالثة الأخرى) : (ألقى الشيطان فى أمنيته) التى تمناها أى : وسوس إليه بما شيعها به . فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى . ويروى : الغرانقة . ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبَّه عليه . وقيل نبهه جبريل عليه السلام . أو تكلم الشيطان بذلك فاسمعه الناس . فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى وطابت نفوسهم . وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكا وظلما والمؤمنون نورا وإيقانا . والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت : مكن الله الشيطان ليلقى فيه أمانيهم مثل ما ألقى فى أمنيتك إرادة امتحان من حولهم . والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد فى عقاب المتذبذبين)(٢) .

أرأيت كيف ارتضى الزمخشرى هذا التوجيه المبنى على تلك الرواية مع كونها مُجرَّحة من قبل علماء الحديث ورجال مصطلحه .

وكذلك فقد أورد أبو السعود هذا التوجيه ضمن ما أورد من وجوه وإن كان فى تعقيبه ما يفيد تردده(٣) .

---

(١) أسباب النزول ص١٨٤ . (٢) الكشاف ج٣ ص١٩ . (٣) ارشاد العقل السليم ج٦ ص١١٣

وأما ابن كثير فقد ذكر أن أكثر المفسرين يأخذون المعنى على تلك القصة والتى أوردها تفصيلا غير أنه صدر كلامه . بحكمه بأن تلك الروايات كلها من طرق ضعيفة(١) .

ومع تهافت تلك الرواية فقد أولع المستشرقون والطاعنون فى هذا الدين بذلك المروى وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة من القول والأمر فى هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعاً للمناقشة فصريح آى الكتاب العزيز يبطله على ما ورد فى أكثر من موضع . كما أن فى خصوص سياق هذا النظم الحكيم خصائص فى تراكيبه ما يدفع أن يكون شىء من ذلك هو المراد .

فأما ما ورد فى القرآن الكريم فكثير نظير قوله تعالى : **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين)**(٢) **(قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ)**(٣). **(وما ينطق عن الهوى . إن هو الاوحى يوحى)**(٤) . فلو أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عقب هذه الآية : تلك الغرانيق العلى . لكان قد ظهر كذب الله تعالى عن ذلك فى الحال . وهذا مما لا يقوله مسلم .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : **(وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا)**(٥) . وكلمة (كاد) عند بعضهم معناه : قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل فى الواقع. وكذا قوله تعالى **(ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا)**(٦) . وكلمة لولا تفيد : انتفاء الشىء لانتفاء غيره . فدل ذلك على أن الركون القليل لم يحصل ثم قوله تعالى : **(سنقرئك فلا تنسى)**(٧) .

وهناك من النظم الكريم ذاته ما يستبعد معه أن يكون المراد شيئا مما أورده . وأن يكون مدلوله حادثا مفردا وقع للرسول — صلى الله عليه وسلم — فصريح النظم الكريم يقرر أن هذه القاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢٢٩ . (٢) سورة الحاقة الآية ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) سورة يونس الآية : ١٥ . (٤) سورة النجم الآيات ٣ ، ٤ .
(٥) سورة الاسراء الآية : ٧٣ . (٦) سورة الاسراء الآية ٧٤ .
(٧) سورة الاعلى الآية ٦ .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ..) . فلابد إذا أن يؤخذ المراد على أنه أمر عام يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل عليهم السلام جميعا بوصفهم من البشر . وبما لا يخالف أمر العصمة المقررة لهم .

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله تعالى - والله أعلم بمراده . ونحن إنما نفسر بقدر إدراكنا البشرى . .

ولعل أول ما يلحظ أن قوله تعالى : **(من رسول ولا نبى)** نص فى العموم . فأفاد أن ذلك لم يفت أحدا من الأنبياء والرسل . كما أن عطف : (نبى) . على (رسول) المؤذن بالمغايرة بينهما : يفيد تمام استغراق هذا الأمر وشموله لسائر من أرسله تعالى وخصه بكتاب . وتبليغ . ولمن اصطفاه ونباه ، وإن لم يسند إليه بلاغ. ولم يتنزل عليه كتاب . ثم إن فى عطف النبى على الرسول مراعاة الأفضلية المقتضية إبراز (رسول) أولا وتقديمه فى الذكر لامتيازه بكتاب وتبليغ .

والتمنى : طلب الشىء المستحيل أو العسير حصوله . والأمنية الشىء المتمنى وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن تكون أقوامهم جميعا صالحين مهتدين .

والقصر المستفاد من النفى والاستثناء : قصر موصوف على صفة . وهو قصر إضافى . أى : دون أن نرسل أحداً من الأنبياء والرسل فى حال الخلو من إلقاء الشيطان ومكره .

(وفى ايثار هذا الطريق فى إفادة معنى القصر : فضل دلالة على تثبيت الغرض المراد على أتم وجه ، ثم إن فى ذكر لفظ : (من قبلك) ودخول (من) إفادة المبالغة فى تأكيد هذا الأمر وشموله لسائر الرسل والأنبياء).

والإلقاء حقيقته : رمى الشىء من اليد . واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد تشبيها له بالقاء الشىء من اليدين . مبالغة فى وضوح هذا الأمر وهذا على نحو ما فى قوله تعالى : **(فكذلك ألقى السامرى)**(١) وقوله : **(فألقوا إليهم القول)**(٢) .

ومفعول :(ألقى) محذوف لدلالة المقام عليه لأن الشيطان إنما يلقى الشر والفساد حتما . فإسناد التمنى إلى الأنبياء والرسل دل على أنه تمنى الهدى

---

(١) سورة طه الآية ٨٧ . (٢) سورة النحل الآية : ٨٦ .

والصلاح . كما أن إسناد الإلقاء إلى الشيطان دل على أنه إلقاء ما يغاير ، وهو الضلال والفساد . وعلى ذلك فكأن المعنى : أدخل الشيطان فى نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما دعاهم إليه رسلهم من الإرشاد .

ومعنى إلقاء الشيطان فى أمنية الرسل والأنبياء : إلقاء الشيطان بوسوسة بأن يزين للناس أمر التكذيب والعصيان . ويلقى فى قلوب رءوس الكفر منهم مطاعن ويروج الشبهات والشكوك التى تصرف نظر العقل وتدبر الدليل ، والله تعالى يكرر الإرشاد على لسان رسله ويفضح وساوس الشيطان ، فهو تعالى بهديه وبيانه ينسخ ما يلقى الشيطان . أى : يزيل الشبهات التى يلقيها الشيطان . ويزيد آيات تصديق رسله تبيانا . وذلك هو إحكام آياته . أى : تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضحيها بما لا شبة بعده إلا لمن ختم على قلبه أو طمست بصيرته .

وعلى ذلك فإن تفسير (تمنى) بمعنى : قرأ غير مناسب لهذا السياق والغرض منه . وإن قال به كثير من أهل اللغة والتفسير واستندوا فى ذلك إلى شواهد يشك فى صحة نسبتها إلى من نسبوها إليه(١) .

وجوز صاحب التحرير أن يكون المعنى : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا تمنى هدى قومه . أو حرص على ذلك . فلقى منهم العناد . ألقى الشيطان فى نفس النبى خاطر اليأس من هداهم عسى أن يقصر النبى من حرصه البالغ فى إيمان قومه أو أن يدفعه ذلك إلى الضجر والكف عن دعوتهم ، وهى خواطر تلوح فى النفس ، ولكن العصمة تنتزعها فلا تلبس تلك الخواطر أن تنقشع ويرسخ فى نفس الرسول ما كلف به من الدأب على الدعوة ومداومة الحرص على أمر الهداية . فيكون معنى هذه الآية على هذا الوجه ملوحا إلى مثل قوله تعالى : **(وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)**(٢) .

وفى إيثار عطف فعل النسخ بالفاء.. والإحكام بثم قصد معنى التعاقب دون مهل لمناسبة هذا الإزالة ما يلقيه الشيطان . فلا يترك أمره طويلا . بل سرعان ما يزول ويمحقه الله تعالى . ولكن لما كان إحكام الآيات وتقريرها أهم من نسخ

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٨٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥ وينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٩٩ .

ما يلقى الشيطان . إذ بالإحكام يتضح الهدى ويزال ما يلقيه الشيطان نسخا : جىء بثم الدالة على التفاوت الرتبى إذ هو الأنسب بحال هذا الإحكام .

وصيغة المضارعة مع الفعلين : (ينسخ) و : (يحكم) : للدلالة على الاستمرار التجددى . حيث كان ذلك النسخ والإحكام فى عقبه يحدث ويتجدد مع كل رسول ونبى . كما أن إفراد الضمير المسند الفعل التمنى إذ كان يقال فى عرف الاستعمال اللغوى : (إلا إذا تمنوا) : ذهابا فى أمر التوكيد والاستغراق إلى مداه . حيث إن ذلك الحال يتناول كل رسول ونبى فرداً فرداً . كل على حدته . ولو سلك طريق الجمع فى الإسناد : لما أفاد هذا المعنى على تلك الحال . حتى وإن كان السياق كله مبنيا على التعميم . إلا أنه روعى فى الألفاظ ذاتها الدلالة عليه أيضا إمعانا فى توطين هذا الأمر وبليغ توكيده . ولهذا الغرض كذلك دخلت (من) وكررت فى قوله تعالى : (من قبلك) و : (من رسول) . إذ الأولى مفيدة معنى الابتداء الدال على أحد طرفى الشمول . والثانية صريحة الدلالة على التوكيد المناسب لإيرادها فى أمثال تلك السياقات .

وفى مجىء متعلق الإلقاء بحرف الظرفية : (فى أمنيته) : إيماء إلى غرض اللعين والرجيم : التمكن من النفوس واستيلاؤه عليها بحيث لا يستطيعون دفع ما وسوس به .

والنسخ : الإزالة ، والإحكام : التثبيت ، وفى تلك المقابلة : طباق بديع أفاد حصول مراد الله تعالى من محو آثار نزغ الشيطان حتى لا يبقى لذلك موقع إلا فى نفوس من استحبوا طريق الارتياب لمرض فى قلوبهم أو قسوة .

ثم إن فى تذييل تلك الآية الكريمة بقوله تعالى : (والله عليم حكيم) : ما يزيد أمر تلك المطابقة حسنا . فصفة العليم : مفيدة للمبالغة فى العلم بكل ما شأنه أن يعلم ، وفى ضمنه ما يصدر عن الشيطان وأوليائه . ومادام علمه تعالى محيطا فهو سبحانه ينسخ ويزيل ما وسوس به الشيطان . كما أن وصف الحكمة على هذا النحو المبالغ فيه كذلك يلائم معنى إحكام الآيات . بل ولما قبله أيضا : فهو تعالى حكيم فى كل ما يفعل ومن جملته : تمكين الشيطان من إلقاء الشبه ، وتمكين أوليائه من المجادلة بها ، ثم تمكين أوليائه تعالى من ردها بإعلامهم وجه الحق . فقد أوتوا العلم على نحو ما يأتى فى سياق الحكيم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وإظهار اللفظ الجليل (الله) وظاهر المقام للإضمار : لداعى التوكيد ولدلالة على استقلال هذا التذييل وشموله لمعنى ما سبق وغيره . وبعد أن أبان النظم الجليل السابق عن سنته تعالى الجارية مع أنبيائه ورسله فى التمكين للشيطان من النزغ والوسوسة ثم إنه تعالى يزيل الباطل ويثبت الحق . فعلمه محيط بكل ما يقع . وحكمته فى سائر ما يكون بليغة . أردف الحق بما يبين أمر تلك الحكمة المرادة من وراء تمكين الشيطان . حيث إن النفوس مشوقة إلى ذلك . بما فى هذا الأمر من غرابة تبهم إدراك المراد ، فجاء قوله تعالى : **(ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم** .. الآية) .

والمعنى : أن الله تعالى مكن الشيطان من ذلك بأصل فطرته من يوم خلق له داعية الإضلال . وأزال ما يلقيه اللعين عن طريق رسله وأنبيائه : ليكون من وراء ذلك اختبار وابتلاء . فيداوم أهل الشك والكفر على ما هم عليه من تذبذب وكفران ، أو يزيدهم هذا الأمر نفاقا وجحودا .

وأما أهل الإيمان والمتلقين العلم الصحيح ببلاغ الرسل إياهم عن ربهم فيقابلون ذلك بيقين جازم بأن أمرا كهذا لابد وأن يكون من وراءه على الحتم حكما وغايات وإن خفى أمرها .

والفتنة هنا كما فى البحر : الاختبار والابتلاء(١) . لمناسبة ذلك المعنى على ما أشرت إليه ، وليس المراد بها هنا : العذاب على ما نقل الآلوسى(٢) .

والذين فى قلوبهم مرض ، مراد بهم : المنافقون . وهو المناسب لما قيل فى بيان حالهم : **(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا)**(٣) وتخصيص المرض بالقلب مؤيد لهذا المراد . لعدم إظهار المنافقين كفرهم بخلاف الكافرين المجاهرين .

وقد أبلغت تلك الاستعارة المصرحة : المراد من النفاق على أبلغ وجه وأنسبه فالمنافقون ظواهرهم وأجسادهم . فهم متظاهرن بإعلان الإسلام . ولسانهم ناطق به لفظا . وجوارحهم تؤدى تكاليفه رياء .

---

(١) البحر المحيط ج٦ ص٣٨٣ .

(٢) روح المعانى ج١٧ ص٧٤ـ١ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠ .

وأما بواطنهم : فمستقر فيها الكفر . ومضمر فيها الفساد . وبما أن القلب مستكن فى الجسم ، مستقر داخله ، وهو مستور فى وعائه . كما أن به قوام أمر الإنسان كله . سلامته تكون سلامة صاحبه ، وبعطبه يحكم على صاحبه بالاعتلال حتى ولو كان سائر جسده ظاهره صحيحا معافى . لهذا كله كان الحاق النفاق بالمرض . حيث إن النفاق به اختلال أمر العقيدة وتقويض دعائمهما شأن المرض الذى به اعتلال الجسم وفساد بنيانه . ولما كان المقود من هذا التشبيه المبالغة فيه تنوبى أمره . بحيث تيسر تصور النفاق أحد مدلولات المرض الحقيقى . وبهذا الاعتبار مساغ اطلاق المرض على النفاق مستعارا له على جهة الاستعارة التصريحية الأصلية . كما جرى على ذلك عرف أهل البيان .

وأما القاسية قلوبهم ، فهم بحكم السياق والعطف على ما سبق : الكفرة المصرون على العناد . واقول بإن المراد بمرضى القلوب : عامة الكفرة وبالقاسية قلوبهم : خواصهم كأبى جهل وعتبة : فلا مستند له من سياق أو من أثر مروى .

ووصف القلب بالقسوة لا ينصرف حتما إلى هذا . فإنه يطلق على كل كافر . نعم إن أمر الكفر يتفاوت . لكن إن جردنا هذين المتعاطفين للكفرة عامتهم وخاصتهم : جعلنا المرتابين والمنافقين عن هذا السياق بمعزل . إذ لم يبق فى الكلام ما يدل عليهم . ولا أرى هذا على وفاق مع المقام والغرض . هذا فضلا عن انصراف مرض القلب إلى النفاق كما جرى على ذلك عرف الاستعمال القرآنى ..

وأما حمل من حمل القاسية قلوبهم على المنافقين . فهو أدخل فى البعد، نعم إن فى قلوب المنافقين قسوة ولكنهم يضمرون ويجتهدون فى إبراز غير ما قر فى نفوسهم . ولولا إعلام الله تعالى بحقيقة حالهم : لغم أمرهم وأما الكفرة . فإن آثار قسوة قلوبهم بادية على ظاهر أحوالهم . فصاروا احقاء بأن توصف قلوبهم بالقسوة . كما كان أهل النفاق أحرياء بأن توصف قلوبهم بالمرض . فخص قلب من الفريقين بالوصف اللائق بحاله . فسبحان من هذا كلامه .

والفريقان هم المعنيون بالظالمين فى قوله تعالى : (وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) فذكر : (الظالمين) : وإظهار فى ما ظاهر مقامه الإضمار مع إيثار مادة الظلم : للإيماء إلى علة كونهم فى : شقاق بعيد ولتسجيل وصف الظلم عليهم مع ما وصفوا به من مرض القلوب وقسوتها .

والشقاق المخبر به عن هؤلاء الظالمين : العداوة والخلاف . ووصفه بالبعد : مراد منه البالغ حدا قويا فى حقيقة تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة فى المكان البعيد . على طريق ما فى قوله سبحانه وتعالى : (.. **فذو دعاء عريض**)(١) أى كثير ملح فى دعائه . ففى أمثال تلك النعوت قصد المبالغة مراد ومقصود . ولهذا جىء مع شقاقهم بحرف الظرف (فى) . إذ فيه دلالة على انغماسهم فى تلك العداوة الشديدة والمخالفة التامة . ولتحقيق تلك الحال المخبر بها عنهم : قرن حرف الظرفية باللام المؤكدة : (لفى شقاق) : ولهذا الغرض من التوكيد كذلك صدرت الجملة المخبر بها عنهم بحرف التوكيد (إن) : (وإن الظالمين)

وتلك الجملة بتمامها فى موقع التذييل المقرر لمضمون ما قبلها باعتبار اندراج من سبق من مرض القلوب والقاسية فى عموم حكمها .

فكان أمر التذييل من حيث إن تلك الجملة تمام آية . فإن نظرت إلى وقوع تلك الجملة بين متعاطفات وهو ما سبق الإخبار به . وما يقع بعدها من بيان حال الفريق المقابل :فبالجملة اعتراض على هذا الاعتبار . وبهذا يتيسر فهم ما درج عليه كثير من أهل التفسير حين يعبرون عن أمثال تلك الجمل بأنها اعتراض تذييلى . على ما ذكر هنا الآلوسى(٢) .

وإذا ظهر حال هذا الفريق وخسرانه فى هذا الابتلاء . ناسب أن يذكر حال الفريق المقابل والذى أخرجه ذلك الاختبار أثبت يقينا . وأشد خشية لله تعالى لعلمهم المبلغ اليهم ، فكانوا بذلك جديرين بهداية الله تعالى لهم إلى سواء السبيل، يقول سبحانه وتعالى : (**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك** ..الآية) .

وعلى ذلك فالذين أوتوا العلم : هم المؤمنون بقرينة المقابلة بالموصول قبله . كما أن ما أخبر به تتميما لهذه الآية ما يعين هذا المراد : (وإن الله لهادى الذين آمنوا..) .

والتعبير عن المؤمنين بالموصول ليس للمشاكلة اللفظية لما جرى عليه التعبير مع مقابلهم من أهل النفاق والكفر فيما سبق . إنما لقصد الإيماء إلى أن ما لديهم

---

(١) فصلت الآية : ٥١ .

(٢) روح المعانى ج١٧ ص١٧٤ .

من علم إنما هو الذى تفضل الله تعالى عليهم به وآتاهم إياه بلاغا عنه بوساطة رسله - عليهم السلام . فالمراد بالعلم : الوحى والكتب التى أوتيها أصحاب الرسالات وبلغوا إياها فصاروا من أهل العلم . وليس المراد بالعلم فى أمثال تلك المواقع : العلم النظرى المجرد . ومن هنا كان هذا التعبير (أوتوا العلم) فى هذا الموقع ونظائره حيث تكرر فى النظم الحكيم على المعنى المشار إليه .

وفى طى هذا التركيب : ثناء على أصحاب وأتباع الرسل عليهم السلام فإن نور النبوة يشرق فى قلوب هؤلاء الأصحاب والأتباع . ولذلك وجدنا من بين صحابة رسول الله : محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد غيره الإيمان فصار حكيما وذا شفافية وإشراق يرى وجه الحق قبل أن يوحى به قرآنا يتلى مع أنه قد كان قبل الإسلام والصحبة على حال أخرى مغايرة . ولك فى مثل عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - خير مثل . ففى موافقات النظم الحكيم فى أكثر من حال ومقام خير شاهد .

والقريب والظاهر عود ضمير : (أنه الحق) . إلى العلم الذى أوتوه أى : ليزدادوا يقينا بأن الوحى الذى تلقونه هو الحق لا غيره مما ألقاه الشيطان من التشكيك والتضليل . فالقصر المستفاد من تعريف الطرفين قصر إضافى لذلك .

وذكروا أيضا عود الضمير إلى القرآن الكريم . أو إلى تمكين الشيطان من إلقاء وساوسه . وكأن المعنى على هذا : وليعلم العلماء أن ذلك التمكين هو الحق المتضمن للحكمة البالغة . لأنه مما جرت به سنة الله تعالى فى كل أمة ومع كل رسول(١) .

وعائد علم هؤلاء الذين أوتوا العلم ومفاده على كل تقدير إيمانهم بأن هذا هو الحق،ولذا عطف النظم الحكيم قوله تعالى: (**فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم**) . والمراد بإيمانهم هذا : مزيد ثباتهم عليه أو أنهم آمنوا بما نسخ تعالى وبما أحكم . فإيمانهم مراد به هنا إيمان خاص لما طرأ عليهم مما وسوس به الشيطان وأزاله تعالى وأبطله وأبان وجه الصواب . وهذا التوجيه أنسب وأليق فإن هؤلاء على الإيمان أصلا . وماداموا على هذا النحو من الإيمان . فإن قلوبهم مطمئنة خاضعة ومقرة

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٧٤ .

بأن من وراء كل أمر يجريه تعالى حكما وإن سترت إلى حين . وهذا مراد ما عطف على الإيمان للتجدد من هؤلاء فى قوله تعالى : **(فتخبت لهم قلوبهم)** على مثل ما تقدم عند قوله سبحانه : (وبشر المخبتين) .

وجملة قوله تعالى **(وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)** : حالها حال : **(وإن الظالمين لفى شقاق بعيد)** من حيث اعتبار التذييل والاعتراض .

فالمراد بالذين أوتوا العلم الذين آمنوا . أو بعض منهم . وهم الذين رسخت أقدامهم فى الإيمان واطمأنت قلوبهم به فصاروا يصدقون بكل ما يقع لأن علمهم الصادق الذى أوتوه يكشف لهم عن وجه الحكمة والصواب . وعلى هذا الاعتبار . فالذين آمنوا : أعم ممن أوتوا العلم فى هذا السياق . وبهذا تكون الجملة تذييلا مقررا لمضمون ما سبق . فإن يقين هؤلاء بأن ما كان من نزغ الشيطان . وما كان منه تعالى من النسخ والإحكام : هو الحق الصادر عن محض الحكمة البليغة : داخل فى هداية الله تعالى للذين آمنوا إذ قد حصل لهم بفضل ما أوتوه من علم ووحى : الذى هو هداية منه تعالى لأهل الإيمان بوساطة الرسل عليهم السلام .

فهذه الجملة المذيل بها : وعد منه تعالى صادق ومحقق لكل من آمن بأن يرشده إلى طريق الحق والصواب على نحو ما كان من حال أولى العلم .

وأما صريح كلام الكشاف : فالجملة اعتراض مؤكد لما قبله . حيث أول الهداية إلى صراط مستقيم بما ينصرف إلى خصوص ما سبق(١) .

وعلى ذلك فالذين آمنوا هم الذين أوتوا العلم . وقد جمع لهم الوصفان نظير ما فى قوله تعالى : **(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان)**(٢) . فظاهر المقام : إيراد ضمير الذين أوتوا العلم : غير أن السياق خالف ، وأظهر الذين آمنوا لقصد مدحهم بوصف الإيمان . وللاشارة كذلك إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم .

وأراك على ذكر من تصدير تلك الجملة بإن المؤكدة وكذا إقران الجملة المخبر بها عن هدايته تعالى باللام لغرض المبالغة فى تحقيق هذا الوعد الصادق . وأن ارشاد هؤلاء إلى طريق الحق . وإزالة الشبه والحيرة عنهم مكفول ماداموا على العلم والإيمان .

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٧ . (٢) سورة الروم الآية ٥٦٨.

وفى إظهار اللفظ الجليل مع هذه الجملة (الله) الدلالة على استقلالها وتربية المهابة فى النفوس : قصد المبالغة فى توطين هذا الأمر بهذا اللفظ الجليل الجامع . ولهذا الغرض من التوكيد أيضا : أوثر التعبير باسم الفاعل فى جانب هدايته تعالى فى هذا السياق (لهاد) إذ تدل الصيغة على ثبوت أمر الهداية حيث وصف بها تعالى على جهة الفاعلية المفيدة أن ذلك شأن بن شئونه .

وقد يلمح فى تنكير الصراط ووصفه فى هذا المقام : (صراط مستقيم) : معنى التعميم المناسب لهدايته تعالى فى كل ما يعن للمؤمنين . من شبه صادرة عن وساوس الشيطان . وهى دون ريب عديدة ومختلفة . وقد يقال : التنكير لتعين الصراط المستقيم المهديين إليه . إذ لا يهدون إلا لصراط الله تعالى الحميد . وأما أن يقال : إن التنكير هنا للتعظيم . فلا أكاد أرى النفس تميل إليه . حيث إن وصف الاستقامة المردف به أدل عليه سواء جاء على التنكير كما هنا . أو ورد على التعريف . كما فى قوله تعالى : **(اهدنا الصراط المستقيم)**(١) .

ولما بين تعالى حال الكافرين أولا ثم حال أولى العلم والإيمان ثانيا : عمد النظم إلى شرح حال الكافرين بالقرآن المجيد على وجه الخصوص . فبعد أن عمهم مع جملة الكافرين بالرسل عليهم السلام : خصهم هنا بأنهم يستمرون فى ارتيابهم فيما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ويترددون فى الإقدام على الإسلام إلى أن يحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة . أو بحلول عذاب مستأصل لا يبقى ولا يذر ، فالذين كفروا هنا بحكم السياق وتتابع جمله ومراعاة جانب الترتيب والتفصيل : هم مشركو العرب بقرينة : المضارع فى فعل (لا يزال) : وفعل (حتى تأتيهم) الدالين على استمرار ذلك فى المستقبل .

ولأجل ذلك قال جمع من أهل التفسير : إن ضمير : (فى مرية منه) عائد إلى القرآن الكريم . فمع أنه لم يسبق ذكر صريح لفظة إلا أنه مفهوم من المقام(٢) . وإن كان الأظهر عود الضمير إلى ما عاد عليه ضمير (إنه الحق من ربك فيؤمنوا به) .

وعلى كل حال فليس هذا النظم الجليل عودا إلى شرح حال الكفرة على إطلاق . كما يذكر الفخر(٣) .

---

(١) سورة الفاتحة : ٦ .
(٢) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٨٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ج٢٣ ص٥٦ .

الريب : الشك . أو هو أشده على ما يلمح من الفروق اللغوية بين الألفاظ التى ظاهرها الترادف .

والتعبير فى قوله تعالى : (ولا يزال) مفيد لمداومتهم على الشك : وإصرارهم عليه بعد ما كان مما يقتضى زواله بإحكامه تعالى الحق ونسخه الباطل المزين به الشيطان . ثم إن التعبير عنهم بالذين كفروا المؤذن بحدوث الكفر منهم . مع أنهم فى الحقيقة كفرة أصلا لما فى ذلك من رمز إلى أنهم بإصرارهم عليه ومداومتهم على العمل بمقتضياته : صاروا وكأنهم قد أحدثوا الكفر .

وكونهم (فى مرية) : دال على إحاطة الشك بهم . وانغماسهم فيه . فقد أفاد ذلك التجوز بالاستعارة المكنية : تصوير حال ريبهم وكأنه ظرف ومستودع . وهم قارون فيه ، ودليل هذا التصوير ورمزه لحوق حرف الظرفية : (فى) بالمرية .

وللدلالة على امتداد حال الريب عندهم وعدم انفكاكهم عنه جعل ريبهم موصولا إلى حلول يوم القيامة . أو بحلول العذاب بهم فى الدنيا . فهم على ريب فى الدنيا أبدا . وهذا التأبيد مأخوذ من وراء تعليق ريبهم بالساعة بحرف الغاية : (حتى) .

والساعة : القيامة نفسها . كما يؤذن به قوله تعالى : (بغتة) أى : فجأة فأنها الموصوفة بالاتيان كذلك . كما أن لفظ الساعة صار علما بالغلبة على يوم القيامة فى العرف الجارى عليه الاستعمال القرآنى ولذلك لا أرى داعيا لتكلف تخصيصه هنا بالموت على أن التعريف فى : (الساعة) للعهد أى : الساعة فيها وقوع الموت لكل منهم(١) .

وفى تقييد إتيان الساعة بحال البغتة : إفادة معنى أنها تأتيهم وهم لا يشعرون . فلا نذير يهيىء لهم زوال ما بهم ريب قبل حلول العذاب عليهم حينئذ. كما أنهم لا يستطيعون له رداً ، ولا يجدون لأنفسهم عنه مهربا .

وعطف إتيان عذاب يوم عقيم على إتيان الساعة : مشعر من أول الأمر بالمغايرة بينهما . ولذلك فسر بيوم الحرب على ما شاع من إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب(٢) .

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٧٥ .

(٢) البحر المحيط ج٦ ص٣٨٣

والعقيم : المرأة لا تلد استعير العقم منها للمشئوم . لأنهم كانوا يعدون المرأة هذه مشئومة . والمعنى : يأتيهم يوم يستأصلون فيه قتلا وكأن هذا إنذار بنحو يوم بدر(١) . بل خصه جمع من المفسرين به(٢) . ولا أرى داعيا لهذا التخصيص. فإن كان المراد بذلك ينصرف إلى ما يلحقهم فى الدنيا فإن ما أصابهم يوم بدر شىء منه . وإن كان الاحتمال الأقوى فيما أقدر بشهادة صريح السياق الكريم بعد : **(الملك يومئذ لله)** : صرف المراد بهذا اليوم إلى القيامة أيضا . ووصفه بالعقم لكونه لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده . فما لا يوم بعده يكون على هذا الاعتبار عقيما . كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها على اعتبار التغاير بين الساعة وعذابها وإن كان بينهما تلازم فى الحقيقة لوقوع العذاب فيها وبها . أو تحمل على معنى الواو وهذا أحد معانى هذا الحرف التى قد يدل عليها إذا اقتضى الغرض والسياق . وعلى كل حال فأن هذا التوجيه على وفاق وغرض المبالغة فى استمرارهم فى المرية وأما على التوجيه الأول . فالمراد أنهم لا ينفكون عن أحد الحالين فريبهم متصل إلى يوم القيامة أو إلى يوم يعذبون به فى الدنيا . وإن كان يلحظ أن تأخير عذاب اليوم العقيم مما يرشح كذلك الحمل على ما يحل بهم فى الآخرة .

وقد أفاد دخول : (حتى) دوام مريتهم إلى يوم القيامة وإيقاع عذابها عليهم فكأن المعنى : يستمرون فى ريبهم حتى تأتيهم القيامة فيزول ريبهم فإنهم الآن يشاهدون الأمر الأمر عيانا . وحينئذ جاء النظم الحكيم ببيان أن مرد الحكم كله إلى الله تعالى فى ذلك اليوم . فأنه لا مالك هناك سواه بخلاف أيام الدنيا التى ملك الله تعالى فيها بعض الأمور لبعض عباده . ثم يكون حكمه تعالى الفاصل بين عباده على ما يوافق حال كل منهم عدلا منه تعالى وفضلا وفى ذلك .

يقول الله تعالى: **(الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين. والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم .) . (٥٦-٥٩) .**

---

(١) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٠٨ . (٢) روح المعانى ج١٧ ص١٧٥ .

فحيث أذنت العبارة فى قوله سبحانه وتعالى : **(حتى تأتيهم الساعة بغتة)** : أن ذلك ميقات زوال ريبهم . فكأن ذلك أنشأ سؤال سائل عن صورة زوال المرية عنهم . وعما يكون لهم عند زوالها . فاقتضى المقام أن يجاب السؤال المقدر بهذا التركيب : **(الملك يومئذ لله يحكم بينهم .. إلى آخره)** لما فى ذلك من تفصيل الأحوال . فهذا الكلام وارد على طريق الاستئناف البيانى كما هو عرف أهل البلاغة فى مثل هذا المقام .

وتقدير مضاف : (يومئذ) المعوض عنه بالتنوين : يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة . وظهور أن وعده تعالى ووعيده هو الحق . أو التقدير : يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة . على ما هو المتبادر . وعليه عول الآلوسى ورد غيره(١) . وإن كان صاحب الكشاف قد اقتصر على التوجيه الأول أو على ما يؤول إليه .

والتعريف فى (الملك) : تعريف الجنس . فدلت جملة : (الملك يومئذ لله) على أن ما هية الملك مقصورا يومئذ على الكون ملكا لله على نظير المعنى فى مثل قوله تعالى : (الحمد لله) (٢) . أى : لا ملك لغيره تعالى يومئذ لا حقيقة ولا صورة .

وأما جملة : (يحكم بينهم) : فاستئناف بيانى آخر إذ هى واقعة جواب سؤال نشأ عن الإخبار بكون الملك فى ذلك اليوم لله تعالى . وضمير الجمع المتصل بالظرف : (بينهم): للفريقين باعتبار ما تحت كل فريق من أفراد . وهم الذين سبق بيان أحوالهم فيما قبل . كما اشتمل التفصيل اللاحق عليهم أيضا . والحكم بينهم : الفصل فيما اختلفوا فيه من قول كل فريق أنه على الحق . وأن ضده على الباطل . الدال عليه قوله سبحانه وتعالى فيما سبق : (وليعلم الذين أوتوا العلم .. الآية . وقوله : (ولا يزال الذين كفروا .. الآية . وسواء كان الحكم بينهم قولا . أو يكون بظهور آثار الباطل فذلك من الغيب الذى لا ينبغى لمن يتعاطى التفسير الجزم بتعيين المراد منه كما هو دأب بعض المفسرين(٣) . فالمهم أن الحق تعالى قد فصل بينهم بحكمه الناشىء عن علمه المحيط بسائر أحوال ما كان ووقع من الجميع .

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٨٦ . (٢) سورة الفاتحة الآية ٢ .

(٣) ينظر روح المعانى ح ١٧ ص١٨٧ .

وقد قضى حكمه تعالى العدل المغايرة فى الجزاء على وفق الحال التى كان عليها كل فريق ولهذا جاء التفصيل : (**فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم)** فهذا حكم الله تعالى فى هذا الفريق . فهو الذى كان على الحق . وهذا حال جزاءه .

وإضافة النعيم إلى الجنات من حيث اشتمالها عليه ، وتعريف النعيم هنا إشارة الى أنه هو النعيم الحق . أو لقصد استيعاب صنوفه وألوانه . ولك اعتبار الأمرين معا . فإن فى الجنة ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهى كذلك مشتملة على النعيم الكثير .

ولا تغفل عما وراء تعليق مستقر أهل الإيمان بحرف الظرفية : (فى جنات) : ففى ذلك مزيد دلالة على استقرارهم فى الجنة وتمسكهم من التنعيم بما فيها . وهذا المعنى يفوت ، أو شىء منه لو قيل هنا : (لهم جنات) وإن تحقق معه غرض آخر جليل يناسب مقاما آخر كما سبق مثله .

وإذ قد ظهر حال هذا الفريق . وما تفضل الله تعالى به من ثواب . جاء النظم الكريم ليذكر ما للفريق المقابل وفاء بحق التفصيل : (**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين**) .

وعطف فعل التكذيب على فعل الكفر موح بأنه قد كان عليهم التصديق واليقين لظهور الدلائل . ولكنهم آثروا طريق التكذيب والجحود بكل آية تأتيهم لتكشف ما اشتبه أمره. فهم قد كفروا واستمروا على كفرهم . وبذلوا الجهد فى العمل بمقتضاه من التكذيب . ولو اقتصر على أمر الكفر لما أفيد كل ذلك المعنى المستفاد من هذا السياق .

وافتتاح الخبر عن الكفرة المكذبين . باسم الاشارة : (**فأولئك لهم عذاب مهين)** للتنبيه على أنهم استحقوا ذلك العذاب لما كانوا عليه من كفر وعناد . هذا فضلا عن ما يفيده اسم الإشارة من استحضار المتحدث فى شأنه ليكونوا على مشهد مما سيحل بهم من عذاب وذلك أنكى فى مثل هذا الباب .

والمهين : المذل المخزى . أى : نقدر لهم عذابا مشتملا على ما فيه مذلتهم مع إيلامهم . كالضرب بالمقامع ونحوه بما سبق فى بيان تلك السورة المباركة . وما فى اسم الاشارة من معنى البعد : للإيذان ببعد المنزلة فى مثل الشر والفساد .. «واقران جملته بالفاء : لما تضمنه التقسيم من معنى حرف التفصل» الذى هو فى الأصل : (أما) . كأنه قيل : (وأما الذين كفروا) ، لأنه لما تقدم ثواب الذين

آمنوا كان المقام مثيرا لسؤال من يترقب مقابلة ثواب المؤمنين بعقاب الكافرين المكذبين . وتلك المقابلة من واقع حرف التفصيل(١) . وجيء فى التعبير عن جزاء هؤلاء الكفرة : (لهم عذاب مهين) بلام الاستحقاق . وكان مقتضى الظاهر فى عذاب مهين . كما قيل من قبل مع ثواب أهل الايمان : (فى جنات) . وذلك : للدلالة على أن تعذيب أولئك الكفرة مستحق لهم بسبب قبائحهم، ولذا جيء باسم الإشارة لتعيين هؤلاء بأوصافهم كما تصدرت الفاء جملة الإخبار عنهم مع تجريد خبر الموصول الجارى على أهل الايمان للإشعار بأن إثابة المؤمنين بطريق الفضل منه تعالى ، لا بمقتضى أعمالهم . ولا يتنافى فى ذلك نظير قوله تعالى: (فلهم أجر غير ممنون) (٢) لأنها بمقتضى وعده تعالى على الإثابة عليها قد تجعل سببا ولو من حيث ظاهر الحال (٣) .

ويلحظ المتتبع لخواص البيان القرآنى المعجز أنه لم يشأ أن يذكر هنا وصف هؤلاء الكفرة بعمل السيئات مثلما كان الحال مع أضدادهم المؤمنين حيث وصفوا بعمل الصالحات . ولعل ذلك لظهور عدم اتصاف الكفرة بغيره ، للمبالغة فى تهويل أمر هؤلاء حيث أخبر سبحانه أن للمتصف بمجرد الكفر عذابا مهينا . ولو ذكر هذا الوصف لأفاد أن ذلك العذاب لمن اتصف بمجموع الأمرين بما يضعف قصد التهويل . وعلى كل حال فقد اقتضى المقام حذف مع الكفرة وذكرها مع أهل الإيمان . أو يقال : بل جعل التكذيب المقرون بكفرهم : قائما مقام ذلك الوصف بعمل السيئات . إذ ليس أسوأ منه . فهو رأس العمل السيء كله . حتى وإن كان الآلوسى قد هون من أمر هذا التوجيه وجعله قرين القول بالاحتباك . وأنهما خلاف الظاهر .

والإنصاف يقضى بالتفريق بين التوجيهين . فإن اعتبار طريق الاحتباك لا يخلو من تكلف ظاهر فى هذا السياق . إذ عليه يقدر أصل الكلام : فالذين آمنوا وصدقوا بالآيات وعملوا الصالحات فى جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بالآيات وعملوا السيئات فأولئك لهم عذاب مهين . فحذف من الأول ما دل عليه بما ذكر فى الثانى . كما حذف من الثانى ما دل عليه بما ذكر مع الأول .

---

(١) التحرير والتنوير ح ١٧ ص ٣١ .

(٢) سورة التين الآية ٦

(٣) روح المعانى ح ١٧ ص ١٧٧ .

وللاحتكاك بلاغته دون ريب . وهو من ضروب الحذف إيجازا على نحو بديع . غير أن له مواقعه ، ولا أرى ما نحن فيه منه . إذ لا حاجة تدعو إلى تكلفه مادام هناك ما هو أيسر ، فإن اعتبار أمر التكذيب الوارد مع الكفرة مقابلا العمل الصالح يفيد المراد هنا .

وإذ قد أريد بالذين آمنوا فيما سبق فقد عمد النظم الحكيم من بعد إلى حال ومآل من هاجر منهم وقتل جهادا أو مات على وجه التخصيص تنويها بشأن الهجرة والجهاد فيقول سبحانه وتعالى : **(والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ..)** .

وظاهر الكلام العموم . فلا حاجة إلى تكلف تخصيصه بمعين أو بطائفة وما أثر فى ذلك يحمل على دخوله فى هذا العموم . ثم إنه سبحانه وتعالى : وصفهم بطيب الرزق وطيب المسكن .

فأما الرزق ففى قوله تعالى : **(ليرزقنهم الله رزقا حسنا ..الآية)** والمراد به هنا نعيم الجنة . لا ما قيل من أنه العلم والفهم نظير ما ورد إخبارا عما كان من مخاطبة شعيب عليه السلام قومه فى قوله تعالى : **(ورزقنى منه رزقا حسنا)**(١) فإن هذا سياق آخر فإن الجملة المبدلة . وهى قوله تعالى : **(ليدخلنهم مدخلا يرضونه)** نص فى المراد به . وهو العطاء الذى لا ينقطع من نعيم الجنة . ولا يقال : إن ذلك لا يخص من هاجر فقتل أو مات . وإنما لجملة المؤمنين . لأن المقصود من تخصيصهم بالذكر مدحهم والثناء عليهم . كما قد يفهم من وراء تنكير (رزق) معنى التنويع على أن يكون المراد نوعا خاصا من رزق الجنة ونعيمها(٢) .

والأقرب والأوضح أن المراد تشريفهم بتبشيرهم بهذا الوعد الصادق . ولقصد المبالغة فيه اقترن بالتوكيد القسمى . وهذا فى ذاته واف بحق الأفضلية على سائر المؤمنين .

ووصف الرزق بالحسن لإفادة أنه يرضيهم بحيث لا يتطلبون غيره لأنه لا أحسن منه وظاهر السياق الكريم:التسوية بين من هاجر وقتل جهادا وبين من هاجر ومات

---

(١) سورة هود الآية ٨٨ . (٢) روح المعانى ج١٧ ص١٨٨ .

وبعد أن وصف رزق هؤلاء بالحسن . أردف تعالى بما يبين وجه حسنه : **(وإن الله لهو خير الرازقين)** على جهة التذييل المقرر المضمون ما قبله . وفى موقع الاعتراض بين ما سبق وبين ما يأتى فى قوله تعالى : **(ليدخلنهم)** الذى هو فى موقع البدل من جملة الرزق . ومن هنا شاع القول بالتذييل والاعتراض لحصول الاعتبار الموجه عليه كل ، ومن هنا كذلك شاع فى كثير من مصادر التفسير إطلاق : الاعتراض التذييلى فى مثل تلك المواقع حيث يكون المسوغ لاعتبار الحملين على نحو ما مر من إيضاح مثله قريبا . وإن كنت لا أعلم ما وراء عدم تنبيه البلاغيين على أمثال ذلك ، حيث تفرد المصادر والدراسات البلاغية لكل من النوعين بابا على حدته وهذا مفهوم ومقبول . غير أنه ينبغى فيما أقدر التنبيه على أمثال تلك المواقع التى تتداخل معها الاعتبارات وتتراوح وكذا تلك الضروب الملتبسة والتى لا سبيل إلى تجلية أمرها على الوجه الأليق إلا بالتماس المقامات وأغراض الكلام . وهذا إنما يكشف عنه التحليل الواعى المستبصر ما وراء الألفاظ والتراكيب .

والأهم الآن أن تلك الجملة وإن كان صريحها الثناء على الله تعالى . فإن كنايتها الدلالة على أن ما يفيض به تعالى على هؤلاء من رزق إنما هو خير الأرزاق لصدوره عن خير الرازقين .

وفى توكيد التركيب على هذا النحو حيث صدر بإن . مع ذكر ضمير الفصل مصاحبا للام التوكيد تصوير بليغ لطيب رزقه تعالى ومزيد تحقيق لهذا الخبر الصادق .

وأما ما يتصل بمسكنهم فمذكور فى قوله تعالى «**ليدخلنهم مدخلا يرضونه** » .

والمدخل بالضم : الإدخال . وأما بالفتح : فمكان الدخول . ولا شك فى إن المراد بمكان الدخول : الجنة . والمدخل هو الله تعالى . وفى إيقاع : يرضونه وصفا لمدخل : إشارة إلى طيب المنزل وسرورهم حيث يجدون فى الجنة ما يبغون وما يشتهون فيرضونه لذلك ولا يبغون عنه حولا ، فقد طابت نفسهم» .

ثم اختتم النظم الحكيم بوصفه تعالى بوصفى العلم والحلم على وجه المبالغة فى سياق التوكيد « **وإن شاء الله لعليم حليم** » .

وإيثار هذين الوصفين على الخصوص في السياق لحصول المناسبة بينهما وبين الكلام السابق واللاحق لهما كذلك . فإنه تعالى منّ عليهم بالمدخل الذى يرضى هؤلاء فيتفضل به عليهم أو لعلمه بحالهم وحال أعدائهم من المشركين الذين اخطروهم إلى الهجرة فرار بدين الله تعالى .

كما أنه سبحانه حكيم بأعدائه وأعدائهم فلا يعاجل بالعقوبة . وبهذا يظهر وجه مناسبة هذا الوصف لما جاء في عقبه من قوله تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب».. الآية .

وعلى ذلك فإن هذه الفاصلة على حدتها إعجاز من الإعجاز البيانى للنظم الكريم حيث ورد معها وصفا العلم والحلم . وقد ناسب الأسبق منهما ما سبق على أتم وجه . كما ناسب التالى ما تلاه من كلام على أكمل حال وعلى هذا النحو البليغ والبديع .



وإذ أبان النظم الجليل فيما سبق عظيم ثواب من آمن على وجه العموم وكذا من هاجر أو قتل ومات من أهل الإيمان على وجه الخصوص ، أعقب الحق بما يبين عن أن ادخار ذلك لهم فى الآخره لايحول دون الانتقام لهم من أعدائهم فى الدنيا فقال جل شأنه : « **ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ، ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ، ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير** » . (٦٠ - ٦١ - ٦٢) .

وإسم الإشارة المصدر به النظم الجليل للفصل بين الكلامين لفتا لأذهان السامعين إلى ما سيجئ بعده ، حيث إن ما قبله غير صالح لأن يخبر به عنه وقد تقدم لذلك أكثر من نظير .

والمتبادر من السياق والمساق أن الحكم المقضى به فى هذا النظم الجليل يعم كلا من الذين آمنوا ومن هاجر منهم وقتل أو مات فقد تقدم ذكر الفريقين كما يدل عليه (لينصرنه الله) إذ بعد القتل أو الموت لا يتصور حصول تلك النصرة فى الدنيا حتى يقال برجوع المعنى إلى خصوص المهاجرين .

ثم إن الظاهر المتبادر من السياق والمساق كذلك أن المراد بالعقوبة هنا ينصرف إلى مثل ما كان يفعله مشركو مكه مع أهل الإيمان من تعقب آثارهم ورد بعضهم إلى مثل ذلك فبين تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفرة بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم وهذه النصرة الموعود بها وعد الصدق ترشح تأويل حمل المراد على الجهاد لا على الاقتصاص ومطلق الجناية وإن كان اللفظ فى ذاته له مما دفع كثيراً من أهل التفسير إلى الحمل عليه غير أن ظاهر النسق الكريم لا يليق به كما أن فى مأثور أسباب النزول ما يستأنس به على ترجيح الحمل الأول .

ووطّى ذلك الغرض من هذا النظم الكريم - والله أعلم بمراده - التهيئة للجهاد والوعد بالنصرة المشار إليها فيما سبق في قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »[(١)] إلى قوله تعالى « .. ولينصرن الله من ينصره ..)[(٢)] فإنه قد جاء معترضاً في خلال النعي على تكذيب المكذبين وكفرهم النعم فأكمل الغرض الأول بما فيه من انتقالات . ثم عطف الكلام إلى الغرض الذي جرت منه لجة فعاد الكلام هنا إلى الوعد بنصر الله تعالى القوم المعتدى عليهم كما وعدهم من قبل بأن يدخلهم في الآخرة مدخلاً يرضونه [(٣)] فكأنه سبحانه وتعالى يقول : (مع إكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم)[(٤)] .

ومدلول (من) الموصولة هنا العموم لقوله جل ثناؤه فيما مضى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..)[(٥)] فنبه تعالى على أن القتال المأذون فيه هو قتال جزاء على اعتداء سابق كما دل عليه كذلك قوله تعالى (بأنهم ظلموا) وأما تغيير أسلوب الجمع في قوله سبحانه .(أذن للذين يقاتلون) إلى أسلوب الإفراد هنا في قوله تعالى .. (ومن عاقب) فللإيماء إلى قصد العموم من هذا الكلام لكونه بمنزلة القاعدة الكلية لإحدى سنن الله عز وجل وقدر في الأمم ، ولما جئ في الصلة هنا بفعل (عاقب) مع قصد عموم الصلة للذين أذن لهم في القتال بسبب ما وقع عليهم من ظلم ، علم أن القتال المأذون لهم به قتال جزاء على اعتداء بظلم سبق .

وما دام الكلام والغرض موصولاً بأحاديث القتال جهاداً بقصد دفع أذى أولئك الكفرة الباغين والتمكين لدين الله تعالى في أرضه، فلا أكاد أرى المثلية في المعاقبة هنا مراداً منها كون العقاب مماثلاً للعدوان المجزى عليه أي لا يكون أشد منه بل من جنسه وعلى قدرها على ما فسره به أكثر أهل هذا الشأن[(٦)] نظير ما في قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها)[(٧)] فإن القول بمثل ذلك

---

(١) سورة الحج آية ٣٩ (٢) سورة الحج آية ٤٠.
(٣) ينظر التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٣١٢ (٤) تفسير الفخر الرازي ج ٢٣ ص ٦٠.
(٥) سورة الحج آية ٣٩ (٦) تفسير الفخر ص ٦٠ روح المعاني ج ١٧ ص ١٨٨
(٧) سورة الشورى آية ٤٠.

لايتسق والغرض الذى ارتضيناه بمعونة السياق ومأثور أسباب النزول فأمر المثلية مع مطلوب الجهاد مختلف ، فهو ليس قتالاً مبتدأ به ، إنما هو دفاع ورد وإلا فكيف تفهم أيات الكتاب العزيز تتوارد تبعث المؤمنين على بالغ المجاهدة ، وآيات سورة الأنفال صريحة فى نفى معنى المماثلة على المعنى المقول به (١). فذلك مقضى به فى سياق عقاب الجنايات والاقتصاص لا عقاب أهل الشرك والكفر . وهذا محمول على الجهاد والانتصار لدين الله تعالى فلما كان القصاص على جرم خاص وقع فى حق المأذون له بمقتضى الحكمة والعدل عدم الإفراط . إنما يتوخى المماثلة فلا يتجاوز ولا يزيد . ولكن لما كان الجرم الواقع من هؤلاء المأذون بقتالهم جرماً عاماً لتعلقه بحق الله تعالى فى التوحيد وحقه تعالى كذلك فى التمكين لدينه فى أرضه وبين عباده تحقيقاً لمقصد الخلق كان مقتضى الحكمة والعدل أن تكون المثلية فى المعاقبة على معنى يليق أيضاً .

وتسمية الاعتداء المبتدأ به من قبل المشركين على المؤمنين .. عقاباً فى قوله تعالى : « **بمثل ما عوقبت به** » لأن الذى دفع هؤلاء الكفرة إلى الإعتداء قصد العقاب على زعمهم أن المعتدى عليهم قد استوجبوا بإسلامهم وخروجهم عن الشرك وعبادة الأصنام العقاب على ذلك الجرم المزعوم .

وأما أمثال الزمخشرى والفخر فاللفظ جار عندهم على طريق المجاز المرسل فإن الابتداء بالعقوبة لما كان سبباً للعقاب أطلق عليه لفظه مجازاً مرسلاً لعلاقة السببية نظير قوله تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ...** » (٢) وحمله أمثال أبى السعود على بديع المشاكلة حيث عبر عن الإعتداء بلفظ المعاقبة لوقوعة فى صحبته (٣) وأما ما نقلة الآلوسى منسوباً إلى بعض المحققين بما ينتفى معه اعتبار مجاز البيان ومشاكلة البديع بناء على أن العرف جار على إطلاق هذا اللفظ على ما يعذب به وإن لم يكن جناية (٤) فيفتقر إلى التحقيق ، حيث إن أمر العرف واعتبار ما جرى عليه بمعزل

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٦٤ ، ٦٥

(٢) سورة البقرة الأية ١٩٤ وينظر الكشاف ص .٢ ومفاتيح الغيب ص .٦

(٣) ينظر فى إرشاد العقل السليم جـ ٦ ص ١١٦

(٤) ينظر روح المعانى جـ ١٧ ص ١٨٩

عن باب المجاز مما يقبل النقاش . وإن كنت الآن لست بصدد أن أثير حواره خشية أن يصرفنا الاستطراد عما نعنى به أصلاً فلنعد إليه حيث نلحظ ذكر حرف الباء وتكررها فى قوله تعالى : « **بمثل ما عوقب به** » فقد صاحبت وتصدرت لفظى المثلية والضمير ، والقريب الظاهر حمل معنى الباء فى الموضوعين على السببية كما وجه به أبو البقاء [١] غير أن الشهاب جعل الأولى منهما آلية لئلا يتكرر معنى السببية [٢] . وأما العلامة الآلوسى فالمنساق إلى ذهنه النابه لا القاصر حسب عبارته . كون الباء فى الموقعين للآلة [٣] ولا يمنع وصفى إياه بما ذكرت لا بما ذكر هو ميلى عن توجيهه لبعد المعنى عليه على ما سبق من شرح وبيان مستمد من السياق والقرائن .

و (ثم) المصدر بها ما عطف فى قوله تعالى : « **ثم بغى عليه** » على ما سبق مفيدة لمعنى التراخى الرتبى لا الزمنى ، فإن البغى عليه أهم من كونه عاقب بمثل ما عوقب به ، إذ كان مبدوءا بالظلم كما يقال : البادئ أظلم ، فكان المشركون محقوقين بأن يعاقبوا لأنهم بغوا على المسلمين .ومعنى الآية الكريمة فى معنى قوله سبحانه : « **ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ..** » [٤] فهذا شرع لأصول الدفاع عن الدين ، وأما آيات الترغيب فى العفو فمقامها ما نزل شرعاً لمعاملات الأمة على ما أوضحت قبل حين ، ثم أكد الحق تعالى النصرة لتلك الفئة المؤمنة إذا هم امتثلوا ما أذن به فعاقبوا بمثل ما عوقبوا به ، على ما أسلفت آنفاً فى معنى المثلية هنا. وإن وقع لكثير من المفسرين كلام ينبئ عن عدم الفصل بين المقامات[٥] فليس ذكر وصفى العفو والمغفرة فى قوله تعالى : « **إن الله لعفو غفور** » إيماء إلى الترغيب فى العفو عن المشركين . بل التركيب تعليل للوعد بجزاء المؤمنين اتباعاً للتعليل السابق فى قوله تعالى : « **وإن الله لعليم حليم** » فالكلام لا يزال فى شأنهم [٦]

---

(١) التبيان فى إعراب القرآن جـ * ص ٩٤٦ (٢) حاشيه الشهاب جـ ٦ ص ٣٠٩
(٣) روح المعانى جـ ١٧ ص ١٨٩ (٤) سورة التوبة آية ١٣
(٥) ينظر إرشاد العقل السليم جـ ٦ ص ١١٦ روح المعانى ج ١٧ ص ١٨٩ - ابن كثير جـ٣ ص ٢٢٢
(٦) التحرير والتنوير جـ ١٧ ص ٢٧٥

ولعل أقرب ما ذكره الفخر من وجوه حمل هذا التركيب : أنه تعالى دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة ، لأنه لا يوصف بالعقوبة إلا القادر على ضدها [(١)] وإظهار الإسم الجليل فى مقام الإضمار للإشارة إلى أن ذلك من مقتضى الآلهية .

وقد رد صاحب البرهان أمر تقديم وصف (عفوّ) على (غفور) إلى رعاية الفواصل نظير ما فى قوله سبحانه : (وكان رسولاً نبياً) [(٢)] وإن كانت القاعدة فى علم البيان تأخير ما هو الأبلغ . فإنه يقال . عالم نحرير وشجاع باسل [(٣)] نعم إن فى تأخير وصف المغفرة ملاءمة لفواصل الآيات الكريمة بعد غير أنه يلحظ مع كل من الوصفين معنى يزيد به على صاحبه ففى المغفرة معنى التغطية والستر وصيانة الله تعالى لمن شاء من عباده من أن يمسهم العذاب » وبذلك كانت المغفرة دعوة الرسل والأنبياء عليهم السلام وكذا الصالحون من لدن آدم إلى يومنا هذا [(٤)] وفى العفو معنى المحو والإزالة [(٥)] فاجتمع بما فى الوصفين من ستر الذنوب ومحو الآثام تمام الرضوان منه تعالى وكمال الرجاء من العباد . وعلى ذلك الإعتبار فلا أبلغية لأحد الوصفين على الآخر حتى يكون الكلام هنا جارياً على خلاف مقتضى الترقى فى الأوصاف . ومع التسليم بزيادة معنى العفو فالكلام جار على طريق التنقل فإذا كان من سنن الاستعمال القرآنى فى تعداد الأوصاف الترقى من الأدنى منها إلى الأعلى فمن عرف استعماله الجارى كذلك التنقل من الأعلى إلى الأدنى ولكل بلاغته حسب موقعه ومقتضيات أحواله ثم إنه يلحظ تأخير المغفرة عن العفو فى العرف الذى جرى عليه الكلام فى الدعاء وغيره، وفى القرآن أيضاً نظير ما فى قوله تعالى : « فإن الله كان عفواً غفوراً » [(٦)]

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٣ ص ٦٠.

(٢) سورة مريم ٥٤

(٣) البرهان والتنوير فى علوم القرآن جـ ٣ ص ٢٧٥

(٤) ينظر بصائر ذوى التمييز جـ ٤ ص ١٣٦

(٥) المفردات ص ٣٤٠.

(٦) سورة النساء الآية : ١٤٩ .

وقد أشكل أمر تعلق ما سبق بما جاء بعده فى قوله تعالى : « **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ... الآية** » فتعددت تخريجات أولى العلم والتفسير لأمر المناسبة والتوجيه لذكر الليل والنهار والإيحاءات من وراء ذكر إيلاج أحدهما فى الآخر وإن لم يسلم كثير مما قيل من نوع تكلف يغنى عنه ما هو أوضح ، وإن كان بعض ما ذكر صحيحاً فى ذاته ، ومن حيث النظر العقلى غير أن إعتبار الأوضح والأليق بالسياق ومقتضيات أحواله يظل دائماً الأقرب والأولى فى جانب البحث عن الإعجاز البيانى فى النظم القرآنى .

ولعل أقرب ما يقال فى هذا الشأن أن إسم الإشارة المصدر به النظم الجليل ليس مراداً به الفصل بين الكلامين نظير شبهه المآر مع الآية الكريمة قبل ، بل الإشارة به هنا إلى الكلام السابق الدال على ضمان النصر . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد رتبته . لا ما قيل من كونه كذلك لعدم ذكر المشار إليه صريحاً (١)

ولأن النصرَ المشار إليه يقتضى تغليب أحد الضدين على ضده إقتحام الجيش فى الجيش الآخر في الملحمة ضرب الله تعالى لذلك الأمر مثلاً : تغليب مدة النهار على مدة الليل زمناً وتغليب مدة الليل على النهار زمناً آخر ، كما هو مقور من اشتهار التضاد بين الليل والنهار . أى الظلمة والنورَ ، وعلى ذلك فاسم الإشارة فى هذا السياق على أصل استعماله وقد أخبر عنه بما بعده .

والإيلاج : الإدخال مثل به اختفاء ظلام الليل شيئاً فشيئاً عند بزوغ نور النهار وكذا العكس ، تشبيهاً لذلك التصيير بإدخال جسم فى جسم آخر واستعارة الإيلاج لذلك المعنى استعارة بديعة وواقعة موقعها ، لأن نقص ظلمة الليل يتحصل تدريجياً كما أن نقص ضوء النهار يتحصل كذلك فأشبه هذا إيلاج شئ فى شئ . إذ يبدو دخوله فيه شيئاً فشيئاً .

والباء المقترنة بحرف التوكيد (بأن) للسببية . أى . لا عجب فى النصر الموعود به أهل الإيمان على أولئك الكفرة مع قلة المؤمنين آنذاك ، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حيناً بعد أن كان أمرهما على العكس حيناً آخر لقادر على تغليب الفئة القليلة على الفئة الكثيرة إذا أذن الله تعالى فكأن مآل المعنى : ذلك بأن الله قادر على نصرهم .

---

(١) ينظر روح المعانى جـ ١٧ ص ١٥٩

والجمع بين ذكر إيلاج الليل فى النهار . وإيلاج النهار فى الليل على هذا النحو جار على ما يعرف عند البلاغيين بأسلوب العكس والتبديل ، ولهذا الطريق من البديع مغزاه وبلاغته فى موقعه وسياقه فليس أمراً لفظياً دائماً كما حكم عليه صاحب البرهان [١] بل يكون من وراءه أغراض ومقاصد كالذى نحن بسبيله إذ القصد الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالباً ويصير ذلك الغالب مغلوباً مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المضادة وتمام هذا المراد لا يتحقق على وجهه الأبلغ إلا بذكر التركيبين على هذا الوجه من التقابل . إذ لو اقتصر على أحدهما لما فهم صريحاً ما عليه حال الآخر . ثم إن فى هذا إدماج التنبيه على أن العذاب الذى استبطأه المشركون وأوردت السورة الكريمة حكاياتهم عنه فيما سبق [٢] منوط بحلول أجله . وما الأجل إلا إيلاج ليل فى نهار ونهار فى ليل .

وفى ذكر الليل والنهار فى هذا المقام أيضا إدماج تشبيه الكفر بالليل . والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد فصاحبه مثل الذى يمشى فى ظلمة وقد جرى الاستعمال القرآنى على استعارة مادة الظلمة أفراداً وجمعاً للكفر والضلال . سوى موضع الأنعام (٣) حيث قصد به ما قابل النور حقيقة . وأما الإيمان فنور ينكشف به الحق والإعتقاد الصحيح فكأن صاحبه يمشى فى النهار فكان فيما ذكر إشارة إلى ظهور دين الحق بعد ظلمة الإشراك ولهذا ابتدأ النظم الحكيم بإيلاج الليل على النهار وجاء قوله سبحانه ويولج النهار فى الليل بقصد التتميم لإبراز تمام القدرة الإلهية .

وعند الزركشى أن تقديم الليل على النهار لسبق الليل زمناً ووجوداً واستشهد لذلك [٤] وعلل بأن العرب اختارت التاريخ بالليالى دون الأيام . وإن كانت الليالى مؤنثة والأيام مذكرة . وقاعدتهم تغليب المذكر إلا فى التاريخ .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جـ ٣ ص ٢٩٢
(٢) سورة الحج آية ٣٤٧
(٣) سورة الأنعام آية ١
(٤) سورة الإسراء ١٢ وسورة سبأ ٣٣ ، ١٨ ، وسورة الروم ١٧

ثم يقول صاحب البرهان (فما تصنع بقوله تعالى : (**لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار**)[1] قلت : استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام فى قواعده [2] بالإجماع على سبق الليلة على اليوم . وأجاب بأن المعنى : تدرك القمر فى سلطانه وهو الليل أى لا تجئ الشمس فى (أثناء) الليل فقوله بعده (**ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون**) [3] أى لا يأتى فى بعض سلطان الشمس وهو النهار وبين الجملتين مقابلة .

فإن قيل : قوله تعالى « **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** » مشكل على هذا لأن الإيلاج إدخال الشئ فى الشئ . وهذا البحث ينافيه . قلت : المشهور فى معنى الآية : (أن الله تعالى يزيد الليل فى زمن الشتاء مقداراً من النهار ومن النهار فى الصيف مقداراً من الليل . وتقدير الكلام :يولج بعض مقدار الليل فى النهار . وبعض مقدار النهار فى الليل . وعلى غير المشهور يجعل الليل فى المكان الذى فيه النهار . ويجعل النهار فى المكان الذى فيه الليل والتقدير يولج الليل فى مكان النهار . ويولج النهار فى مكان الليل[4]

وعطف (وإن الله سميع بصير) على الجملة السببية قبله : للإشاره إلى علم الله تعالى بالأحوال كلها فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنه ناصره لامحالة إذ لا بد للناصر من القدرة على نصر المظلوم . ومن العلم بأنه كذلك والسمع والبصر من وسائط ذلك العلم فكان الإخبار عنه تعالى بهذين الوصفين فى هذا الموضع كما أنه يلحظ وجه مناسبة بين هذين الوصفين عقب ذكر الليل والنهار . ومن ثم ذيل بهما الحق آيتى القصص فى قوله تعالى « **من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون** » وقوله تعالى « .. **من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** »[5].

---

(١) سورة يس ٤.

(٢) القواعد الكبرى فى فروع الشافعية للشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ذكره صاحب كشف الظنون وقال : ليس لأحد مثله وكثير منه مأخوذ من شعب الإيمان للحليمى وله القواعد الصغرى أيضاً .

(٣) سورة يس الآية ٤.

(٤) البرهان جـ ٣ ص ٢٤.

(٥) سورة القصص آية ٧١ ، ٧٢

وحيث دل هذا الكلام والذى سبق على كمال قدرته وتمام علمه تعالى عقب الحق بما يزيد الأمر تثبيتاً وتوكيداً فجاء قوله جل وعلا « **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ..** »

واسم الإشارة هنا فى معنى الذى سبقه . فهو كالتكرير له . ومن ثم جرد عن العاطف . وقد أخبر عنه تعالى هنا بأمر آخر لنصر المؤمنين بأن الله سبحانه هو الإله الحق الذى إذا أراد فعل وقد وعد بنصر أوليائه . وأما ما يعبده المشركون آالهة من دون الله تعالى فهو الباطل . إذ لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون وعلى محمل أكثر المفسرين فالباء المصاحبة لما أخبر به عن اسم الإشارة (بأن الله هو الحق) للسببية [١] على مثال نظيرتها فى الآية السابقة . ولعل الأظهر هنا توجيهها على معنى الملابسة كما هو الحال فى نظيرتها فى سورة لقمان ليتسنى عطف (**وأن ما تدعون من دونه هو الباطل**) .

والحق الثابت المطابق للواقع . مأخوذ من حق الشئ إذ ثبت أى إنه تعالى الحق فى الإلهية ومقتضياتها . فالقصر المستفاد من هذا التركيب قصر حقيقى وأما القصر الحاصل بالتركيب بعده : (**وأن ما يدعون من دونه هو الباطل**) فهو قصر ادعائى ، لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتى لكأن غير معبودات هؤلاء ليست من الجنس الباطل أصلاً وإن كان كل عبادة لغير الله من هؤلاء وغيرهم باطلاً فى الحقيقة وذات الأمر فما هنا وارد على سبيل المبالغة بقصد تحقير أصنامهم لأن المقام مقام مناضلة وتوعد وإلا فسائر معبودات غير هؤلاء من الباطل كذلك .

ويلحظ فى هذا السياق مجئ ضمير الفصل وخلو نظيره فى سورة لقمان (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ...) [٢]

وجواب صاحب درة التنزيل أن آية الحج وقعت فى مكان تقدمت فيه توكيدات مترادفة فى ستة مواضع . وهو قوله « **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا** » فاللام والنون مؤكدان . وبعده : « **وإن الله لعليم حليم** » اللام التى فى خبر إن كذلك . وبعده (**لينصرنه الله إن الله لعفو غفور**) . فلما ترادفت التوكيدات وجاء فى

---

(١) ينظر روح المعانى جـ ١٧ ص ١٩٠ . (٢) سورة لقمان الآية ٣٠ .

هذا الموضع وجاء بعده خبر بين خبرين آكد وهو (ذلك بأن الله هو الحق) وقوله : « وإن الله هو العلى الكبير » اقتضت أشباهه مثله . فجاء الخبر الثانى الواقع بين الخبرين . وبعد الأخبار المؤكدة : مؤكدا بقوله (هو) فقال : «وأن ما يدعون من دونه هو الباطل» وليس كذلك ما جاء فى سورة لقمان لأنه لم تتقدمه التركيبات التى تستتبع أمثالها كما تقدمت فى الأولى [(١)].

ولا ريب فى أن ما يتى عليه ابن الخطيب صحيح ودقيق غير أنه يلحظ أن ماضى سورة الحج واقع بعد عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، وهذه العشر من قوله تعالى : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) إلى هذه الآية ، وكلها مؤكدة ولهذا أيضاً دخلت اللام المؤكدة فى قوله تعالى « وإن الله لهو الغنى الحميد » على ما سيأتى مع خلو موقع لقمان عنها أيضاً .

وقد ساق الكرمانى لذلك توجيهاً آخر يقول (وإن شئت قلت : لما تقدم فى هذه السورة ذكر الله سبحانه وذكر الشيطان أكدهما . فإنه خبر وقع بين خبرين ولم يتقدم فى لقمان ذكر الشيطان . فأكد ذكر الله تعالى . وأهمل ذكر الشيطان . وهذه دقيقة) [(٢)]

وأجاز الآلوسى أن يكون مجئ (هو) هنا لأن الحث فيه أزيد على موقع لقمان كما جوز إعتبار القصر هنا على معنى أن جميع ما يدعون من دون الله هو الباطل لا بعضه دون بعض) فالقصر حينئذ حقيقى . وأما ما أورده من كون الحصر غير مراد أصلاً وإنما جئ للمشاكلة) أى ليكون التركيب وارداً على صورة التركيب قبله [(٣)] فكغير الملتفت إليه

وعلى قراءة أكثر السبعة « تدعون من دون الله » بتاء الخطاب فالكلام جار على طريق الالتفات من أحاديث الغيبة إلى خطاب المشركين . فقد كان الكلام السابق والجارى عليهم بما فيه من ضمائر الغيبة مقصوداً به إسماعهم

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٣١٢ الآية ٥٣

(٢) أسرار التكرار فى القرآن ص ١٤٧ .

(٣) ينظر روح المعانى جـ ١٧ ص ١٩١

والتعريض باقتراب الانتصار عليهم ، ثم صار القصد إلى مواجهتهم ببطلان سائر ما يعبدون بعد الإخبار عن حقيقته تعالى وقدرته فكان تلوين الكلام والتنقل فيه لذلك .

وأما على قراءة البقية (ما يدعون) بياء الغيبة [1] فالكلام لا يزال معها جاريا على سنن الذى سلف من طريق الغيبة .

وأما وجه تعلق ما ختم به هذا النظم الكريم فى قوله تعالى : « وإن الله هو العلى الكبير » بما قبله فلأن معنى العلى : القاهر المقتدر الذى لا يغلب فنبه تعالى بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر ما يعبد من دونه مرغباً بذلك فى عبادته زاجراً عن عبادة غيره . فأما الكبير فهو العظيم فى قدرته وسلطانه وذلك أيضاً يفيد كمال القدرة [2].

ثم إن النظم الجليل يأتى بعد ذلك للتذكير بنعم الله تعالى على الناس وفى طيها دلائل قدرته الباهرة فيقول جل شأنه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير . له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد. ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم، وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور» (٦٣ - ٦٦)

فحيث دل تعالى بما ذكره قبل من إيلاج الليل فى النهار ونبه به على نعمه قدرته اتبع بأنواع أخر من دلائل النعمة والقدرة الموجبة للإيمان والشكران لا الجحود والنكران . فالمقصود هنا : التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره كما دل عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله سبحانه : «إن الإنسان لكفور» أى الإنسان المشرك كما سيجئ . وفى ذلك ادماج الاستدلال على إنفراده تعالى بالخلق والتدبير فهو الإله الحق المستحق للعبادة . والمناسبة : هى ما جرى من أن الله تعالى هو الحق وأن ما يدعونه هو الباطل فاتضح بذلك كون الجملة المصدر بها النظم الكريم استئنافاً ابتدائيا قصد به التنبيه على إحدى دلائل سته أوردها هذا النظم الجليل .

---

(١) كتاب السبعة فى القراءات ص ٤٤٤ (٢) ينظر تفسير الفخر الرازى جـ ٢٣ ص ٦١

والمقصود بالخطاب هنا كل من تصلح منه الرؤية لشهرة المرئى ، والاستفهام المصدر به مراد به التنبيه على ما أورده صاحب البرهان (١)

ويمكن اعتبار الاستفهام إنكارياً . نزلت غفلة كثير عن الإعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها فأنكر ذلك العدم عن الناس الغافلين عن العمل بمقتضيات ذلك العلم . وعلى هذا فالرؤية هنا محموله على العلم والإخبار اللازم لها (لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل (٢)

ولا أراك ملقياً بالا لقول من جعل الرؤية هنا بصرية لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين كما أن اخضرار النبات على الأرض مرئى كذلك وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى ولا أقول فى الجواب عن ذلك ما ضعف به الفخر هذا التوجيه لأن الماء وإن كان مرئياً الا أن كون الله منزلاً له من السماء غير مرئى، وإنما لأن المراد والغرض - والله أعلم بمراده - لا يتأتى إلا بالحمل على معنى العلم على ما سبق ووضح .

وإنما ورد الفعل المستفهم عنه مقترناً بحرف النفى (لم) المخلص المضارع إلى معنى المضى كما ورد كذلك متعلقه بصيغة الماضى فى قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء » ولم يراع فيهما معنى التجدد لأن موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمراً مكرراً ماضياً لا يدعى جهله .

ولعل من وراء تنكير (ماءً) أن ليس القصد أن سائر ماء السماء النازل منها لهذا الغرض حتى يستغرقه التعريف . فإن من ماء السماء ماء ينزله الله تعالى لقصد الإغراق ونحوه كما كان الحال مع من كذب من قوم نوح عليه السلام وكما يكون لفتاً لقدرته تعالى وتذكيراً لمن غفل من خلقه فيبين لهم بذلك كيف أنه جلت قدرته يميت البشر بجنس ما يحيون به ومنه .

ومعلوم أن الماء ليس نازلاً من السماء حقيقة وانما هو من جهاتها فالتعبير جار على المجاز المرسل بعلاقة المجاورة العرفية .

---

(١) البرهان جـ ٢ ص ٣٤٠ ، جـ ٤ ص ١٧٩

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٣ ص ٦٣

ويقبل الإصباح في قوله تعالى : « فتصبح الأرض مخضرة » بمعنى : تصير لأن خمساً من أخوات كان في هذا الباب قد ترد على هذا المعنى ومنها أصبح [١].

ودعك من قول من يقول بإبقائه (تصبح على حقيقتها والحكم بالنظر إلى بعض الأماكن تمطر السماء فيها ليلاً فتصبح الأرض مخضرة وقد نقل صاحب البحر أن ذلك موجود بمكة وتهامة فقط، قاله عكرمة وأخذ تصبح على حقيقتها أي : تصبح من ليلة المطر . وذهب إلى أن الإخضرار في غير مكة وتهامة يتأخر) كما نقل عن ابن عطيه ما يفيد حصول اخضرار الأرض صباح ليلة الإمطار [٢] فمع إمكان ذلك أو وقوعه في بعض البقاع والأزمان إذ لا شيء يتأبى على قدرة الله تعالى إلا أن أخذ الكلام على هذا يخل بتمام المعنى والغرض حيث إن المراد والله أعلم قصده الدلالة على تحول الأرض الهامدة والخاشعة بإنزاله تعالى المطر عليها إلى حال الإنبات والاخضرار والإبهاج وهي تصير إلى تلك الحال متى أذن الله تعالى لماء السماء أن ينزل عليها من غير قصد أصلاً إلى تقييد بزمان (فلا يلزم أن يكون ذلك الإخضرار في وقت الصباح [٣] وإنما أوثر التعبير بمادة الإصباح دون مادة الصيرورة وما في معناها لكون تلك المادة مؤذنة بحصول ضوء النهار لما في ذلك من ملاءمة لمعنى الرؤية وتمام التذكر والاعتبار ، ولأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسر للرائي [٤] فكان من وراء هذه المادة مراعاة لجانب اللفظ والمعنى في هذا النظم الكريم ولذا فقد اختير في التعبير هنا عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إفاضة أقوات الناس والأنعام ذكر لونها الأخضر لأن ذلك اللون مبهج وممتع للأبصار فهو دليل حياة النبات ونمائه فاجتمع به إلى جمال المنظر وبهجة النفس رمز رجاء النفع وهذا أوجب لشكره تعالى على ما خلق وأنعم به من بديع صنعه . والظاهر تعقيب اخضرار الأرض على إنزال المطر إذ ينصرف معنى التعقيب مع كل شيء بحسبه فيقال : تزوج فأنجب الفاء للتعقيب مع الترتيب وإن مضت بين المتعاطفين مدة فاصلة حتماً فإن قيل تزوج ثم أنجب أفاد ذلك مضى مدة فوق المعتاد في مثل هذا الأمر وهكذا الحال فيما نحن فيه فإن اخضرار الأرض إنما يكون

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١٧ ص ٣١٨ — (٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٧٦

(٣) البحر المحيط - نفس الصفحة — (٤) المرجع السابق الصفحة ص ٣٧٧

في العرف والعادة بعد زمن تهتز فيه الأرض وتربو وتنبت وعلى ذلك فالفاء المصاحبه لفعل الإصباح على حقيقتها من الترتيب والتعقيب ويلمح معه هنا معنى التهيئ التام من الأرض لحصول الاخضرار بمجرد إنزال المطر ، وعلى ذلك فلا أرى اعتبار حذف فى الكلام على ما أورده أبو حيان [١]

ومع إفادة الفاء هنا لمعنى التعقيب على الأصل الذى أوضحناه فإنه يلمح معها معنى السببية من حيث يكون اخضرار الأرض بالنبات حاصلاً بطريق التسبب عن إنزال الماء حتى إن من العلماء من خلص الفاء فى هذا التركيب لمعنى السببية [٢]

وعلى أية حال فليس لفعل الرؤية المستفهم عنه مدخل فى هذا التسبب كما أن الاستفهام هنا ليس متمحضاً لأصل معناه . بل المراد به التنبيه أو الإنكار على المعنى والاعتبار الذى سبق إيضاحه . ومن ثم تضافرت القراءات ما تواتر منها وما شذ (فيما نعلم على رفع المضارع الواقع بعد الفاء : (فتصبح) مع مصاحبته الفاء المسبوقة باستفهام ، الأمر الذى يوجب ظاهر الحال معه النصب ، ومع ذلك فقد بدا الأمر وكأنه مما أشكل معه الإعراب والمعنى على أئمة اللغة وأهل المعانى وأفاضوا فى بحثه . ومع تعدد التوجيهات واختلافها فإنه يلحظ أن أكثرها نافع ومفيد حيث عاد على المعنى بملمح بيانى أو مغزى يفوت مع النصب وإن كان ظاهر الحال له بل إن هذا الظاهر لو سلك طريقه لأفسد المعنى المراد أصلاً لذلك أرى الحال داعية لشئ من التفصيل فى تلك المسأله خاصة ما يتصل بالمعنى والبيان والإعجاز .

فقد سبق أن قلت إن الفاء ليست هنا للسببية على معنى كون الرؤية سبباً لإصباح الأرض مخضرة يبين لك ذلك أنك لو قلت : إن تر أن الله أنزل من السماء ماء تصبح الأرض مخضرة . كنت قد أتيت بكلام فاسد . والشرط عند أهل هذا الشأن صحة المعنى مع إنشاء الكلام على أسلوب الشرط . ألا ترى إلى مثل قوله تعالى : « **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا** » [٣] وهو من مشتهر شواهدهم فى هذا الباب كيف يصح معه المعنى إذا قيل : إن يكن لنا شفعاء يشفعوا لنا فحيث امتنع المعنى على هذا التقدير هناك امتنع معه النصب وحيث ساغ المعنى هنا على هذا التقدير كان النصب .

---

(١) السابق نفسه

(٢) روح المعانى جـ ١٧ ص ١٩١ (٣) سورة الأعراف ٥٣

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فتخرج به زرعاً** » (١) فالنصب فى أمثال هذا يعطى ما هو عكس الغرض فإذا كان المعنى فيما نحن فيه إثبات الاخضرار فإنه ينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر . ان نصبت فأنت ناف لشكره . شاك تفريطه فيه . وإن رفعته فأنت مثبت للشكر) ذكر هذا الزمخشرى وقال هذا ومثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله (٢)

ونقل عن ابن عطيه أن قوله (فتصبح الأرض) بمنزلة قوله فتضحى أو نصير عبارة عن إستعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة . ورفع قوله فتصبح من حيث الآية خبراً فالفاء عاطفة وليست بجواب . لأن كونها جواباً بقوله . ألم تر ـسد للمعنى (٣)

ومذهب الفراء أن الاستفهام المذكور بمعنى الخبر فلا يكون له جواب فقال : (ألم تر) خبر كما تقول فى الكلام : (اعلم أن الله تعالى يفعل كذا فيكون كذا (٤) ومن قبل أجاب الخليل سيبويه عن سؤاله بما هو قريب من هذا (٥)

ولك أن تسأل عما وراء العدول إلى المضارع فى قوله تعالى (تصبح) مع أن ظاهر النسق للماضى على سنن (أنزل) قبله والغرض قصد المبالغة فى تحقيق اخضرار الأرض لأهميته إذ هو المقصود بالإنزال نظير ما فى قوله تعالى: « **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت** .. » (٦) فقال: (تثير مضارعاً . وما قبله وما بعده ماضياً مبالغة فى تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين وتقرير تصويره فى أذهانهم ، وفى الكشاف أن النكتة من وراء العدول عن الماضى إلى المضارع هنا لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع (٧)

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٧

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٢١

(٣) البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٧٦

(٤) معانى القرآن جـ ٢ ص ٢٩

(٥) ينظر الكتاب جـ ص

(٦) سورة فاطر الآية ٩

٧ - الكشاف جـ ٤ ص ٢١

وقد يقال أن التعبير بالمضارع فى هذا السياق لأن فيه تصويرا للهيئة التى الأرض عليها والحالة التى لابست الأرض ، وأما الماضى فمع إفادته معنى التحقق فإنه يفيد انقطاع الشئ وهذا ما ارتضاه أبو حيان فى التوجيه [١] ثم إن فى المضارع استحضاراً لتلك الصورة البديعة والعجيبة ، ولهذا كله ونحوه سلك التعبير القرآنى هذا الطريق فى قوله : وتصبح الأرض مخضره دون فتنبت الأرض مع كون هذا التعبير أخصر إذ عليه يفوت أكثر ما لحظ من لطائف ودقائق مما أوضحناه ومما أدركناه إن لم يتسر التعبير عنه كنت قد نبهت على ما قد يكون من وراء تنكير الماء وأما تعريف الأرض هنا فإن الشأن فى كل أرض أنزل عليها تعالى الماء أن تنبت ما دام القصد لذلك حتى وإن لم تكن مهيأة بنحو حرث وبذر

والمخضرة التى صار لونها الخضرة فوزن تلك الصيغة مما يستعمل للاتصاف بالألوان وموقع جملة (**إن الله لطيف خبير**) التعليل لإنزال المطر واخضرار الأرض ومن هنا يدرك وجه المناسبة بين خصوص هذين الوصفين وما سبق الكلام له فإن فى معنى اللطيف ما يفيد إنفاذ مراده تعالى لا يحول بينه وبين ما قصد إليه حائل كما أنه خبير بمواقع الأشياء لا يغيب عن علمه تعالى أو يتأبى منها شئ وقد كان فى مأثور بعض مفسرى السلف ما هو قريب من هذا المعنى فقد أورد الفخر عن مقاتل أنه تعالى لطيف باستخراج النبات خبير بكيفية خلقه [٢] فمع كونه تعالى لا يدرك للطفه فهو المدرك الخبير بمواقع الأحداث ومنها إنبات الأرض وما يصحب تلك الحال من بديع صنعه وعظيم سره حيث الحب فى الأرض يخلق طورا بعد طور وسائر تلك الأطوار وإن كانت محجوبة عن إدراك الخلق لكنها بتدبير الخالق فهى سر من أسراره المبثوثة فى الكون لتبقى أبداً دليل كونه تعالى اللطيف الخبير .

وبعد أن أخبر تعالى عن ذاته العلية المعبر عنها بلفظ الجلالة بذلك أتبع بالأخبار عنها ثانياً بقوله : « **له ما فى السموات وما فى الأرض ...**) للتنبيه على اختصاصه تعالى بالخالقية والملك الحق والتام ليعلم منه أنه المختص بالعبودية فيدفع بذلك زعم المشركين أن الأصنام وسائر ما يعبد من دونه له شركاء فى الإلهية . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . والمناسبة هى إنزال الماء وإنبات النبات فما ذلك إلا بعض ما فى السموات وما فى الأرض الخاضع لتدبيره تعالى

---

(١) ينظر البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٧٦ (٢) ينظر تفسير الفخر الرازى جـ ٢٣ ص ٦٣

وتقدير ، فالماء المنبت من السماء منزل بقدر وخضرة الأرض محل ذلك الإنبات فناسب ذلك الإخبار عنه تعالى باختصاصه بملك وتقدير ما فى السموات وما فى الأرض .

وإنما لم يسلك فى هذه الجملة طريق العطف على التى قبلها مع إتحادهما فى أصل الغرض لتنزيلها بما فيها من عموم شامل لما تضمنته الآية قبلها منزلة التذييل ثم عطف على ذلك قوله سبحانه « **وإن الله لهو الغنى الحميد** »

وتقديم المجرور للدلالة على القصر أى : له سبحانه ملك وتدبير ذلك لا لأحد غيره من تلك المعبودات المتخذة من دونه . فالقصر على هذا الإعتبار إضافى[1] وذلك مناسب لكون تلك الآيات فى سياق الاستدلال على كونه تعالى الإله الحق . وللرد على الزاعمين أن له تعالى أندادا لكن إن روعى أن ذلك الاختصاص حاصل له تعالى فى الواقع ونفس الأمر فالقصر حينئذ حقيقى .

ونبه تعالى بوصف (الغنى) على انه غير مفتقر إلى غيره فى ذاته وصفاته. وفى ضمن هذا تعريض بتلك المعبودات المتخذة فانها مفتقرة فى سائر أحوالها . كما نبه بوصف (الحميد) إلى أن الشأن إنه المحمود كثيراً . فذلك لمزاوجة وصف الغنى . لأن الغنى مفيض على الناس . فهم يحمدونه لذلك أو يقال : المراد المستغنى بحمد ذاته عن حمد غيره . وأرى أن هذا أنسب بمجئ الصفة على تلك الصيغة فكما أنه تعالى المستغنى عن غيره بعتاه فكذلك هو المستغنى عن حمدة سواه بحمد ذاته . ولا أعلم كيف غاب هذا المعنى عن أكثر المفسرين حيث وجهوا بالذى مر ، وان كنت صادفت فى كلام الفخر ما يشير إليه [2].

وفى مجئ ضمير الفصل (هو) بين لفظ الجلالة وبين الوصفين المخبر بهما عنه سبحانه إفادة أنه تعالى المختص بهذين الوصفين على الحقيقة . وأكد الحصر بحرف التوكيد المصدر به التركيب وكذا بلام الابتداء المصاحبة لهذا الضمير تحقيقاً لنسبة المقصور إلى المقصور عليه لأنه فى مقام الرد على من لا يعملون على مقتضيات هذا الاختصاص فكأنهم فى شك أو إنكار اقتضى التحقيق والمبالغة فى التوكيد .

واتبـاعاً لمـا مـر من موجبات شكره تعالى ودلائل قدرته عاد النظم الجليل إلى إستئناف ضروب أخرى منها بقصد تأكيد التدليل والمبالغة فى التذكير فجاء

---

(١) التحوير والتنوير ص ٣٢. (٢) ينظر تفسير الفخر جـ ٢٣ ص ٦٣

قوله سبحانه : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره .. »

فهذا جار على سنن تعديد أمارات النعم ودلائل القدرة عليها لعله يتذكر فيحصل لمن فاته تحصيله بما ذكر قبل . أى : أن لم يجد فيك أيها المكابر ما ذكرت به فلا عليك فدعه وهناك غيره فانظر فيه وتبصر أمره فإن لم يعمل فيك هذا أثره كذلك فذره وإليك غيره فان الدلائل عديدة وما عليك إن أنصفت وطرحت الهوى والغرض إلا أن تبسط للتكر الصحيح يداً فيوصلك التدبر والتأمل إلى طريق الحق حتماً . وهذا سر عظيم من وراء أساليب التكرار من القرآن العظيم وما هنا نمط منه فى باب الاحتجاج فريد يدل على مزيد ثقة المتكلم عز وعلا فيما أورد فى كلامه وان المخاطب لو سار على مقتضى الانصاف لسار إلى الصواب بفضل سلك طريق تعديد أفراد المتحدث فى شأنه عليه إلى أن يجد منها بغية أو يلجئه إلى الإقرار بالحق وإلا فإن فى إيراد الأمر على هذا الوجه من التعديد قطعاً لمعاذير من لم يجد معهم هذا النحو نفعاً بعد أن يولع فى أمر التدليل والاستذكار وعلى ذلك يفهم وجه التكرير فى قوله سبحانه وتعالى «فبأى آلاء ربكما تكذبان»(١) فى سورة الرحمن حيث ذكرت إحدى وثلاثين مرة لهذا الغرض وكذا الحال فيما نحن بسبيله وتكون هذه الآية هنا جارية على هذا الضرب من التكرير تأكيدا لأصل الغرض فقد فصلت ، وفيها تذكير جامع لنعم فى البر والبحر والجو وفى طيه إدماج الإستدلال على انفراده تعالى بأمر التسخير والتدبير فهو الإله الحق .

وجملة (ألم تر ...) هنا والاستفهام معها والخطاب بها على ما مر قريباً والتسخير وتسهيل الانتفاع بما سخر . وهو يؤذن بصعوبة ذلك الانتفاع لولا التسخير وتسهيل الانتفاع بما فيه إرادة النفع كتسخير البهائم بأن جعل الله تعالى فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للألف بالإنسان ثم أطلق على تسهيل الإنتفاع بما فى طبعه أو فى حاله ما يعسر الانتفاع به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائط الغلبة عليها بتعرف أحواله وطبائعه ويدخل فى معنى التسخير هدى الإنسان ورشده إلى ضبط أحوال بعض الظواهر الكونية من نحو الشمس والقمر والأنهار والأودية والأنواء والفلك والرياح ونحوه باعتبار كون تلك الأحوال مما يظهر أثره على وجه الأرض .

---

(١) سورة الرحمن آية : ١٣

وتقديم الجار والمجرور (لكم) على صريح المفعول به (ما) وما فى حيزها للاهتمام بالمقدم وللتشويق إلى المؤخر أيضاً . وعطف الفلك على معمول التسخير على باب عطف الخاص على العام تنويهاً بغرابة تسخيرة وتنبيهاً على كثرة منافعها .

وجملة : (تجرى) بعده حال له ، وانما خص تلك الحال بالذكر لأن ذلك الحال الجريان فى البحر هو مظهر التسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان نصيبها من البحر الغرق كما أنه سبحانه سخر الماء والرياح لجريها فلولا صنعها على ما ألهم إليه (لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب . فنبه تعالى على نعمته بذلك وبأن خلق ما تعمل منه السفن . وبأن بين كيف تعمل . وإنما قال (بأمره) لأنه سبحانه لما كان المجرى لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعاً . لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعله بناء على عادة الملوك فى مثل هذه اللفظة [١] وأمره تعالى هنا هو أمر التكوين .

ومناسبة عطف إمساك السموات على تسخير ما فى الأرض وتسخير الفلك أن إمساك السماء عن أن تقع فضلاً عن كونه من تمام النعم إذ النعم المتقدمة لا تكمل ولا يتصور الانتفاع بها إلا بهذا ، فهو ضرب من التسخير لما فى عظمة المخلوقات السماوية المقتضى تغليبها على المخلوقات الأرضية لولا ما قدر الله تعالى لكل من سنن ونظم [٢] فكما سخر الله تعالى للناس ما ظهر على وجه الأرض وكما سخر لهم الأحوال التى تبدو لهم من مظاهر الأفق مع كثرتها وتباعدها ومع ما فى تلك الأحوال من مقتضيات تعزز الضبط والنفع فكذلك سخر لمصالح الناس ما فى السموات بالإمساك الحاصل به أمر الانتفاع على نحو ما أراد تعالى وقدر على ما أشار إليه بقوله إلا بإذنه .

والظاهر المتبادر أن لفظ السماء هنا يحمل على ما قابل الأرض فتكون شاملة لما نعلم منها من عوالم ولما لا نحيط به علماً وما الله أعلم به وما قد ينكشف للناس أمره فى متعاقب الأزمان ، فوقوع السماء على الأرض بمعنى الخور والسقوط أى أن الله تعالى بتدبيره جعل للسماء نظاماً به تمسك وعلى ذلك فقوله سبحانه **(ويمسك السماء)** مشيرا إلى الامتنان على الناس بأن هيئ لهم سبل التمتع والنفع بنعمه فى حياتهم فلا يطرأ ما يفسد عليهم ذلك ، وقوله من بعد

---

(١) تفسير الفخر جـ ٢٣ ص ٦٤

(٢) ينظر السابق - نفس الصفحة

(بإذنه) احتراس يجمع بين الإمتنان والتخويف ليظل الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم عليهم إن هم جحدوا النعمة فيأذن الحق للسماء أن تقع على الأرض .

وقد أشكل أمر الاستثناء هنا إلا وذكر فى رفعه أن المعنى ألا يوم القيامة يأذن الله لها فى الوقوع على الأرض [١] ولكن الوارد صريحاً فى القرآن الكريم والآثار تشقق السماء وانفطارها ونحو ذلك لا الوقوع والسقوط وفى جعل ذلك احتراساً دفع لهذا الإشكال لأن الاحتراس أمر فرضى فلا يقتضى الاستثناء وقوع المستثنى.

ومن المفسرين من صرف معنى السماء فى هذا السياق إلى الغيث على طريق المجاز بعلاقة المجاورة على نحو ما مر إيضاحه قريباً والمعنى على ذلك : أن الله بتقديره جعل لنزول المطر مقادير إذ لو دام نزول المطر عليها لتضرر الناس أو هلكوا غرقاً فكان فى إمساك نزوله باطراد منه على الناس كما كان فى تكوينه تعالى اياه منة أيضاً فيكون هذا التركيب مشتملاً على نعمتين : نعمة الغيث ونعمة السلامة من طغيان مائه [٢]

ومع صحة هذا التخريج والمعنى عليه فى ذاته لكن فى كونه المراد هنا نوع بعد والحمل الأجمع للمعنى والغرض وإن دق ولطف أن يكون لفظ السماء قد أطلق مراداً به الموجودات العلوية التى يشملها لفظ السماء على معنى : ما علا الأرض : فأطلق على ما يحويه على سبيل المجاز المرسل أيضاً لكن بعلاقة المحلية حيث كانت السماء محلاً للمراد وهو ما تحويه من عوالم فالله تعالى يمسك ما فى السموات من نحو الشهب والمطر والبرد والثلج والصواعق عن الوقوع على الأرض والإمساك بها إلا بإذن الله تعالى فيما اعتاد الناس إذنه به من مثل وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من نحو تساقط الكواكب، فموقع : ويمسك السماء بعد قوله تعالى **(والفلك تجرى فى البحر بأمره)** كموقع قوله تعالى : **« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »** [٣]

وعلى ذلك فقوله سبحانه : (إلا بإذنه) إدماج بين الامتنان والتخويف . فإن من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس لما فيه من نفع كما أن منه ما هو مكروه لما فيه من ضرر .

---

(١) ينظر البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٨٣ (٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٧

(٣) سورة الجاثية الآية ١٢ ، ١٣

وواضح أن هذا التخريج وإن لم يكن فى ظهور الحمل الأول إلا أنه أوجز وأوفر معنى فهو لذلك أنسب بالإعجاز .

ونقل عن ابن عطية أنه يحتمل أن يعود قوله سبحانه : (**إلا بإذنه**) على الإمساك لأن الكلام يقتضى بغير عمد أى يدل بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلق أخذا من قوله تعالى : « **بغير عمد ترونها ..** » [(١)] ونحوه فكأنه أراد : إلا بإذنه فيمسكها [(٢)] يريد : أن حرف الإستثناء قرينة على المحذوف والإذن : حقيقته : قول يطلب به فعل شئ والمراد هنا المشيئة والتكوين .

أرأيت كيف أن الآية الكريمة إلى هنا قد استوعبت العوالم الثلاثة البر والبحر والجو وموقع جملة (**إن الله بالناس لرءوف رحيم**) موقع التعليل للتسخير والإمساك معاً باعتبار الاستثناء لأن فى جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير سبل منافعهم الذى فى ضمنه دفع المضار عنهم .

والرءوف من صيغ المبالغة من الرأفة أو صفة مشبهة وهى تقتضى صرف الضر .

وأما الرحيم فمبالغة من الرحمة وهى صفة تقتضى النفع لمحتاجه فلكل من الوصفين على انفراده معنى واعتبار والجمع بينهما يفيد ما تختص به كل منهما ويؤكد ما تجتمعان عليه ، وتقديم الرأفة على الرحمة هنا وفى غيره حيث جرى الاستعمال القرآنى على ذلك لأن دفع المضار سابق على جلب المنافع .

ومعلوم أن من المواضع التى يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره وإيقاع الشئ فيها بما يشاكله فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً . وإلا خرج بعض الكلام عن بعض وجميع فواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر . ومنه ما دق ويستخرج بالتأمل .

وقد حرصت على ذلك الأمر وتبيانه قدر ما ظهر لى أو تيسر مع كل آية .

وقد أورد صاحب البرهان كلاما يتصل بوجه المناسبة مع فواصل الآيات الكريمة السابقه معللاً لاختصاص كل منهما بما ختم به [(٣)] .

ويلحظ تتابع مجئ تلك الفواصل بأوصاف من صفاته تعالى على صيغة المبالغة **(فعيل)** حيث سبق منها : **(عليم حليم) (غفور رحيم) (سميع بصير) (على كبير) (لطيف خبير) (غنى حميد) (رءوف رحيم)** على هذا النحو والمزاوجه بين الوصفين .

وقد ذكر فى التعليل لوجه أبلغية تلك الصفات على هذه الصيغة بأن (فعيل)

---

(١) سورة الرعد آية ٢ (٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٨٨ (٣) ينظر البرهان جـ ١ ص ٨١

من أبنية جمع الكثرة كعبيد ولا شك أن الجمع أكثر أفرادا من التثنية والأفراد فيكثر معناه لذلك وبنوا على ذلك أبلغية مجيء الوصف على هذا الوزن على مجيئه على وزن فعلان الذى هو على صورة المثنى ومن هنا حكم بعضهم بأبلغية رحيم على رحمن خلافا للمشهور من خلاف ذلك .

والحق أن تلك المسألة مجال حوار ومناقشة مجدية فى باب الدرس البلاغى لولا أن المقام هنا لا يتسع لمثله .

كما ذكروا أن تلك الصفات وأمثالها مما وردت على سبيل المبالغة مجازا فهى موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها . لأن المبالغة هى أن تثبت للشىء أكثر مما له وصفات الله تعالى متناهية فى الكمال لا يمكن المبالغة فيها . والمبالغة أيضا تكون فى صفات تقبل الزيادة والنقصان . وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك) .

وقد نقل عن ابن حسن السبكى تصحيح ذلك واستحسانه مع القول بأنها صفات تاما إن اعتبرت أعلاما ازال ذلك .

ويعلق صاحب البرهان أن صيغ المبالغة منها ما تحصل المبالغة بحسب زيادة الفعل ومنها ما يكون بحسب تعدد المفعولات ، ولا شك فى أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة . إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين . وعلى هذا تنزل جميع ما ورد من صفاته تعالى على صيغة المبالغة ، ولا يبقى إشكال حينئذ ولهذا قال بعض المفسرين فى (حكيم) بمعنى المبالغة فيه : تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع(١) .

وقال الزمخشرى فى تفسيره سورة الحجرات المبالغة فى (التواب) للدلالة على كثرة ما يتوب إليه من عباده . أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوا عنه بالتوبه أو لأنه بليغ فى قبول التوبة نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه(٢) .

وهذا ملحظ من جار الله دقيق وأراه الأليق والأنسب بالحمل فى باب الصفات

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ج٢ ص٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٢) الكشاف ج٣ ص٥٩٨ .

الواردة فى حقه تعالى على هذا الطريق ليظل هذا الأمر فاصلا بين اتصاف الخلق ببعض هذه الصفات وبين اتصافه تعالى بها فللحق تعالى سمع وبصر وعلم وحلم وأمثال ذلك مما يوصفون به ، ولكن لما كانت هذه الصفات على حقيقتها وتمامها وكمال معناها لله تعالى دون غيره كان التعبير عنها بطرق المبالغة أمارة هذا الفرق وأدل عليها .

وبعد أن أوضح تعالى أمر البعث وذكر الشبة الواردة عليه وذكر بنعمه ودلل على قدرته ، وفيض كرمه على الناس عاد الكلام إلى غرض إثبات البعث والاستدلال له بالنشأة الأولى والإماتة بعدها فقال عز وقدر **(وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم)** .

فهذا تذكير للملحدين المكابرين والمرتابين فى أمر البعث بالحياة الأولى التى ليست محلا لارتياب أحد . وبالامانة التى لا ارتياب فيها أيضا وبأن بعد تلك الإماته إحياء آخر لا ينبغى أن يرتاب فيه كذلك لصدق وقوعه بالدلائل السابقة . وهذا محل الاستدلال . وعلى ذلك فالآية الكريمة عطف على جملة : **(ويمسك السماء)** لأنها من جملة النعم فتناسب العطف على ما تضمن امتنانا واستدلالا لذلك والمعنى على ما يذكر الفخر أى من سخر له هذه الأمور . وأنعم عليه بها فهو الذى أحياه .. فنبه بالإحياء الأول على نعم الدنيا علينا بكل ما تقدم . ونبه بالإماتة والإحياء الثانى على نعم الدين علينا .. فالله سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة .وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى يبين ذلك أنه : لولا الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها الى غير ذلك معنى بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقى . وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به فى باب الدين) (١)

والتعبير عن الإحياء الأول بصيغة المضى هنا وعن الإماتة والاحياء الآخر بالمضارع مما يجرى على أصل المعنى مع الفعلين . فالحياة الأولى حاصلة متحققة بقرينة الاضافة الى ضمير المخاطبين المستغرق وجود المواجهين بهذا الخطاب عند نزوله وكذا الحادثين بعده فى كل حين . وأما الإماتة والاحياء بعدها فمستقبل وغيب ،من ثم يلحظ أنه متى قيد الاحياء الاول بضمير الخطاب عبر عنه بطريق

---

(١) تفسير الفخر ح ٢٣ ص ٦٤ .

المضى كما هنا ونظير قوله تعالى (.. وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ..) (١)

لكن اذا أطلق هذا الفعل مرادا به عموم الاحياء الشامل لسائر المخلوقات تبيينا لكون ذلك الأمر شأنه تعالى سلك معه طريق المضارعة كما هو موقع غافر : (هو الذى يحيى ويميت ..)(٢) ، إذ دلالة المضارع على المراد حينئذ أوفى وأبلغ ، حيث لا يقصد خصوص حياة المخاطبين الحاصلة حتى يكون طريق المضى موفيا بالغرض . وإنما المراد اثبات أن هذا شأنه جل شأنه . جار فى سائر الخلق على تتابع واطراد وهذا أمر متجدد ومستمرلذا كان طريق المضارعة أوفى بالغرض فضلا عما فيه من استحضار هذا الشأن العجيب والدال على عظيم قدرته تعالى .

وملحظ آخر هنا . ذلك ان عطف الإماتة على الحياة الأولى ، وكذا الحياة الثانية على الإماتة قد جرى بحرف (ثم) ويمكن ان يحمل هذا على أصل معناه من التراخى الزمنى بين المعطوفات لتخلل مدد الآجال المقدرة للبشر بين الأحياء الأول والإماتة وكذا وقوع زمان على قدر ما قدر سبحانه وأرد بين الموت والحياة الأخرى كما يمكن اعتبار أمر التراخى رتبيا . من حيث التباعد بين المعطوفات بالتضاد وان كانت بالنسبة اليه تعالى سواء وحاصلة جميعا . ومن هنا يدرك وجه بلاغة تلك المطابقة وعظيم دلالاتها على بليغ قدرته عز وقدر .

وحيث فصل سبحانه أمر النعم والدلائل ذيل على كل ذلك بقوله (ان الانسان لكفور)

وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ثم يقول : إن الولد لكفور لنعم الوالد زجرا له عن الجحود وبعثا له على الشكر . فلذلك اورد تعالى هذا فى شأن الجحدة فبين أنهم انتفعوا بهذه النعم وإن كفروا بها وجهلوا خالقها .

والتعريف فى الإنسان للاستغراق العرفى المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب قولهم : جمع الامير الصاغة . والمراد : صاغة بلده ونظير قوله وتعالى :(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) (٣) فقد كان أكثر العرب حينئذ منكرين

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨ . (٢) سورة غافر الآية ٦٨ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٣٨ .

للبعث جاحدين للنعم ونظير المعنى هنا يوضحه قوله تعالى : **(وقليل من عبادى الشكور)**(١) أو يراد بالانسان فى هذا السياق خصوص المشرك نظير قوله تعال **(ويقول الانسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا)**(٢) وكما ورد تخصيصه بمعين من المشركين (٣) ، والأولى والأنسب التعميم الشامل لسائر المنكرين .

والكفور مبالغة فى الكافر . لأن كفرهم كان عن تعنت ومكابرة فناسب المبالغة أو لتعدد أفراد النعم موضع الامتنان والاستدلال منه تعالى ومقابلة كل ذلك بمزيد النكران والمكابرة من الجحدة فكان التعبير عن حالهم تلك بصيغة المبالغة أدل وأنسب .

وقد جوز بعض المفسرين جعل الكفور هنا مأخوذا من كفر النعمة . وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر وحينئذ يكون الاستغراق فى الانسان حقيقيا (٤) .

وحين يصل السياق الى هذا من عرض دلائل القدرة فى مشاهد الكون الكبرى وما فى ضمن ذلك من عظيم النعم على عباده يتوجه بالخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمضى فى طريقه غير ملتفت الى أولئك الجهلة المجادلين له فلا يمكنهم من نزاعه فى منهجه الذى اختاره الله له وكلفه بتبليغه وسلك سبيله فقال سبحانه وتعالى : **(لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون . ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير)**.(٦٧-٧٠)

ويبدو أن ما صدرت به الآية الكريمة الأولى فى هذا النظم الكريم فى قوله تعالى :**(لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه)** مما أشكل أمر معناه

---

(١) سورة سبأ الآية ١٣

(٢) سورة مريم الآية ٦٦ .

(٣) ينظر تفسير الفخر ج ٢٣ ص ٦٤

(٤) ينظر التحرير والتنوير ح ١٧ ص ٣٢٧

ومناسبته لما قبله على أكثر المفسرين فتعددت عندهم التوجيهات وان كان ما أورده الفخر ورجحه يبدو أكثر مناسبة .

فالمنسك : الشريعة والمنهاج على حذو قوله تعالى (**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**)(١) وهو مأخوذ من النسك اى العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص هنا كذبح ونحر وقربان . وإن كان مثل هذا لائقا بسياق ما مر من نظير هذه الآية لاقتضاء المقام هناك مثله وقد روى في الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم (**خذوا عنى مناسككم**) أى أمور عبادتكم . ثم إن قوله تعالى : (**هم ناسكوه**) أليق بالحمل على مطلق العبادة دون تخصيص)(٢)

اذ وضح ذلك فالكلام مستأنفا استئناف ابتدائيا ولذلك فصل عما قبله وقد جيء به لزجر معاصريه صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وأمثالهم المجادلين من منازعته عليه الصلاة والسلام ببيان حال ما تمسكوا به واظهار خطئهم في النظر والمجادلة . أى : لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية وضعنا وعينا شريعة خاصة بهم لائقة بحالهم وحال زمانهم .

وتقديم الجار والمجرو **(لكل أمة)** **على الفعل** : [**جعلنا**] لإفادة القصر أى لكل أمة على خصوصها لا أمة غيرها جعلنا ذلك فالكلام في هذا السياق نظير قولك : لكل من فاطمة وزينب وهند وحفصة أعطيت ثوبا خاصا . إذا كنت أعطيت فاطمة ثوبا أحمر وزينب ثوبا أصفر وهندا ثوبا أسود وحفصة ثوبا ابيض مثلا فأن ذلك يعني : لفاطمة أعطيت ثوبا أحمر لا لأخرى من أخوتها ولزينب اعطيت ثوبا اصفر لا لأخرى منهن . وهكذا وحاصل المعنى هنا : عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أمة أخرى (٣) .

وقوله سبحانه (**هم ناسكوه**) صفة (**منسكا**) . مؤكدا للقصر .

وقوع على هذا الاستدلال أن هؤلاء المجادلين لم تبق لهم حجة ينازعون بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن التوحيد فالنهى في قوله تعالى

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(٢) ينظر تفسير الفخر ج ٢٣ ص ٦٥

(٣) ينظر ارشاد العقل السليم ج٦ ص١١٨ .

(فلا ينازعنك فى الأمر) ظاهره موجه اليه عليه الصلاة والسلام لان ما اعطيه من الحجج كاف فى قطع منازعة معارضيه وعلى ذلك فالمعارضون هم المقصودون حقيقة بالنهى . ولكن لما كان سبب نهيهم هو ما عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحجج وجه اليه النهى من منازعتهم كأنه قيل : فلا تترك لهم ما ينازعونك به . وهو من باب قول العرب : لا أعرفنك تفعل كذا . اى : لا تفعل فاعرفك . فجعل المتكلم النهى موجها إلى نفسه . والمراد نهى السامع عن أسبابه . وهو نهى للغير بطريق الكناية .

وعبارة ابن جنى (لا تلتفت الى فساد أقوالهم . حتى اذا رأوك امسكوا عنك ولم ينازعوك . فلفظ النهى لهم ومعناه له - صلى الله عليه وسلم - ومثله قولهم لا أرينك ها هنا . ألا ترى أن معناه : لا تكن هنا فأراك . فالنهى فى اللفظ نفسه . ومحصول معناه للمخاطب ... وكلام العرب كثير الانحرافات ولطيف المقاصد والجهات . وأعذب ما فيه تلفته وتثنيه)(١)

وأما عند الزجاج فهو نهى للرسول عليه الصلاة والسلام عن منازعتهم . لان صيغة المفاعلة تقتضى حصول الفعل من جانبى فاعله ومفعوله . فيصح نهى كل من الجانبين عنه . انما أسند الفعل هنا لضمير المشركين مبالغة فى نهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن منازعته إياهم التى تقضي الى منازعتهم إياه فيكون النهى عن منازعته إياهم كاثبات الشىء بدليله .

ومحصول معنى هذا الوجه انه أمر (للرسول عليه الصلاة والسلام بالإعراض عن مجادلتهم بعد ما سيق من الحجج (٢) .

ثم عطف النظم الحكيم على النهى عن المنازعة فى الأمر المراد به التوحيد الأمر بالدوام على الدعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحجة بأن المكابرة تجافى الاقتناع ولأن الدوام على الدعوة إعلام لمن لاعلم عنده فيحصل بذلك التعريف بدين الله فيتكاثر الداخلون فيه فالمراد تثبيت أمر النبى صلى الله عليه وسلم على الدعوة والمداومة عليها وعدم القاء البال بما يلقاه من معارضة وعناد ، وهذا من أساليب الإلهاب والتصبيح المقصود منها المبالغة فى أمر البعث على العمل والمداومة عليه وهو من

---

(١) المحتسب ج٢ ص٨٦ .

(٢) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١٩٥ والتحرير والتنوير ج١٧ ص٣٢٩ .

الأساليب البليغة فى القرآن الكريم ومن وراء غايات جليلة وأسرار عظمى يهتدى إلى شىء منها من يتأمل سياقاتها .

وقد ألحق هذا الأمر بالمداومة على الدعوة بما يفيد التعليل له وبما يفيد تأنيس النفس واطمئنان القلب وذلك قوله تعالى **(إنك لعلى هدى مستقيم)** .

ولا يخفى وجه بلاغة هذا التركيب من حيث دلالته على مزيد التمكن من أمر الهدى ودليل هذا المعنى استعارة حرف الاستعلاء (على) لمعنى التمكن من الهدى كما وصف الهدى بالمستقيم على طريق الاستعارة المكنية فقد شبه الهدى بالطريق الموصل إلى المطلوب . ودل عليه بالمستقيم لأن المستقيم أسرع إيصالا . وهذا يرمز إلى أن دين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى وجه الحق وواضح من هذا الخبر المؤكد على هذا النحو حيث صدر بإن كما صاحبت اللام المؤكدة حرف الاستعلاء ما فيه من مزيد التثبيت للنبى عليه الصلاة والسلام وتجديد نشاطه حتى يضطلع بأعباء الدعوة على أكمل حال .

ويلحظ أنه قد جرى الاستعمال القرآنى على إيراد حرف الاستعلاء مقترناً بلام التوكيد فى ثلاثة مواضع اختص منها صلى الله عليه وسلم بموضوعين أحدهما ماهنا والآخر قوله تعالى **(وإنك لعلى خلق عظيم)**(١) واما المؤمنون فقد اختصوا بالثالث فى قوله تعالى **(وإنا أو إياكم لعلى هدى ..)**(٢) .

وبعد هذا الأمر فإن ظل هؤلاء من بعد ذلك منصرفين عن النظر فى تلك الدلائل الواضحة إلى طريق المراء واللجاج فالرسول عليه الصلاة والسلام مأمور بتفويض أمرهم حينئذ إلى حكم ربهم حيث يكون الفصل والجزاء وفى هذا المعنى جاء قوله سبحانه **(وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم ... الآية)**

ونلمح فعل الشرط المصدر به النظم الجليل معبراً عنه بصيغة المضى (جادلوك) على خلاف الظاهر فى مثل موقعه . ولعل الغرض من وراء هذا العدول الإيماء إلى أن تلك المجادلة ستقع منهم حتماً فهى بمنزلة الواقع المتحقق

---

(١) سورة القلم الآية ٤ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٤ .

أو يكون المراد أن حصلت منهم المجادلة فبادر بهذا القول المأمور بتبليغه إليهم . ولا تنتظر حتى يتجدد أمر تلك المحاولة . فلعدم قصد معنى التجدد والاستمرار الدال عليهما المضارع هجر ، ولقصد معنى مجرد التحقق الدال عليه الماضى سلك طريقه .

والقول المأمور عليه الصلاة والسلام بتبليغه (**الله أعلم بما تعملون**) فهذا تفويض أمرهم إلى الله تعالى وهو كناية عن قطع المجادلة معهم وفيه إدماج تعريض بالوعيد والانذار بكلام موجه صالح لما يتظاهرون به من تطلب الحجة . ولما فى نفوسهم من إبطان الفساد نظير ما عليه قوله تعالى :(**فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون**)(١) وهذا إن أريد به الموادعة كما جزم به أبو حيان(٢) فهو منسوخ بآية القتال وفى القول بالنسخ ها هنا نظر .

وبعد أمر تبليغ ما أمر صلى الله عليه وسلم بتبليغهم به صرف النظم الحكيم الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام تبشيرا وسلوانا وذلك قوله تعالى (**الله يحكم بينكم يوم القيامة ..**) فهذا كلام مستأنف ليس من المقول له المأمور بتبليغه إليهم بل هو خطاب له صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله سبحانه (بينكم) ومدلوله خطاب عام لفريقى الإيمان والكفر .

وما كانوا فيه يختلفون : هو المعبر عنه فيما سبق بالأمر فى قوله عز وجل : (**فلا ينازعنك فى الأمر**).

ومعنى الاختلاف : ذهاب كل فريق إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر .

ولزيادة السلوان والتأنيس والتأييد للرسول صلى الله عليه وسلم استأنف الحق تعالى فقال : (**ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض**) فهذا النظم مفيد لمعنى المبالغة فى تأكيد التأييد الذى تضمنه قوله تعالى من قبل (**الله يحكم بينكم**) . أى .. أنه تعالى لا يفوته شىء ما من أعمالكم وسوف يجازيكم على حسبه . فمادام علمه سبحانه محيطا بما فى السماء والأرض ومنه ما يقع من أعمال . فكأن الكلام كناية عن تحقق جزاء كل فريق بما يليق بحاله وفى

---

(١) سورة السجدة الآية ٣٠ . (٢) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٨٥ .

طى هذا أيضا بث لمعنى الطمأنينة وتسكين لفؤاده صلى الله عليه وسلم ومن وراءه أهل الإيمان من أتباعه

وكأن المراد : لا تضق صدرا بأمر هؤلاء . فلأمرك وأمرهم موكول إلى حكم الله العدل المبنى على علمه المحيط . فلا تجزع إذن من مخالفتهم ولا يصدنك معاندتهم عن مداومة التبليغ الذى هو تكليف الرسالة وجوهر حقيقتها ولا غناء عنه يتولاه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قدر له من حياة . ثم ينهض بعبئها والقيام بها الأصحاب والأتباع والسالكون لهذا المنهج إلى ما شاء الله تعالى وقدر .

والاستفهام المصدر به النظم الكريم فى قوله تعالى **(ألم تعلم)** .. خارج عن أصل مراده لصدوره عن الحكيم الخبير ولكون السياق لا يتطلبه بل هو ينادى بمعنى التقرير . أى : قد علمت . لا بمعنى الإنكار كما يذكر بعض المفسرين على سبيل الاحتمال مع التقرير(١) .

ومع وضوح صرف الخطاب هنا وعلى هذا الاعتبار إليه صلى الله عليه وسلم أصلا وسريانه من بعد إلى كل من قيضه الله تعالى للقيام بواجب الدعوة والبلاغ إلا أن الفخر رأى صرف الخطاب أصلا عنه عليه الصلاة والسلام(٢) .

ولما كانت هذه الجملة قد تثير السؤال عن كيفية علمه عز وجل بما فى السماء والأرض أردف الحق بما هو الجواب عن هذا المقدر فقال سبحانه :**(إن ذلك فى كتاب)** فالجملة استئناف بيانى للجملة قبلها . أى : يعلم ذلك لأن ما يقع معلوم منه تعالى ومحصى ومحفوظ .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٣١ .
(٢) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص٦٦ ، ٦٧ .
(٣) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٣١ .

والظاهر عود اسم الإشارة (وذلك) إلى (ما فى السماء والأرض) لا ما قيل من عودة إلى العمل فى قوله (الله أعلم بما تعملون) أو إلى (ما) فى قوله .. (فيما كنتم فيه تختلفون)(١) ليس لكونه الأقرب إلى اسم الإشارة فقط وإنما لتضمنه معنى ما سبق وقيل بعود الإشارة إليه .

وسواء أريد بالكتاب حقيقته وهو اللوح المحفوظ أو أن ذلك على تشبيه تمام العلم بما يقع فالغرض تبيان أنه تعالى لا يندعن علمه شىء . ولا يضيع أو يغيب مما وقع فى ملكه تعالى شىء إذ من شأن الكتابة الثبوت وعدم تطرق الزيادة أو النقصان إليه .

ثم أبان النظم الجليل عن أنه حفظه تعالى لسائر ما يقع فى ملكه على النحو المتقدم مع أنه من الغيب المتعزز أمره على الخلق لكنه بالنسبة إليه تعالى متحقق فقال جل شأنه : (إن ذلك على الله يسير) فعبر عن هذا المعنى بانه يسير وان كان هذا الوصف يستعمل فى متعارف البشر من حيث تسهل عليهم بعض الأمور كما تصعب عليهم غيرها وتعالى الله عن ذلك .

وعلى هذا فموقع الجملة بيان لمضمون ما قبلها . حتى لكأن الكلام السابق أثار: كيف حفظ الله تعالى لسائر ما يقع على هذا النحو المستوعب ؟ فكانت هذه فى موقع الجواب عما قدر مثارا .

وعلى هذا الاعتبار كذلك تكون جمل الآية الكريمة الثلاث كل منها استئناف وبيان لما قبلها .

ولا ريب فى أن ذلك مما يبالغ فى أمر توكيد الكلام وتحقيق الغرض المسوق له ونفى سائر ما قد يثار أو يتطرق إلى النفوس فكان هذا البيان المتتابع .

واسم الإشارة فى جملة البيان الأخير عائد إلى ما قبله مما يفيد الكتابة والحفظ والعلم بما يقع فى السماء والأرض فهو وإن عاد لفظا إلى الكتابة المصرح بها فى الجملة السابقة إلا أن ذلك يعود بحسب المعنى إلى مجموع ما ذكر من العلم والإحاطة بما فى السماء والأرض وكذا الحكم بين العباد فكل ذلك ثابت عنده تعالى

---

(١) التحرير والتنوير ص١٧ ص٣٣١ .

ومحفوظ ومن ثم فلا أكاد أرى وجها لتخصيص معاد اسم الإشارة إلى أحد ما ذكر قبل على حدته (١) .

وأما تقديم الجار والمجرور (على الله) على متعلقة (يسير) فلقصد الاهتمام إذ فى ايراد لفظ الجلالة المنبىء عن معانى الكمال والجلال بما ينبىء عن كون ذلك فى جانب علمه واقع وميسور وإن كان غير ميسور على أحد غيره سبحانه كما يتحقق مناسبة رءوس الآى حتى أن بعض المفسرين جعله الوجه للتقديم

ولا شك فى أن الفواصل القرآنية ومراعاة التناسب بينهما أمر مرعى فهى من البلاغة القرآنية ولها موقعها فى اللفظ والنسق غير أن ذلك لا يمنع إن تيسر اعتبار آخر معها لا يأباه السياق ولا ينأى عنه : القول به ومن هنا يكون الجمع بين أكثر من توجيه مادام لكل ملحظ .

وقد رأي العلامة الآلوسى إمكان توجيه التقديم على إفادة القصر أى .. يسير عليه جل وعلا لاعلى غيره)(٢) .

وهذا من حيث هو معنى صحيح وصادق والقصر عليه حقيقى إذ لم يدع أحد من الخلق مثله ، غير أنى أرى الاعتبار السابق أسبق فى الاعتبار لكونه بالمقام هنا أنسب .

ثم من بعد كل هذا البيان الكاشف والبراهين الدالة يعود النظم الجليل فيسلك طريق الإخبار عن بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم وركاكة أفهامهم وبناء أمرهم كله على غير دليل سمعى أو عقلى وإعراضهم عما ألقى إليهم من سلطان بين فيقول عز وجل ..

(ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) (٧١ - ٧٢) .

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٩٨ . (٢) روح المعانى ج١٧ ص١٩٨ .

يبين الحق تعالى بما فى الآية الكريمة الأولى : أن عبادة هؤلاء لغيره سبحانه ليست مأخوذة عن دليل سمعى . وهو الوحى المراد من قوله تعالى: **(ما لم ينزل به سلطاناً)** . ولا عن دليل عقلى . وهو المراد بما فى قوله تعالى : **(وما ليس لهم به علم)** وإذا كان شأنهم كذلك فعبادتهم صادرة عن تقليد وجهل وتلبيس وشبه .

والإتيان بالمضارع فى التعبير عن عبادتهم المحكية عنهم لإفادة معنى التجدد لأن فى الدلائل التى ذكروا ببعضها فيما سبق ما هو كاف لإقلاعهم عما كانوا يعبدون من أصنام لو كان يعقلون . غير أنهم أصروا عناداً واستكبارا . فكان طريق المضارعة أوفى بحق هذا المراد . وقد يوجه المضارع هنا كذلك على قصد استحضار تلك الحال العجيبة منهم والمسجلة عليهم معانى التحقير والازدراء بعد ما أعرضوا عما أسمعوه من دلائل وبراهين معهم غيرهم ممن يقضى عليهم أحوال هؤلاء بعد أن من الله تعالى على أولئك بالإيمان فيقابلون ذلك المحكى عن الذين لا يزالون على تلك الحال ببالغ التقبيح والاستهجان .

وفى مجىء **(من دون)** ما يفيد الإعراض عن عبادة الله تعالى إذ فيها معنى المجاوزة والمباعدة .

وواضح أن تنكير **(سلطان)** لغرض التقليل المفيد أنهم ليس عندهم على صدق عبادتهم المفتراة دليل ما .

ثم قصد النظم الجليل إلى نفى النفع من وراء تلك العبادة الظالمة . فلا معبوداتهم نافعة لهم فى الدنيا ولا هى شافعة لهم فى الآخرة على ما كانوا يزعمون . بل ولا غيرها يملك لهم من النصرة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة فقد حكم الحق عليهم بانتفاء كل نصير ..**(وما للظالمين من نصير)** .

وواضح موقع (من) فى هذا السياق حيث أفاد دخولها على (نصير) عموم ذلك النفى المصدر به التركيب وشموله لسائر النصراء دنيا وأخرى أى ليس لهم نصير أى نصير مما كانوا قد رجوا نصرته من وراء عبادتهم وما عسى أن يرتجى .

وإذا أردت تبين هذا المعنى الحاصل بذكر (من) فقدر فى نفسك الكلام وقد عرى عنها تجد أن المعنى حينئذ ينفى أن يكون لهم نصير كذلك . لكن لا مانع أن ينصرف الغرض إلى نفى النصراء الذين كانوا يرجونها خاصة دون أن يكون فى

الكلام ما يقطع بانتفاء جميع ما يقال عنه نصير علي جهة الاستيعاب ، لذلك كانت (من) وما تفيده من معنى الابتداء مفيده بدخولها فى مثل تلك السياقات غرض المبالغة فى النفى وتوكيد عمومه .

وتقديم الظالمين لغرض الاهتمام بهذا الوصف المسجل عليهم الظلم وتجاوز الحق مع ما فى هذا من حصول التناسب للفواصل .

وقد يوجه التقديم على القصران أريد بالظالمين كل كافر من هؤلاء وأمثالهم ممن ينطبق عليهم تلك الحال فيشملهم هذا الحكم .

وبعد ذلك قصد إلى بيان سوء حالهم تجاه آيات الله تعالى حين تتلى عليهم بلاغا منه تعالى لدينه الحق فقال عز وجل :(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات .. الآية).

فهذه الآية الكريمة عطف على التى قبلها : (ويعبدون من دون الله) لبيان جرم آخر، فبعد أن سجل عليهم الحق جرمهم الأول فى عبادتهم التى لم يستندوا فيها إلى دليل ما بل هو محض افتراء وتقليد عمد النظم الكريم إلى تسجيل جرمهم الآخر فى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم المنزل عليه المستلزم تكذيب الدعوة الحقة أصلا .فاكتمل بذلك عظم الجرم . فلا عبادتهم صحيحة . ولا هم يستجيبون لداعى الحق الهادى لهم إلى الصحيح فى باب العقائد .

ولعلنا نفهم وجه تخصيص حالهم تلك مع القرآن الكريم الذى هو مراد الآيات لا غيره من المعجزات لقوله تعالى تتلى عليهم - حيث أن القرآن الكريم عمدة الأدلة السمعية الصحيحة . فبعد أن سلب عنهم كل دليل على صدق عبادتهم أبان كيف كان حالهم مع السلطان الحق المنزل منه تعالى دليل صدق تلك الدعوة المدعوين إليها فحصل بمجموع سلب الدليل على ما يزعمون وانكار ما هو الدليل الحق عظيم الجرم وقبح الحال على أبلغ وجه .

وفى إلحاق الآيات بنون المتكلمين فى قوله تعالى (آياتنا) دلالة على عظمة العظيم سبحانه وسريان هذا العظم إلى قرآنه العظيم . كما ألمح من وراء تلك الإضافة فى هذا السياق قصد دلالة على صدق البلاغ به عن الله تعالى . فليس هو من مفتريات الرسول صلى الله عليه وسلم كما كانوا يفترون . وإنما هو آيات الله تعالى حقاً وصدقاً .

أرأيت كيف كان موقع الاضافة هنا مشيرا تلك المعانى الجليلة بحيث أن قدرت عندك الكلام مجردا عنها وسلكت طريقا آخر فى التعريف فقلت الآيات لألفيت الكلام حينئذ عما نبهت عليه عريانا .

ثم إن من وراء تقييد الآيات بوصف حالها (بينات) تفظيع حال انكارهم اياها إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها فهى آيات واضحات الدلالة على العقائد الحقه وعلى بطلان ما هم عليه من عبادة غيره تعالى :

والخطاب فى قوله سبحانه وتعالى (تعرف) ينصرف إلى كل من تهيئه حاله لذلك العرفان وأما ما ذكره الألوسى من جواز صرفه إلى سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم(١) فلا أراه يمنع عموم من تصلح حاله لذلك . فليس هذا من مقامات المخاطبات الخاصة به صلى الله عليه وسلم والتى فيها ذكر لأحواله التى لا تعم الأمة والأتباع المعنيون من ورائه هنا وفى أمثاله وإن كان عليه الصلاة والسلام هو رأس الدعوة والمباشر لها أصلا فخوطب وأفرد فى ظاهر الحال لذلك.

والتعبير بالذين كفروا : اظهار فى مقام الاضمار للتسجيل عليهم بالايماء إلى أن علة ذلك هو ما يبطنون من الكفر .

والمنكر البادى فى وجوه أولئك الكفره مصدر ميمى والمراد علامة الانكار والأمر المستقبح من التجهم والعبوس وسائر الهيئات الدالة على ما يقصدونه .

ولا تغفل عما وراء التعبير بحرف الظرف مع (فى وجوهم) ففيه إشارة إلى تمكن هذا الأمر من نفوسهم ومداخلته لهم مداخلة الظرف للمظروف وما يعرف ويرى من قسمات وجوههم إنا هو تعبير وإشارات إلى مطوى ضمائرهم ومستكن نفوسهم. وبهذا الفهم والاعتبار أيضا نعرف وجه التعبير بهذا الطريق مع من هم على الضد من هؤلاء وذلك فى قوله تعالى : (تعرف فى وجوهم نضرة النعيم)(٢) حيث كان الغرض بيان كمال تمكن أمر البشر والسرور عندهم بما هم فيه من نعيم مقيم بدت آثارة فى وجوهم نضرة فليست تلك النضرة طارئة وفى ظاهر الحال تزول من على وجوههم. بل هى قارة ومستقرة فى وجوههم أمارة بشر ودليل نعيم .

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص١٩٩ . (٢) سورة المطففين الآية ٢٤ .

أرأيت كيف أفاد التعبير ذاته المعنى وخلافه لاختلاف السياق والغرض . وهذا من دقائق النظم القرآنى ودليل إعجازه الباهر .

ومعلوم من حال هؤلاء المتحدث فى شأنهم وقوع البطش على التالين للقرآن الكريم . فكيف التعبير بقوله تعالى : **(يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا)** فكأن المراد والله أعلم أنهم طول دهرهم يقاربون ذلك ، والإفقد سطوا فى بعض الأوقات ببعض الصحابة التالين كما فى البحر(١) .

وإنما فعلو ذلك ويفعلونه أو يحاولون من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليدا .

والمراد بالذين يتلون من تلا ويتلو القرآن الكريم لغرض إسماع هؤلاء الحق أو لغرض يعود على التالى نفسه عبادة وتدبرا وكون الأصحاب والأتباع للرسول صلى الله عليه وسلم داخلين فى هذا مما يغنى ظهوره عن قوله وكذا دخوله صلى الله عليه وسلم هو من باب أولى .

ولهذا لا أرى صرف هذا التعبير إليه صلى الله عليه وسلم على طريق التعبير بالجمع عن المفرد نظير قوله تعالى **(وقوم نوح لما كذبوا الرسل)**(٢) كما يذكر صاحب التحرير . إذ ليس السياق هنا له . وإن كان لهذا الضرب أغراضه وبلاغته فى سياقه وإذ قد بدا من أحوال هؤلاء ما ينبىء عن فرط غيظهم وغضبهم من أمر التلاوة والتالين . استأنف الحق تعالى ما يفيد زيادة اغاظتهم واغضابهم فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ما يدل على أنهم صائرون إلى بئس المصير .: **(قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ..)** .

والتفريع بالفاء ناشىء عن ظهور أثر المنكر على وجوههم . فنزلت ملامحهم الدالة منزلة دلالة الألفاظ ففرع عليها ما هو جواب عن كلام يزيدهم غيظا وإن كان الألوسى قدر المعنى : أتسمعون فأخبركم فالمعطوف عليه بالفاء مطوى(٣)

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٨٩ .

(٢) سورة الآية

(٣) روح المعانى ج١٧ ص٢٠٠ .

والاستفهام المصدر به الكلام على معنى الاستئذان التهكمى فقد نبئوا بذلك دون انتظار جوابهم . وهذا الصنيع أنكى وفى باب الاغاظة والاغضاب أشد وأبلغ .

و (شر) اسم تفضيل شاع حذف همزته تخفيفا كحال : خير ضده . إذ أصلهما : أشر وأخير .

والإشارة الواقعة فى مقام المفضل عليه من ذالكم تعود إلى ما أثار حفيظتهم أى بما هو أشد شرا عليكم فى نفوسكم مما سمعتموه فأغضبكم . أى : إن كنتم غاضبين لما تلى عليكم من الآيات فازدادوا غضبا بهذا الذى أنبئكم به .

وعند صاحب الكشاف : (من ذالكم) الذى فيكم من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم . أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلى عليكم)(١) .

وحين أسمعوا لفظ الأنباء كأن قائلا قال : ما هو : فقيل : النار فتلك جملة بحذف أحد طرفيها . استئناف بيانى . وكأن المراد : أن سألتم عن الذى هو أشد شرا مما لديكم فاعلموا إنه النار ولك أن تجعل (النار) غير مستقل بتمام معنى الجملة على اعتبار الحذف المذكور وذلك بجعلها مبتدأ للجملة بعدها : وعدها الله الذين كفروا وهذه جملة الخبر عنها(٢) ، وان كنت إلى الحمل الأول أميل لأن عليه تتابع الجمل وتكاثرها فى معنى البيان وهذا أنسب بمقام المخاطبة مع أمثال هؤلاء حيث يلقى الكلام إليهم فى صورة الجواب وان كان مشيرا لسؤال آخر يجاب عليهم بما يثير سؤالا آخر وهكذا يكون الأطناب يتعدد الجمل أدل على المراد والغرض ..

والتعبير عن هؤلاء المتوعّدين بقوله تعالى (الذين كفروا : إظهار فيما يقتضى الظاهر معه الاضمار . تسجيلا عليهم بهذا الوصف الموجب للعقاب . ثم إن فيه عدولا إلى طريق الغيبة بعد أن كان قد سلك معهم طريق الخطاب . فحيث كان الكلام هناك مرادا به مزيد الإغاظة والتهكم والاغضاب فكان مواجهتهم بذلك أوقع ثم لما صار إلى الوصف الموجب لعقابهم آثر الغيبة . شأن القرآن المجيد فى كثير من أحواله حين يقصد إلى تعديد قبائح القوم ومفترياتهم فيعمد إلى أحاديث

---

(١) الكشاف ج٢ ص٢٢ . (٢) التبيان فى اعراب القرآن ج٢ ص٩٤٨ .

الغَيب . لما سبق وأشرت إليه موضحا فى أكثر من سياق فى تفسير هذه السورة المباركة ولكون هذا الأسلوب كذلك دالا على العموم فيدخل فى الذين كفروا غير هؤلاء ممن يوافق حالهم فيعم الجزاء الجميع .

ثم أن العمل على ما هو الظاهر فى قوله تعالى : (وعدها الله الذين كفروا) . يهيىء لنا لمحة وملحظا بيانيا ينكشف باعتباره بليغ التصوير القرآنى، وهو ذكر ضمير النار موصولا بالوعد فى قوله تعالى (وعدها) . حتى لكأن النار وعدت بالكفار وقودها مع معبود اتهم (وقودها الناس والحجارة) . ولست أرى غرابة فى هذا التوجيه أو تكلفاً ، أفليس المراد فى قوله عز وجل فى شأن حال النار قبل أصحابها (تدعو من أدبر وتولى(١) هم : الكفرة الذين وعد الله النار إياهم فكان نداؤها لهم إعمالا لمقتضى الوعد الذى كان . وصريح لفظ النظم الكريم هنا مفيد لذلك . والا فكيف نفهم أمر التقديم إن صرنا إلى القول بأن الموصول هو المفعول الأول . وضمير النار الموصول بالوعد : المفعول الثانى وقُدّم . نعم إن المعنى من حيث المآل يعود إلى وعد الكفار النار وقد رأيت العلامة الألوسى يفصل بين الظاهر لفظاً من هذا التركيب والظاهر معنى فعنده ما أوضحناه إنما هو على ظاهر اللفظ واما ظاهر المعنى فعلى التقديم والتأخير(٢) .

ولا أكاد أجد لهذا الفصل بين ظاهر اللفظ وظاهر المعنى داعيا قويا فإن الأخذ بما عليه ظاهر اللفظ يؤول إلى الاعتبار الآخر فوق ما فيه من فضل المبالغة والتشخيص على هذا النحو الذى أبرزت معه النار الموعود بها نتلقى وعد الله تعالى وكأنها مدركه حقيقة الوعد شأن من يعقل ويدرك من البشر فيما يخاطبون به وكان منها دليل العقل والإدراك ما جاء فى مثل قوله تعالى وأثبتناه سابقاً من قوله تعالى (تدعو من أدبر وتولى) . وأمثال تلك الأساليب الجارية على ما يعرف عند أهل البيان بالاستعارة المكنية، ولا شك فى أن لهذا التصوير بلاغته ومقتضياته التى يقف عليها أهل الذوق السليم والنظر الصحيح .

ومادامت النار المتوعد بها هؤلاء وأمثالهم وهى مستقرهم . فساءت قرارا

---

(١) سورة المعارج الآية ١٧ .

(٢) ينظر روح المعانى ج١٧ ص. ٢ .

(وبئس المصير) . فالغرض من تلك الجملة المختتم بها النظم الجليل انشاء الذم . واللام مع المصير لتعريف الجنس فيفيد العموم أى : بئس المصير هى لمن صار إليها.

ولا أكاد أرى داعيا لجعل (ال) فى (المصير) عوضا عن مضاف إليه إى : بئس مصيرهم فتكون الجملة انشاء ذم معطوفة على جملة الحال على تقدير القول كما يذهب صاحب التحرير(١) .

فقد يفهم من هذا عود الكلام إلى خصوص الكفرة المتحدث فى شأنهم مع أنه قد سبق إن الذين كفروا محمول على معنى العموم المستوعب لكل من حاله كذلك.

وبعد كل ما مضى من الحجج والمواعظ والانذارات والتذكير بالنعم ودلائل القدرة وذكر بعض أحوال عبادة بعض الخلق لغير الخالق سبحانه إلى نحو ذلك مما اشتملت عليه تلك السورة المباركة مما فى اعتباره حصول اليقين لأن إله الناس جميعا واحداً وأن سائر ما يعبد من دونه باطل أعقب كل هذا بمثل جامع لوصف حال هذه المعبودات المتخذه من دون الله تعالى . وكذا حال عبادها فقال جل شأنه :

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولوا اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور) . من الآيات من ٧٣ - ٧٦ .

والظاهران الخطاب المصدر به هذا النظم الكريم (**يا أيها الناس**) مراد به المشركين فى ظاهر السياق لأنهم المقصودون بالزجر بقرينه قوله تعالى : **(تدعون)** بتاء الخطاب على قراءة جمهور السبعة(٢) .

وأما على قراءة (يدعون) بياء الغيبة فالخطاب للناس عامة . زجرا طن أشرك وتعجيبا من حالهم لمن آمن فيزدادون بذلك يقينا بأنه الحق القادر أمام حال تلك

---

(١) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٣٧ .	(٢) كتاب السبعة فى القراءات ص٤٤٠ .

الآلهة المزعومة . وما عليه أمرها من تمام العجز ثم لما صار الكلام من بعد إلى قص تلك الحال العجيبة كان طريق الغيبة المخصص تلك الحال بمن هم عليها .

وفى افتتاح السورة الكريمة يا أيها النّاس . وقرب نهيها بمثله شبيه برد العجز على الصدر كما هو عرف أهل البديع . ومما يزيده حسنا هنا أن كان العجز جامعاً لما فى الصدر وما بعده حيث يكون كالنتيجة للاستدلال . والخلاصة للخطبة والحوصلة للدرس . وكأنى أراك على ذكر من أمر الفرق بين مراد الخطابين . حيث قر عندك أمر عموم الأول وشموله لكل من ينطبق عليهم لفظ الناس وحيث وضح لك الآن كيف أن الخطاب هنا محتمل التعميم والتخصيص .

وضُرب المثل : ذكره وبيانه . استعير الضرب للقول والذكر تشبيها بوضع الشيىء بشده أى : ألقى إليكم مثل فاعتبروا .

وقد حوى هذا النظم الجليل شأن سائر القرآن المجيد من خصائص البيان ومحاسن البديع ودلالات الألفاظ وايحاءات الكلمات ما يناسب الغرض المسوق له الكلام على أتم وجه وابين حال لذا أستمد منه تعالى العون والتوفيق فى الكشف عما تيسر .

وأول ما يلحظ بعد لفظ الخطاب : بناء فِعْل (ضرب) على صيغة المبنى لغير المعلوم فلم يذكر له فاعل على خلاف ما جرى عليه العرف القرآنى فى المواقع الأخرى والتى ورد فيها الفعل مصرحا معه بفاعل ضارب المثل مظهرا أو مضمراً نظير قوله تعالى : **(إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ..)**(١) .. **(وضرب الله مثلا عبدا مملوكا)**(٢) .

فقد أسند فعل ضرب المثل إليه تعالى سواء بالضمير العائد إليه سبحانه كما فى الآية الأولى أو بالتصريح بلفظ الجلاله الأعظم كما فى الثانية ونظير قوله تعالى : **(فلا تضربوا لله الأمثال)**(٣) : **(وضرب لنا مثلا ونسى**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦ .   (٢) سورة النحل الآية ٧٥ .
(٣) سورة النحل الآية ٧٤ .

خلقه)(١) كذلك اذا أسند الضرب المنهى عنه فى الأول إلى ضمير المشركين البارز كما أسند فى الأخرى إلى ضمير رءوسهم وان استتر .

وإنما أوثر البناء على تلك الصيغة هنا لأن المقصود نسج التركيب على ضرب من الايجاز البديع صالح لأحد احتمالين .

أحدهما : ان يقدر الفاعل : الله تعالى . وأن يكون المثل : تشبيها تمثيليا أى أوضح الله تمثيلا يبين حال الأصنام فى فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكل أحد .

والثانى : إن يقدر الفاعل المشركون . ويكون المثل بمعنى المماثل أى : جعلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى فى الالهية (٢) .

وصيغة الماضى فى قوله (ضرب) مستعملة فى تقريب زمن الماضى من الحال على الاحتمال الأول نظير قوله سبحانه : (لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا)(٣) أى : لو شارفوا أن يتركوا . أى : بعد الموت .

وقد عبر الفخر عن هذا الملحظ وأبرزه على غالب طريقته . فان قوله تعالى (ضرب) يفيد فيما مضى . والله تعالى هو المتكلم ابتداء ؟ ويجيب إذا كان ما يورد من اللفظ معلوما من قبل جاز ذلك فيه . ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم)(٤) .

وعند العلامة الالوسى أن التعبير بالماضى لتحقق الوقوع(٥) .

وفرع النظم الكريم على ذلك المعنى من الايجاز قوله تعالى : (فاستمعوا له) لاستدعاء الأسماع إلى مفاد هذا المثل المبطل دعوى الشركة لله تعالى فى الالهية أى : استمعوا استماع تدبر لأن مجرد السماع لا ينفع ما لم يقترن بالتدبر الذى هو المراد فصيغة الأمر مستعملة فى التحريض على الحمل الأول وفى التعجيب على الحمل الثانى .

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ .
(٢) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٣٨ .
(٣) سورة النساء الآية ٩ .
(٤) تفسير الفخر ج٢٣ ص٦٩
(٥) روح المعانى ج١٧ ص٢٠٠ .

وحيث أمر تعالى بالاستماع والتدبر فى أمر هذا المثل المضروب : شرع النظم الجليل فيما يكشف عنه : **(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ..)** .

وأول ما يلحظ من بيان هذا التركيب تصدير الخبر بحرف توكيد الاثبات كما أكد المخبر به بحرف النفى (لن) . وذلك لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر . لأن جعل هؤلاء الأصنام آلهه يقتضى اثباتهم الخلق اليها . وقد نفى عنها الخلق فى المستقبل لأنه أبلغ فى إفحام الذين اعتدوا بها آلهة . لأن نفى أن تخلق فى المستقبل يقتضى نفى ذلك فى الماضى بطريق الأولى لأن الذى يفعل شيئا يكون فعله من بعد عليه أيسر وأهون .

وأراك الآن على بصيرة من قصد المبالغة فى النفى لذا كان ايثار (لن) هنا لكونها أدل على نفى أصل الفعل فى المستقبل فإنها تفيد نفيه على جهة التأكيد والتأبيد مادام السياق والقرائن لذلك . فكأنه سبحانه قال إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر أبدا على خلق ذبابة مع ضعفها ومع اجتماع تلك الآلهة المفتراه فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودات فقوله سبحانه : (ولو اجتمعوا له) دال على أنه يستحيل أن يخلقوا الذباب فى حال اجتماعهم فهم فى حال الانفراد أعجز عن خلق هذا مع ضعفه وحقارته . ويدل على كون النفى على هذا النحو من المبالغة والتوكيد أن قوله تعالى (ولو اجتمعوا له) جار على مقتضى العرف القاضى بأنه لا يقال مثلا : لن يحمل الرجال كذا ولو اجتمعوا لحمله إلا إذا أريد نفى القدرة على الحمل نعم أن لموقع (لن) فى هذا السياق نصيبا من هذا المعنى حتى قيل بافادة ذلك المعنى منها على الخصوص فانها مفيدة لنفى مؤكد فتدل على منافاة المنفى وهو الخلق والمنفى عنه وهى المعبودات الباطلة فتفيد عدم قدرتها عليه . وهذا لا يغنى عن معونة المقام ، وأحسب أن مراد الزمخشرى يحمل على ذلك حيث ذهب إلى إفادة (لن) للتأكيد وأن تأكيد النفى هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل كما نقل عنه فى أنموذجه القول لإفادتها التأبيد(١) .

---

(١) ينظر روح المعانى جـ١٧ ص٢٠١ .

والحق الذى لا ينبغى اثارة الشبه حوله إن لكل أداة خصوصية بها تنفرد وتمتاز عن أخواتهما فى أصل الدلالة على الغرض وعليه يكون إيثار البليغ لما هو أنسب وفاء بغرضه ويبقى أمر السياق والمقام الحاكم أبدا بإيثار طريق على طريق حتى ولو كان ظاهر الحال لغيره لكن تبصر حقيقة المقاصد وأغراض الكلام يكشف كيف أن المتكلم عمد إلى تلك اللفظة بذاتها دون غيرها المشتركة معها فى أصل الدلالة إنما كان للوفاء بحق المراد .

قلت هذا وأطنبت فيه لأنى صادفت من أبى حيان تعقيبا على جار الله أثار من بعده حفيظة العلامة الالوسآ فأدخل فى الباب ما ليس منه وأقحم مسائل الاعتقاد والمذهب الكلامى فعنف وشدد فى الدفع(١) ، لا أقول هذا دفاعا عن الزمخشرى فأمره وأمر مذهبه العقدى وأمرنا جميعا مفوض إلى الله تعالى يحكم بين عباده . ولكن القصد التنبيه على أن أمثال صاحب الكشاف لا يغيب عنه اعتبار المقامات والسياقات . كيف وكلامه فى التفسير لكتاب الله العزيز وتصوير تراكيبه وتبصر دلالات ألفاظه ورموز وايحاءات كلمه مبنى على هذا الأصل بحيث صار كشافه مصدر هذا الباب وإما ما يقتدى به .

والذباب اسم جمع ذبابه . مأخوذ من الذب . أى : الطرد والدفع أو من الذب بمعنى الاختلاف . أي الذهاب والعود . وهو أنسب بحال الذباب لما فيه من الاختلاف حتى قيل . إنه منحوت من : ذب أب أي طرد فرجع .

وإيثار ذكر الذباب فى هذا المثل مع وجود ما هو أصغر منه فى المخلوقات لافادته مع الصغر الحقارة إذ هو من أحقر المخلوقات التى فيها الحياة المشاهدة هذا فضلا عن كونه أنسب بخصوص المقام حيث يروى أن هؤلاء العباد الجهلة كانوا يطلون أصنامهم المدعوة آلهة بالزعفران والعسل ويغلقون عليها فيدخل الذباب من الكوى فيأكله، كما قيل : كانوا يضمخونها بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك

وأرى وألمح من وراء إيثار لفظ الذباب كذلك معنى التحقير يسرى إلى تلك المعبودات المزعومة فآثر نفى أحقر الخلق عنهم للدلالة على حقارة أمر عبادها أيضا

---

(١) ينظر البحر المحيط ج١ ، روح المعانى ج١٧ ص٢٠١ .

إذ شأن عابد الحقير العاجز التحقير كذلك إذ كيف ارتضى له عقله أن يذل فيعبد ما لا عقل له وما لا قدرة له أصلا .

وقدر المحقق الالوسى فى هذا الكلام حذفا حيث قدر جوابا للو المعطوف جملتها على شرطية مثلها طوى ذكرها لشهادة المذكورة لها . وكأن المعنى لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يخلقوا . ولو اجتمعوا له وتعاونوا عليه لم يخلقوا والجملتان فى موضع الحال وخلاصة المراد منهما : لن يخلقوا ذبابا على كل حال(١) .

وأيسر من هذا التوجيه المشوب أمر التقدير فيه بنوع تكلف أن يقدر الكلام مستغنيا عن كل تقدير وحذف من حيث تكون (لو) هنا قد انسلخت عن الشرطية وتمحضت للدلالة على الغرض والتقدير. والمعنى لن يخلقوا ذبابا مفروضا اجتماعهم

ويرى صاحب التحرير أن (لو) هنا وصليه نظير ما عليه قوله تعالى : (فلن يقبل من أحدهم ملىء الأرض ذهبا ولو افتدى به)(٢) . والمعنى هنا لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم متفرقون . بل ولو اجتمعوا من مفترق القبائل وتعاونوا(٣) .

وهذا الحمل قريب من حيث المآل بما وجه به الالوسى من قبل ثم لما أبان الحق تعالى عن وجه عجز تلك الآلهة عن خلق ما هو أضعف وأحقر المخلوقات نزل فى التمثيل عن رتبة الخلق إذ هى مما يعجز عن مثلها كل قادر غير الله عز وجل إلى ما هو أقل وأهون للدلالة على مزيد العجز فجاء قوله سبحانه .وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) كأنه تعالى يقول : أترك أمر الخلق والايجاد إلى ما هو أيسر منه وأهون . فان الذباب إذا سلب منهم شيئا فلا يقدرون على رده فالكلام جار على أسلوب الارتقاء فى التعجيز إذ بعد أن سلك معهم طريق الخلق والايجاد الأدخل فى باب القدرة ، نزل إلى لاستدلال بما هو أيسر وان كان أدل على بليغ العجز .

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص٢٠١ . (٢) سورة آل عمران الآية ٩١ .
(٣) التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٤١ .

وقد سلك طريق المضارع فى التعبير عن سلب الذباب وكذا فى نفى فلاحهم فى محاولتهم رده للدلالة على تجدد ذلك الأمر ودوام تلك الحال من الذباب السالب ومن هؤلاء البادى عليهم تكلف عود ما سلب، وأيضا فأن ذلك أمر عام ودائم لا يخص يخص المتحدث عنهم على وجه الخصوص بل ذلك أمرمكروز ومشاهد فى كل زمان وقد يقال إن من وراء ذلك التعبير أيضا تصويراً لتلك الحال العجيبة واستحضارها حتى لكأن سلب هذا الخلق الضعيف لا يزال ماثلا والتعبير عن هذه الشرطية بان لما قيل من بإن المقام للفرض والتقدير . وهى احدى طرق التعبير عنه.

ثم ان فى اعادة ذكر الذباب هنا واسناد السلب إليه دلالة على أن ذلك المخلوق الذى سبق أن عجزوا عن أمر خلقه هو الذى يفعل ما به تمام عجزهم فلا آلهتهم بقادرة على خلقه ولا هى ولا هم بقادرين على الانتصار منه فكانت بذلك أضعف من أن توجده . كما كان هو أقدر منها حيث نال ما لا طوق لعوده فاجتمع بهذا وذاك طرفا تمام العجز وكمال الضعف .

وإتماما للوفاء بهذا المعنى على تلك الحال كان الاتيان كلمة (شيئا) بما فيها من ابهام وتعميم . أى : شيئا ما صغر أم كبر وكذلك التعبير عن انتفاء القدرة على رد ما سلب بمادة الانقاذ وايراده على صيغة يستنقذوه لإفادة المبالغة وبذل الجهد فى الانقاذ مثل الاستحياء فكأن المنفى عنهم ليس انقاذهم وانما محاولتهم وجهدهم الذى يتطلبون به الانقاذ لعدم فلاخهم إن حاولوا أو قطع رجاء امكان رد ما استلب أصلا وذلك دون ريب أبلغ فى معنى العجز .

وقد يسأل عما وراء المخالفة فى حرف النفى . حيث كان النفى مع أمر الخلق بلن وكان هنا مع نفى رد ما سلب بلا .

ولعل الجواب والله أعلم بمراده - انهم لما كان الأول اخبارا منه تعالى بعجز تلك المعبودات عن الخلق أصلا كان المقام للنفى بلن المفيده لتوكيده وتأبيده على ما سبق ووضح . ولما كان ما هنا اخبار منه تعالى عن حالهم تلك وأن ذلك لا يقع كانت(لا) انسب . وقد يقال : لما كان أمر الخلق أدخل فى باب القدرة كانت (لن) أدل ، لما فيها من تأكيد وحيث كان الأمر هنا أيسر من الخلق صارت (لا) أليق .

وبعد أن عرضنا لبعض خصائص هذا المثل بما يكشف عن وجه بلاغته وملائمته للغرض المسوق له نشير إلى أنه لم يسمع مثل هذا التمثيل فى بابه لأحد قبل نزول القرآن العزيز . ولم يتناوله متناول كما فعل فى كثير من معانى الكتاب الكريم ولذا فقد سلكه بن أبى الأصبع تحت باب سلامة الاختراع من الاتباع(١) .

فإن قلت هلا أوضحت طريق ذلك المثل المذكور فى النظم الجليل على طريقه التمثيل الذى سبق أن قلت بإمكان الحمل عليه .

أقول ان المثل شاع فى تشبيه حالة بحالة والتشبيه هنا ضمنى ينبىء عنه قوله تعالى : (ولو اجتمعوا له) (لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) . شبهت الأصنام المتعددة فى قبائل العرب بعظماء . أى عند عابديها . وشبهت هيئتها فى العجز بهيئة ناس تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات وأحقرها . وهو الذباب .

المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض . وقد دل أسناد نفى الخلق اليهم على تشبيههم بذوى الإرادة لأن نفى الخلق يقتضى محاولة إيجاده . ولو فرض أن الذباب سلبهم شيئا لم يستطيعوا أخذه منه . ودليل ذلك مشاهدة عدم تحركهم . فكما عجزت عن ايجاد أضعف الخلق . وعن أضعف المخلوقات عنها فكيف توسم بالالهية ورمز إلى الهيئة المشبه بها بذكر لوازم أركان التشبيه من قوله (لن يخلقوا) وقوله: (وإن يسلبهم الذباب شيئا) لا جرم حصل تشبيه هيئة الأصنام فى عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت التمثيلية المكنية .

هذا مذهب صاحب التحرير فى التوجيه لحمل المثل على التمثيلية فى هذا السياق ولا يخفى ما فيه من غموض، لذا أرى طريق صاحب الكشاف أيسر وأوضح حيث فسر المثل هنا بالصفة الغريبة تشبيها لها ببعض الأمثال السائرة(٢) وعلى ذلك أكثر أهل العلم والتفسير(٣) وان كان صاحب التحرير اعترض بأن هذا

---

(١) بديع القرآن ص ٢٠٠ . (٢) ينظر الكشاف ج٣ ص٢٢ .

(٣) ينظر البحر المحيط ج٦ ص٣٩٠ .

هذا مما لا نظير له ولا استعمال يعضده(١) .

ولعل فيما سبق من أن هذا مما تفرد به النظم الكريم فهو سالم من الاتباع ما يصلح جوابا على هذا التعقيب .

ثم نلحظ أن قد ذيل هذا المثل بكلام أرسل مثلا . فقال عز وجل (ضعف الطالب والمطلوب) هذا تذبيل للغرض من المثل أى : ضعف العابد والمعبود ، واشارة إلى قوله تعالى : **(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا .. إلى آخره)** أى ضعفتم أنتم فى دعوة تلك الأصنام آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الالهية .

واختار صاحب الكشاف أن الطالب : الأصنام . والمطلوب الذباب(٢) وفى هذا التذبيل حينئذ ايهام التسوية ، وتحقيق أن الطالب أضعف ، لأنه قدم عليه ، أى : هذا الخلق الأقل هو السالب ، وذلك طالب خاب عن طلبته . ولما جعل السلب المسلوب لهم وأجراهم مجرى العقلاء . أثبت لهم طلبا . ولما بين أنهم أضعف من أدنى الحيوانات نبه به على التهكم بتلك الآلهة المزعومة .

ولعل التوجيه الأول أولى لكونه الأنسب بالسياق إذ هو لتجهيلهم وتحقير آلهتهم أدل . لدخولهم مع آلهتهم فى هذا التذبيل .

وقد ظهر الآن وبعد ذلك المثل البليغ كيف أن هؤلاء الذين يدعون الأصنام آلهة من دون الله تعالى ما عرفوا حق الله تعالى . وما عظموه حق تعظيمه . حيث جعلوا تلك الأوثان على ما بها من تمام العجز والحقاره شركاء لله تعالى مع أنه سبحانه هو القوى الذى لا يعجزه شىء . كما أنه الذى لا يقدر أحد على مغالبته ولهذا أعقب الحق بما يفيد هذا المعنى فقال سبحانه : **(ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز)** .

وأحسبك على تنبه مما وراء ايثار وصفى القوة والعزه فى هذه الجملة **(ان الله لقوى عزيز)** فإنها تعليل لمضمون الجملة قبلها . فوصف القدرة مع الله تعالى وارد فى مقابل ذلك العجز الذى بان أمره فى عدم إمكان ايجاد تلك الآلهه المزعومة

---

(١) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤ .

(٢) الكشاف ج٣ ص٢٣ .

أحقر المخلوقات . كما أن وصف العزه وارد فى حقه تعالى فى مقابل مغالبة الذباب ضعيف الخلقه حقير الشأن لتلك المعبودات وعجزها دونه . فما أشركوا به ضعيف مغلوب واما الاله الحق سبحانه فهو القوى ، لا يتعذر عليه شىء ، العزيز لا يقدر أحد على مغالبته .

فانظر كيف كان هذا التعليل مشتملا على الوصفين اللائقين بحاله سبحانه مع مناسبة ذلك على طريق التقابل لما كان عليه حال تلك المعبودات المزعومة من وصفى الضعف والغلبة فكان أن وصف الحق ذاته فى مقابلتها بوصفى القوة والعزة

واما ما يلحظ هنا من العدول عن سنن الخطاب الجارى عليه النسق قبل فلم يقل تعالى : ما قدرتم . وإنما سلك أسلوب الغيبة : (ما قدروا) تلوينا وافتنانا ولقصد التعريض بأنهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم .

وكذا يلمح مع قوله تعالى **(إن الله لقوى عزيز)** معنى الوعيد كأنه تعالى يقول سينتقم الله تعالى منهم ، وهذه أوصافه الدالة على وقوع ذلك وتحققه فهو القوى العزيز .

أفرأيت كيف كان الوصفان هنا مفيدين معنى التحذير والانتقام كذلك فوق ما أفاداه من معنى المناسبة فيما هو له تعالى فى مقابل ما عليه أمر آلهتهم .

ولأنهم لم يعملوا بمقتضى العلم بقوته تعالى وعزته حيث أشركوا . نزل حالهم منزلة من ينكر ذلك فجاء التركيب مصدرا بإن المؤكده مع اقتران الخبر باللام المؤكده لمضمونه وان كان الخبر أصلا حقا وصدقا .

وقد كان من بين هؤلاء الذين لم يعرفوا الله تعالى حق معرفته من قالوا أأنزل الذكر على محمد – صلى الله عليه وسلم – من بيننا كأنهم أنكروا أن يكون المنزل عليه القرآن والمخصوص بالرسالة بشرا فهو الأعلم بحال المكلفين وهو الأعلم حيث يجعل رسالاته وإليه مرجع الأمور كلها يقول سبحانه وتعالى **(الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)** .

فهذا شروع فى إثبات الرسالة بعد تهدم قاعدة الشرك . ورسم دعائم التوحيد كما هو رد لبعض مما حكات القوم على ما ثبت فى بعض مأثور النزول وأشرنا إليه فى التقديم لهذا النظم . فاتضح بذلك أمر المناسبة بين هذا النظم الحكيم وبين ما قبله .

والاصطفاء الاجتباء والاختيار .

ومع اشتراك كل من الملائكة والبشر فى وصف الرسالة التى خص الله تعالى بها من شاء منهم إلا أن مفهوم الرسالة معهما يختلف .

فالمصطفون من الملائكة رسلا إنما هم وسائط الوحى بينه تعالى وبين من اصطفاهم من البشر رسلا ومعنى الرسالة فى البشر أنهم وسائط وحيه تعالى الذى تلقوته عنه تعالى أو بوساطة رسله من الملائكة إلى من شاء الله تعالى ابلاغه إليهم من البشر .

وعلى هذا الاعتبار يدرك وجه تقديم رسل الملائكة على رسل البشر فى هذا السياق وأمثاله(١) لأنهم الأسبق فى تلقى الوحى عن الله تعالى كما يدرك ما فى هذا التركيب (**ومن الناس**) من إيجاز الحذف حيث طوي ذكر (رسلا) معه لدلالة ما قبل عليه حتى وإن كان مفهوم الرسالة مختلف على ما أشرت إليه . فأن الأحوال والقرائن دالة على المراد .

وأما ما يتعلق بإيثار طريق الجمع فى رسل الملائكة . فلم أقرأ لذلك تفسيرا . فهل يعنى ذلك تعدد الرسل منهم عليهم السلام على مفهوم أصل الجمع . أو أن المقصود واحد منهم وهو جبريل عليه السلام على ما اشتهر من كونه رسول الوحى. وكما جرى على ذلك صريح النظم القرآنى فى غير موضع(٢) . وحينئذ يكون الجمع على غير ظاهر أمره حيث دل على المفرد لغرض نحو التعظيم حتى لكأنه عليه السلام بامتيازه بتلك الخصيصة صار أهلا لأن يوصف بما يوصف به الجماعة . وهذا طريق فى العربية مسلوك . وفى النظم القرآنى وارد مع غير هذا اللفظ(٣) بل ومع خصوص هذا الوصف مع بعض رسله تعالى من البشر(٤) .

ولعلك تلحظ انى آثرت أن أعرض لهذا الملحظ فى معرض السؤال . حيطة وحذرا من القطع بالقول الصريح والمعين للجواب وان كنت قد صادفت من العلامة

---

(١) سورة فاطر الآية ١ .
(٢) سورة اشعراء الآية ١٩٣ .
(٣) سورة النساء الآية ٥٤ :
(٤) سورة الفرقان الآية ٣٧ .

الألوسى نقلا يفيدكون جمع الرسل مع الملائكة على ظاهره على نحو آخر من التوجيه (فالمراد :الله يصطفى من الملائكة رسلا إلى سائرهم فى تبليغ ما كلفوا به من الطاعات . ومن الناس رسلا إلى سائرهم فى تبليغ ما كلفهم به أيضا)(١) .

وواضح من هذا الحمل اختصاص كل بما هو من جنسه فرسل الملائكة إلى الملائكة كما أن رسل البشر إلى البشر .

ولست بصدد استطراد فى تلك المسألة المتصلة فى جانب منها بغيب وعقيده مما يحسن فى مثله عدم الاسترسال أو السكوت أصلا . فالله تعالى الأعلم حيث يجعل رسالاته ولنعد إلى ما هو الصق بالسياق والغرض فنرى أن تقديم المسند إليه: لفظ الجلالة : (الله) على الخبر الفعلى: (يصطفى) دون يصطفى مثلا لافاة معنى الاختصاص على معنى : الله وحده ، هو الذى يصطفى لا أنتم تصطفون أو تقترحون . فالقصر حينئذ إضافى حيث جاء فى مقام الرد فكأنهم بكلامهم الواردفى أسباب النزول جعلوا أنفسهم بمثابة من يصطفى الرسل ويختارونه فالمراد والله أعلم : (الله وحده هو الذى يصطفى لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه)(٢).

وأما إن جريت على أن هذا الكلام استئناف ابتدائى قصد به إثبات قواعد الدين وتكاليفه وأحوال وسائط بلاغة من الرسل دون أن تلحظ ما ورد فى أسباب النزول. فالقصر حينئذ حقيقى لأنه ليس فى مقام الرد بل هو تقرير حقيقة ثابتة فى الواقع ونفس الأمر .

واعلم أنى لم أقصد من وراء ترديدى أمر القصر بين الاحتمالين أن يختار أحدهما ويطرح الآخر وإنما القصد أن من وراء كل اعتباراً وملحظا والمرجح أبدا مراعاة الأنسب بالسياق وقرائن الأحوال وقد يبقى أمر الاحتمال قائما من غير ترجيح مادام لكل مغزي وغرض على ما كررت ونبهت عليه كثيرا فى أثناء هذا البحث المبارك .

وقد تقول : علمنا مقصد التقديم . فلم كان بالتصريح بذكر لفظ الجلاله دون الضمير العائد على الله سبحانه . وظاهر الحال لذلك ، حيث سبق الاسم الأعظم مع

---

(١) روح المعانى ج١٧ ص١٠٧ . (٢) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤٤ .

الآيات الكريمة قبل ، إنما خولف الظاهر هنا . لأن اسم الجلالة أصله : الإله . أى : الإله المعروف الذى لا إله غيره . فاشتقاقه مشير إلى أن مسماه جامع كل الصفات العلية تقريرا للقوة الكاملة والعزة القاهرة ثم فى إعادة ذكر الاسم الأعظم تربية المهابة لما فيه من معنى الإعظام والإجلال اللائق بأمر إرسال الرسل واخصاص من يشاء من الملائكة والبشر بذلك كما أن فى إيثار هذا اللفظ الجليل ملائمة لأمر التكاليف المراد منها البلاغ إلى الناس بوساطة هؤلاء الرسل المصطفين لهذا الأمر إذ أن أمر التكاليف إنما تكون لمن أقر بالوحدانية أصلا ولذا كان لفظ الالوهية هنا أنسب لتمام المعنى من نحو وصف الخالق مثلا :

وجملة **(إن الله سميع بصير)** : تعليل لمضمون جملة : **(الله يصطفى)** لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذى يختص بالاصطفاء وليس لأهل العقول مهما بلغت بهم عقولهم من الفطنة أن يطلعوا على خفايا الأمور .

والسميع البصير على هذا النحو المبالغ فيه كناية عن عموم العلم بالأشياء بحسب المتعارف فى المعلومات من أنها لا تعدو المسموعات والمبصرات(١) .

وتفسير هذين الوصفين على هذا النحو أنسب بما بعده فى قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) فكان بمثابة القرينة على هذا المراد .

فهذه جملة مقررة لمضمون التعليل السابق فضلا عن كونها معرضة بهؤلاء القوم إلى وجوب مراقبتهم ربهم فى السر والعلانية . فهو تعالى لا تخفى عليه خافية .

وما (بين أيديهم) : مستعار لما يظهرونه . (وما خلفهم) : لما يخفونه لأن الشىء الذى يظهره صاحبه يجعله بين يديه والذى يقصد إخفاءه يجعله وراءه .

ويجوز أن يكون (ما بين أيديهم) مستعارا لما سيكون من أحوالهم لأنها تشبه الشىء الذى هو أمام الشخص . وهو يمشى إليه . (وما خلفهم) مستعار لما مضى وعبر من أحوالهم لأنها تشبه ما تركه السائر وراءه وتجاوزه(٢) .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤٤ .

(٢) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤٤ .

وعلى هذا الاعتبار فكأن المراد أن علمه تعالى محيط بما سلف من أعمالهم وبما سيجىء . وأيما كان فالمطابقة حاصلة فإحاطة علمه تعالى لما كان ويكون من الأحوال وما هو ظاهر منها وما خفى ولذا أرى الجمع بين الاعتبارين أتم وأنسب كما أن الأنسب كذلك عود ضمير : أيديهم و : خلفهم إلى المشركين المتحدث عنهم فى الآيات الكريمة قبل ، كما أرجعه بعض المفسرين إلى الرسل من الملائكة والناس لكونهم ألا قرب ذكرا ولا مانع من مراعاة العود إلى الجميع .

وقد بنى فعل (ترجع) على صيغة المبنى المجهول لظهور من هو فاعل الارجاع. فانه لا يليق إلا بالله تعالى . فلكون الذهن لا ينصرف فى نحو ذلك إلى غيره كان التعبير بتلك الصيغة إبلغ فهو يمهل الناس فى الدنيا . وهو يرجع الأمور إليه يوم القيامة .

وتقديم المجرور (إلى الله) لافادة القصر الحقيقى والمعنى : إلى الله وحده لا إلى غيره مصير الأمور والجزاء على الأعمال لأنه سبحانه ملك يوم الدين .

والتعريف فى (الأمور) : للاستغراق . أى : جميع الأمور من الأعمال والأحوال وفى ذلك جمع بين البشارة والنذارة تبعا لما قبله من قوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) .

وكأن ذلك تمهيد لتلقى التكاليف عن أولئك الرسل الذين اصطفاهم سبحانه للقيام بواجب البلاغ فكان الاقبال من الله تعالى على أهل الإيمان وخطابهم بتكاليف هذا الدين .

يقول سبحانه وتعالى (**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**)الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

فهذه الآيات من النظم الحكيم والمختتم بها تلك السورة المباركة تقرر قواعد الدين الحق بعد أن كان الكلام فى كل ما مضى أصلا : تفصيلا لمزاعم أهل الشرك والكفر والعناد ودحضها . وتبيان وجه الصواب بالدلائل والبراهين الدامغة والقاطعة

فى فساد وكذب معتقداتهم . وصلاح ما يدعون إليه ثم كان من بعد كل ذلك الانصراف عن هؤلاء الجاحدين . والاقبال على من آمن ليعلم مطلوبات هذا الدين الذى صدق به واعتقد حتى يكون عمله بمقتضى إيمانه على هدى وبصيرة .

ونلحظ أن فى ترتيب السورة المباركة على هذا النحو إيماء إلى أن الاشتغال باصلاح العقيدة مقدم على الاشتغال باصلاح الأعمال . وهذا أصل من أصول الدين تقره الفطر السوية . إذ كيف يتصور صلاح فى العمل مع فساد المعتقد الذى إليه مرجع الحكم فيما هو صالح وما هو فاسد لأنه من قبل الحكيم الخبير سبحانه وتعالى .

كما نلحظ فى أمر ترتيب التكليفات فى هذا النظم الجليل أنه روعى معها ذكر الخاص أولا حيث بدء بما يدل على الصلاة من الركوع والسجود وثنى بالعام فذكر ما يعم سائر العبادات ثم ثلث بالأعم فذكر ما يشمل العبادات والفرائض وكذا المعاملات والأخلاق التى ينادى بها الإسلام ويحض عليها فكانت الآية الكريمة المصدر بها النظم الجليل بهذا جامعة لقواعد الدين وفروعه ووصاياه على نحو من الايجاز القرآنى المعجز .

والمراد بالركوع والسجود : الصلوات (وذلك لأنهما أشرف أركانها والصلاة هى المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكرها(١) وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات للتنبيه على كونها عماد الدين .

والمراد بالعبادة المعطوف الأمر بها على ماذكر من الركوع والسجود : ما أمر الله الناس أن يعبدوه به من صلاة وصوم وحج وأمثال ذلك ثم كان أمره تعالى من بعد بفعل الخيرات من نحو حسن المعاملة كصلة الرحم . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وسائر مكارم الأخلاق . وهذا مجمل فى هذا السياق مبين وموضح مراتبه فى مواقع أخرى .

والرجاء المستفاد من : (لعلكم تفلحون) مستعمل فى معنى تقريب الفلاح لهم إذ بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح . فهذه حقيقة الرجاء . وإما ما يستلزمه

---

(١) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص٧٢ .

من تردد الراجى فى حصول المرجو فذلك مما لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التى تحيل الشك على الله تعالى(١) .

وربما أشكل الأمر مع بادى النظر فى عطف أمر المجاهدة على ما سبق حيث يدخل هذا الأمر فى مفهوم الأمر بالعبادة لعمومه كما يشمله فعل الخيرات كذلك لكونه أعم .

ولعل فهم المراد من إضافة المجاهدة فى هذا السياق يزيل المشكل ويحقق أمر التناسب بين الآى على أتم وجه .

فالجهاد كما يذكر الراغب : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر كالكفار . ومجاهدة الشيطان . ومجاهدة النفس(٢).

ومع أنه ورد فيما أثر عن بعض متقدمى المفسرين توجيه المراد فى قوله تعالى **(وجاهدوا فى الله حق جهاده)** على كل تلك المعانى الثلاثة كل على حدته كما نقله الفخر(٣) . غير أنى رأيت صاحب التحرير يصرف المراد إلى خصوص الضرب الأول بناء على أن (الجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة عرفية فى قتال أعداء المسلمين فى الدين لأجل إعلاء كلمة الإسلام)(٤) .

ولا شك فى أن هذا التوجيه هو الظاهر والمتبادر، إلا أن تبصر السياق وعلائق تراكيبه وتتابع الأوامر والتكاليف تشعر بأن الحمل على التعميم . فالجهاد هنا : تعبير شامل جامع فى ضمنه جهاد الأعداء وجهاد النفس وجهاد الهوى والفساد ونحو ذلك سواء بسواء . وأرى التعبير على هذا النحو أوفق بالغرض وألصق بالمقام فإن كانت الآية الكريمة السابقة تحمل تكاليف الله تعالى إلى أهل الإيمان فإن الأمر فى هذه الآية بالمجاهدة يحمل وسائله الموصلة لتلك المطلوبات فإذا كان الانتصار

---

(١) ينظر التحرير ج١٧ ص٣٤٦.

(٢) مفردات الراغب ص ١٠١ .

(٣) ينظر تفسير الفخر ج٢٣ ص٧٣ .

(٤) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤٧ .

لدين الله تعالى بمجاهدة أهل الشرك والكفر تمكين الدين الحق . فكذلك الانتصار على الشيطان والهوى يحقق مطلوب العبادة وفعل الخيرات . وبهذا الاعتبار ينكشف ما وراء عطف أمر الجهاد على الأوامر قبله وجهة التناسب بينهما ومن هنا يذكر الكشاف إن قوله تعالى **(وجاهدوا فى الله حق جهاده)** أمر بالقتال ومجاهدة النفس والهوى(١) .

وليس ذلك من قبيل استعمال اللفظ الواحد فى حقيقته ومجازه الثائر حوله الجدل والخلاف للتلازم الواضح بين تلك المعانى المراده . فإن مدافعة الأعداء متوقفة دون ريب على مغالبة الشيطان والهوى المزين ايثار الراحة والمهيىء مكذوب المعاذير المقعدة ، فمجاهدة النفس إذن باعث على مجاهدة الغير من الأعداء فهى جماع الأمر كله ومن ثم حق لها وصف الجهاد الأكبر .

وأكثر أهل التفسير على أن المراد بقوله تعالى : **(وجاهدوا فى الله)** أي: فى ذات الله . ومن أجله أى : لأجل نصرة دينه .

والتفسير على هذا الاعتبار معقول غير أنه يبقى الجواب عما وراء إيثار التعبير بحرف الظرف (فى) دون ما يطتلبه الظاهر من التعبير باللام الدالة صراحة على هذا المعنى لكونه أحد دلالاتها . ومن هنا أرى الأقرب : تقدير الكلام على حذف مضاف أى : فى سبيل الله على نحو ما ذكر المقدر صريحا فى أكثر من موقع نظير قوله تعالى **(والذين آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ...الآية)**(٢) .

وأصل (حق جهاده) : جهاده الحق . فقدمت صفة الحق وأضيفت إلى موصوفها . وأما إضافة جهاد إلى ضمير لفظ الجلالة ففى الكشاف (أن الاضافة تكون لأدنى ملابسة واختصاص . فلما كان الجهاد مختصا بالله تعالى من حيث إنه مفعول لوجهه سبحانه صحت اضافته إليه)(٣) .

وعلى كل حال فالتركيب دال على الأمر بالجهاد على أتم وجه وأن يكون خالصا له سبحانه وأن يكبح المرء نوازع الهوى ونوازغ الشيطان . فذلك كله : الجهاد فى الله حق جهاده .

---

(١) الكشاف ج٣ ص٢٣ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٧٤ .
(٣) الكشاف ج٣ ص٢٣ .

وحيث كان الأمر بالجهاد على هذا النحو الذى قد يشق أمره على بعض النفوس أعقب الحق بما ييسر ويهىء القلوب المؤمنة لتلقيه والاستجابة له . وذكر تعالى فى ذلك أموراً أولها : هو (اجتباكم) أى : هو جل شأنه اصطفاكم لا غيره . فالجملة مستأنفة لبيان علة الأمر بالجهاد . فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ومن قربه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بذلك ما لا يرضاه ففيها تنبيه على المقتضى للجهاد .

ويقول الفخر (ومعناه) إن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد . فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته . فأى رتبة أعلى من هذا . وأى سعادة فوق هذا . ومعنى (اجتباكم) : خصكم بالهداية والمعونة والتيسير)(١) .

ولا يبعد أن يكون التعليل بهذا مستأنفاً عائداً على جملة الأوامر السابقة لاخصوص الجهاد . أى هو اصطفاكم لتلقى دينه والعمل بمطلوباته وتكاليفه ونصرته.

وهذا الخطاب وإن كان موجها أصالة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة رضوان الله تعالى عليهم . فإنه بالتبعية يعم كل من جاهد بعدهم بحكم اتحاد الوصف فى الأجيال . كما هو الشأن في مخاطبات التشريع .

ومزيدا فى الحث على الامتثال أردف الحق تبارك وتعالى بمرغب ثان . وذلك بأن جعله دينا لا حرج فيه . (**وما جعل عليكم فى الدين من حرج**) لأن ذلك يسهل العمل به وترغيبا فى الإقبال على أمور التكليف وقطعا للمعاذير .

والحرج · الضيق على ما هو وارد فى المأثور(٢) . أطلق على عسير الأعمال تشبيها للمعقول بالمحسوس . ثم شاع هذا التجوز حتى صار حقيقة عرفية .

ودخول (من) على (حرج) المنكر فى سياق النفى : مفيد لمعنى المبالغة بتعميم نفى أن يكون ثمة حرج ما فى تكاليف هذا الدين المجتبى لتلك الأمة المجتباه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج٢٣ ص٧٤ . (٢) ينظر تفسير غريب القرآن ص٢٩٥ .

لا كما كان حال الأديان الأخرى مع الأمم السالفة من نحو ما كان مع بنى اسرائيل حيث استجلبوا على أنفسهم التشديد فى دينهم فحرم عليهم ما كان حلالا لهم .

ونرى هنا حسن موقع حرف الجر (على) المفيد معنى الاستعلاء اللائق بالحرج والضيق والمشقة مع إضافته إلى ضمير المخاطبين من هذه الأمة : (عليكم) فكان نفى الحرج على هذا النحو أبلغ . وفى ضمنه تعريض بما كان عليه حال غيرهم فمادام الله تعالى اصطفاكم أنتم فقد اصطفى لكم أنتم الدين الأيسر والمنفى عنه كل عسر ومشقة أيضا ، فكان هذا التيسير من خصائص هذه الأمة . وقد أثر على ما يذكر الفخر : أعطى الله تعالى هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا الأنبياء : جعلهم شهداء على الناس ، وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ادعونى أستجب لكم)(١) .

وهذا المعنى صريح آيات الكتاب العزيز : **(لتكونوا شهداء على الناس)(٢) (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)(٣) (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)(٤) .**

بقى من أمر هذا التركيب ملحظ أرى من البلاغة ذكره . فقد عبر هنا بنفى الحرج دون المشقة مثلا . مع أنه مما يفسر بها ، وذلك لأن المعنى على هذا النحو المبالغ فى نفى قصد التضييق والإعنات منه تعالى بما كلف وليس القصد إلى نفى ما يصادفه المؤمن المقبل على أداء ما افترض عليه . فإنه واجد فيه مشاق قطعا وإلا فلم الحض على المجاهدة والمصابرة فى أداء التكاليف؟ ولم الإثابة على الإقبال عليه تعالى والامتثال لما كتب منه تعالى على أهل الإيمان إن كانت تلك التكاليف عارية تماما عما يشق على النفس أمره؟ .

ولم انصراف أولئك الخارجين عن المنهج واستمرائهم الراحة حينا . واعتذارهم بشغل الحياة حينا .أو جحودهم أمر التكليف أصلا حينا آخر بزعمهم أن معه قيوداً

---

(١) تفسير الفخر ج٢٣ ص٧٤ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٤) سورة غافر الآية ٦٠ .

ومشاق وتبعات تصرف عن متابعة حركة الحياة : وكل ذلك اثم وبهتان . فما خلق الله تعالى عباده عبثا يقدرون أمور حياتهم . بل خلقهم جل وعلا وقدر لهم . فكان لهذا ونحوه نفى الحرج عن هذا الدين هو الأنسب والأبلغ والأليق بالمراد. وأما كون المشقة مما يقع تفسيرا للحرج فلا يناقض ولا يصادم إذ من المعلوم الثابت أن سائر ما يقال فى التفسير إنما هو لقصد الإيضاح والتقريب فقط ويبقى بعد ذلك القرآن قرآنا والتفسير تفسيرا على ما أشرت إليه بشىء من الإيضاح فى التقديم لهذا البحث المبارك .

مضى من موجبات قبول التكاليف والترغيب فى امتثالها أمران : التشريف بهذا التكليف . ونفى قصد العنت والعسر معها . ومقتضى هذا أن يكون قوله تعالى من بعد : (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) تثليا لتلك الموجبات الحاضة على الاقبال والامتثال . سواء ارتضيت قول الفراء : إن المعنى (وسع دينكم كلمة أبيكم إبراهيم)(١) . أو آثرت مذهب صاحب الكشاف من أن المعنى (وسع عليكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم)(٢) بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع حذف الفعل المدلول عليه بما قبله من نفى الحرج فإن المعنى على الاعتبارين متقارب إذ الأصول فى الشرائع السماوية واحدة .

وعلى كل حال فالمراد من وراء هذا التركيب التنبيه على أن هذه التكاليف جارية من حيث الأصل على شريعة إبراهيم عليه السلام وتخصيص شريعته بالذكر من حيث كان العرب محبين له فإنهم من ولده فكان التنويه بذلك كالسبب لصيرورتهم على حال من قبول هذا الدين .

ثم إن الظاهر انصراف الخطاب هنا إلى عموم الأمة وإن كان صلى الله عليه وسلم وصحبه البرره هم المباشرون له عند نزوله . وعلى ذلك فاضافة أبوة إبراهيم عليه السلام إلى ضمير الجمع جارية على التغليب . فإن غالب العرب كانوا من ذريته(٣) أو تكون الاضافة على معنى التوقير والتعظيم بما يقارب ما عليه

---

(١) معانى القرآن ج٢ ص٢٣١ .

(٢) الكشاف ج٣ ص٢٤ .

(٣) روح المعانى ج١٧ ص٢١٠ .

قوله تعالى : **(وأزواجه أمهاتهم)**(١) حيث جعل تعالى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى حكم أمهات المؤمنين لموجب تحريم الزواج فى كل . ولأنه أبو الرسول عليه الصلاة والسلام الذى له مقام الأبوه للمسلمين وقد قرء فى الشواذ :**(وهو أبوهم)** فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الآخرة وكذا وجودهم على الوجه المعتد به المحقق لغاياته سبحانه من الخلق .

ومن هنا لا أكاد أرى انصراف التعبير الدال على الجمع فى هذا التركيب إليه صلى الله عليه وسلم خاصة على طريق التعبير بالجمع المراد به واحدا لقصد نحو التعظيم . فإن حق تعظيمه صلى الله عليه وسلم على الحمل الأول مصون، فضلا عن وقوع هذا الخطاب بين ما هو صريح فى مخاطبة الأمة بما يرشح الجريان على النسق إذ لا مقتضى للعدول والتلوين فى الخطاب .

ولا يقال كيف جعلتم فى تخريج نسبة الأبوة إلى ضمير جمع الأمة مع إمكان تنزيله صلى الله عليه وسلم منزلتها . لكونه كالأب لها مع أن ذلك منصوص عليه بالنفى فى الكتاب العزيز : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم..)(٢) لأنى أقول: السياق يختلف والغرض مغاير .

فالمنفى عنه صلى الله عليه وسلم هو أبوة التبنى . بأن يدعى المتبنى باسم من تبناه دون من ولده على الحقيقة . فذلك المنفى عنه صلى الله عليه وسلم . وذلك المنهى عنه أمته . وأما معنى الأبوه هنا فعلى معنى التنزيل بقصد التوقير والتشريف والتعظيم . وذلك كله من حقوقه صلى الله عليه وسلم على جميع أمته فظهر بذلك وجه الفرق بين السياقين والغرض بحيث وقع نفى الأبوه عنه عليه الصلاة والسلام هناك وصح امكان نسبتها إليه هنا .

ثم ان الظاهر عود ضمير الغيبة فى قوله تعالى **(هو سماكم المسلمين من قبل)** على إبراهيم عليه السلام . لذكره فى التركيب السابق . وبهذا قال بعض

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

مفسرى السلف(١) . واستظهر ذلك أبو حيان لقرب معاد الضمير ولتسميته إياهم من قبل فى قوله تعالى **(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)**(٢) وقد استجاب الله تعالى دعاءه فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم لدخول أكثرهم فى الذرية(٣) . غير أن أكثر أهل التفسير مالوا إلى صرف الضمير هنا إليه تعالى كضمير **(اجتباكم)** . فيكون التركيب استئنافا ثانيا أى هو اجتباكم وخصكم بهذا الإسم الجليل فلم يعطه غيركم(٤) .

وعلى هذا التوجيه فالمراد من قوله تعالى (من قبل) أى : فيما سبق القرآن الكريم من الكتب السماوية كالتوراة والانجيل (وفى هذا) أى : فى القرآن كذلك(٥) .

واما قوله تعالى **(لتكونوا شهداء على الناس)** فمتعلق بقوله تعالى : **(هو اجتباكم)** أى : فضلكم على الأمم لهذا الغرض . نظير قوله تعالى : **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)** (٦).

غير أنه يلحظ تقديم شهادة الأمة وتأخير شهادة الرسول عليه الصلاة والسلام فى آية البقرة لأن الخطاب معهم . وليقع الختم على شهادة الرسول كما هو الواقع وأما ما هنا فقد قدمت شهادته عليه الصلاة والسلام وأخرت شهادة الأمة ليناط بذلك أمور التكاليف الواردة بعد . حيث رتب تعالى قوله : **(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله)** على ما سبق . فكأن المراد إذ خصكم بهذه الكرامة فأقيموا أوامره(٧) .

---

(١) ينظر روح المعانى ج١٧ ص٢١٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٨ .

(٣) البحر المحيط ج٦ ص٣٩١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢٣٦ التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٤٩ .

(٥) تفسير الفخر ج٢٣ ص٧٥ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٧) رغائب القرآن ج١ ص١٢٥ .

ويذكر صاحب التحرير فى التعليل لأمر التقديم والتأخير أن آية (هذه السورة فى مقام التنويه بالدين الذى جاء به الرسول فالرسول هنا أسبق إلى الحضور . فكان ذكر شهادته أهم . وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم)(١) .

والظاهر أن شهادته عليه الصلاة والسلام على أمته بأنه قد بلغ عن ربه ما أوحى إليه به وأمر بتبليغه فأطاع من أطاع وعصى من عصى . ولذا فحرف الاستعلاء المقترن بضمير الأمة (عليكم) : واقع موقعه . لا كما قيل إنه بمعنى اللام . أي : ويكون الرسول لكم شهيدا نظير قوله تعالى : **(وما ذبح على النصب)**(٢) . فعلى ذلك يبقى السؤال عما وراء العدول عن اللام إلى (على) . ولا أرى الجواب شافيا إن قيل : إن ذلك جار على ضرب المشاكلة لوقوعه فى صحبة (على) مع شهادة الأمة فى قوله تعالى : **(لتكونوا شهداء على الناس)** حيث إن مراعاة جانب حق المراد أهم إن لم تكن المشاكلة موفيه بتمام الغرض وإلا صار القول بها ضربا من التزيين اللفظى تنزه الاعجاز البيانى عن مثله.

ثم فرع النظم الجليل : **(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله)** على ما سبق وتخصيص هذين الركنين لفضلهما على ما وجه به الألوسى(٣) .

ولكون الصلاة قد دل على أمرها بالأمر بالركوع والسجود قبل فإعادة الذكر هنا بصريح لفظها جار مجرى التوكيد اللائق بحالها إذ هى عماد الدين .

وواضح أن ليس المراد إيجاد أصل الركنين حتى يكون ذلك تشريعا لهما فذلك حاصل من قبل وفى سياقات أخرى . وإنما المراد الدوام والثبات ونحو ذلك من معانى الحث والحض .

والاعتصام المأمور به بعد أمر الصلاة والزكاة مراد به : اجعلوا الله تعالى

---

(١) التحرير والتنوير ج١٧ ص٣٥٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣ .

(٣) روح المعانى ج١٧ . ص١٢ .

ملجأكم ومنجاكم . وهو أصلا :صيغة افتعال من العصم بمعنى المنع من الضرر والنجاة يقول سبحانه وتعالى **(قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء)** (١).

ثم استأنف الحق تبارك وتعالى قوله : **(هو مولاكم)** بغرض التعليل للأمر السابق فإن المولى يُعْتَصَمُ به ويلجأ إليه لعظيم قدرته وحكمته وفرع على ذلك ما يفيد إنشاء الثناء على الله تعالى : **(فنعم المولى ونعم النصير)** أى نعم المدبر لشئونكم . والناصر لكم .

والمجىء بصيغة (نصير) : للمبالغة فى النصرة لأوليائه المؤمنين أى : نعم هو الولى لكم أيها المؤمنون . ونعم هو الناصر لكم أيضا . وأما أولئك الكفرة فلا يتولاهم تولى العناية والنصرة وبذلك الاعتبار حسن موقع تفريع تلك الجملة على التى قبلها من الأمر بالاعتصام به تعالى .

وهذا من براعة الختام كما هو بين ، فكأنه تعالى لما خاطب الناس فى مفتتح تلك السورة المباركة وأمرهم بالتقوى التى هى جماع تكاليفه المرادة من خلقه ، ختم بوعده من أقبل واستجاب لمطلوبات هذا التكليف بأن يكون تعالى الملجأ ، والمنجى والناصر . وأنعم به تعالى مولى وأحسن به تعالى نصيرا . إذ لا مولى فى الحقيقة إلا هو . ولا ناصر فى الحقيقة سواه . فانظر كيف كان ختام هذه السورة المباركة على تلك الجهة من التناسب مع مطلعها فالبدء بتحصيل مطلوب التقوى ، أو الدوام والثبات . أو الازدياد . فهى باب واسع والختم : أمر الاستمساك بحبل الله تعالى ، واخباره سبحانه بوعد المعونة والنصرة لمن كانوا أهلا للاصطفاء .

والحمد لله تعالى فى الأولى والآخرة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة هود الآية ٤٣ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ - أساس البلاغة . للزمخشرى - دار المعرفة ، بيروت (بدون تاريخ)
٢ -أسباب النزول : للسيوطى ، الناشر : مكتبة نصير (بدون تاريخ) .
٣ - أسباب النزول : للواحدى ، ط : مصطفى الحلبى - الطبعة الثانية - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م .
٤ - أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر - تحقيق أ. د/ محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م .
٥ - أسرار التكرار فى القرآن : للكرمانى - تحقيق : عبد القادر أحمد عطا - دار الاعتصام - الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
٦ - أسرار ترتيب القرآن : للسيوطى تحقيق : عبد القادر أحمد عطا - دار الاعتصام - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
٧ - إعجاز القرآن للرافعى ، دار الكتاب العربى بيروت - الطبعة التاسعة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
٨ - اعجاز القرآن : للباقلانى - تحقيق : السيد أحمد صقر - ط : دار المعارف ١٩٦٣ م .
٩ - إعراب القرآن للزجاج - تحقيق : إبراهيم الأبيارى ، ط : المطابع الأميرية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٤م .
١٠ - الإكسير فى علم التفسير للطوخى - تحقيق : د. عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ، ١٩٧٧ .
١١ - آمالى المرتضى - تحقيق : أبو الفضل ابراهيم - دار الكتاب العربى ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٦٧ م . بيروت الطبعة الثانية .

١٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير البيضاوى : ط / مصطفى الحلبى الطبعة الثانية : ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
١٣ - البحر المحيط لابى حيان الأندلسى - ط : دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
١٤ - بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية - ط : بيروت - (بدون تاريخ) .
١٥ - البديع من المعان والألفاظ د/ عبد العظيم المطعنى - دار وهدان الطبعة الأولى (بدون تاريخ) .
١٦ - البرهان فى علوم القـرآن : للزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط - دار المعرفة ببيروت (بدون تاريخ) .
١٧ - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : للفيروزبادى - تحقيق : محمد على النجار : ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٩ م .
١٨ - بغية الإيضاح - عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب الطبعة السادسة (بدون تاريخ) .
١٩ - بلاغة الأسلوب د/ بسيونى عرفة رضوان دار الرسالة للطباعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
٢٠ - البـلاغة القرآنيـة فى تفسير الزمخشـرى أ. د/ محمـد أبو موسى - دار الفكر العربى ، القاهرة .
٢١ - تأويل مشـكل القرآن : لابن قتيبة - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار التراث - بالقاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
٢٢ - التبيان فى إعـراب القرآن : للعقبرى تحقيق : على محمد البيجاوى - ط : عيسى الحلبى (بدون تاريخ) .
٢٣ - التبيان فى أقسام القرآن : لابن قيم الجوزية ، : دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٢٤ - التبيـــان فى غـريب إعـــراب القـــرآن لابن الأنبـــارى : تحقيـــق د/ طه عبد الحميد طه . مصطفى السقا - ط : الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٢٥ - تجريد البنانى على مختصر السعد ، المطبعة الخيرية ، الطبعة الأولى ١٣٢٩ هـ .

٢٦ - تحت راية القرآن ، للرافعى دار الكتاب العربى بيروت - الطبعة الساب ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

٢٧ - التحرير والتنوير : للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر (بدون تاري

٢٨ - تفسير أبى السعود . الناشر : دار المصحف (بدون تاريخ) .

٢٩ - التفســير البيــانى للقرآن الــكريم - د. عائشــة عبد الرحمن - ط دار المعارف ١٩٦٩ م .

٣٠ - تفسير الفخر الرازى : ط : دار الفكر بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤٠١ - ١٩٨١ م .

٣١ - تفسير القرآن العظيم : لابن كثير . ط : عيسى الحلبى (بدون تاريخ)

٣٢ - تفسير غريب القــرآن : لابن قتيبــة - تحقيق : السيـد أحمد صقر دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٣٣ - تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ط : دار الشعب .

٣٤ - تفسير المنار ، للسيد محمد رشيد رضا . ط - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

٣٥ - تفسير النسفى ط : عيسى الحلبى (بدون تاريخ) .

٣٦ - تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضى عبد الجبار ، دار النهضة الحديث بيروت (بدون تاريخ) .

٣٧ - الاتقان فى علوم القرآن : للسيوطى ، ط : دار الفكر ، بيروت (بدو تاريخ) .

٣٨ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق : محمد خلف الله أحمد - د/ محمد زغلول سلام ، دار المعارف - الطبعة الثانية - ١٣٧٧ هـ - ١٩٦٨ م .
٣٩ - جامع البيان فى تفسير القرآن : للطبرى دار الريان : الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٤٠ - حاشية الإنبابى على رسالة الصبان فى علم البيان - ط : المطبعة الأميرية - الطبعة الأولى ، ١٣١٥ هـ .
٤١ - حاشية الشهاب : ط : دار صادر . بيروت (بدون تاريخ) .
٤٢ - خزانة الأدب . للبغدادى - تحقيق : د/ عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
٤٣ - الخصائص لابن جنى - تحقيق الأستاذ الشيخ : محمد على النجار - دار الهدى بيروت (بدون تاريخ) .
٤٤ - درة التنزيل وغرة التأويل لأبى الخطيب الاسكافى : دار الأفاق الجديدة - بيروت . الطبعة الرابعة - ١٤٠١ - ١٩٨١ م .
٤٥ - دلائل الإعجاز : للإمام عبد القاهر ، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة : الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
٤٦ - دليل الفالحين - بن علان - دار الريان للتراث - الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٤٧ - روح المعانى : للألوسى ، ط : دار الفكر - بيروت ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .
٤٨ - سر الفصاحة . لابن سنان - تحقيق - الشيخ : عبد المتعال الصعيدى : ط عيسى الحلبى - ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م .
٤٩ - شرح أبيات سيبوية لأبى جعفر النحاس - تحقيق : زهير غازى زاهد - مطبعة القرى - بغداد - ١٩٧٤ م .
٥٠ - شرح المفصل . لابن يعيش - مكتبة المتنبى القاهرة : (بدون تاريخ) .
٥١ - شروح التلخيص - عيسى الحلبى (بدون تاريخ) .

٥٢ - الصيغ البديعى - د. أحمد موسى ، دار الكتاب العربى - ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٩ م .
٥٣ - صحيح مسلم . بشرح النووى ، : دار الريان للتراث .
٥٤ - الصناعتين / لأبى هلال العسكرى ط : عيسى الحلبى (بدون تاريخ) .
٥٥ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : لابن قيم الجوزية مكتبة المتنبى .
٥٦ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . للعلوى - دار الكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ) .
٥٧ - العمدة . لابن رشيق - تحقيق : الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٣ م .
٥٨ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان .للنيسابورى ، تحقيق : ابراهيم عطوه عوض - ط: عيسى الحلبى - الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
٥٩ - فتح البارى بشرح : صحيح البخارى لابن حجر - تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، مصطفى محمد الهوارى ، السيد محمد عبد المعطى - ط : القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٩ م .
٦٠ - الفتوحات الآلهية : للجمل على تفسير الجلالين . ط : عيسى الحلبى (بدون تاريخ) .
٦١ - الفروق اللغوية . لأبى هلال العسكرى . تحقيق : حسام الدين النوسى . دار الكتب العلمية بيروت (بدون تاريخ) .
٦٢ - فقه اللغة وأسرار العربية - للثعالبى - تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ط : عيسى الحلبى ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .
٦٣ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د: شوقى ضيف - ط : دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٧ م .
٦٤ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : لابن قيم الجوزية - مكتبة/ المتنبى .
٦٥ - الفوائد لابن قيم الجوزية - مكتبة المتنبى - القاهرة (بدون تاريخ) .

٦٦ - فى ظلال القرآن : للأستاذ / سيد قطب دار الشروق - الطبعة العاشرة ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
٦٧ - القاموس المحيط - للفيروزبادى - ط : عيسى الحلبى - الطبعة الثانية - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
٦٨ - قراءة فى الأدب القديم - د/ محمد أبو موسى - ط - دار الفكر العربى - الطبعة الاولى - ١٩٧٨م .
٦٩ - الكامل للمبرد - ط - بيروت - بدون تاريخ .
٧٠ - كتاب السبعة فى القراءات - لابن مجاهد تحقيق - أ.د/ شوقى ضيف - ١٩٨٠م .
٧١ - الكتاب لسيبوية ، تحقيق - عبد السلام محمد هارون - دار القلم - ١٣٨٥ھ - ١٩٦٦م .
٧٢ - الكشاف - للزمخشرى - ط - بيروت - بدون تاريخ .
٧٣ - لسان العرب - لابن منظور - ط - دار المعارف .
٧٤ - متشابة القرآن - للقاضى عبد الجبار - تحقيق - د/ عدنان محمد زرزور - دار التراث - بدون تاريخ .
٧٥ - المثل السائر - لابن الأثير - ط - بولاق .
٧٦ - مجاز القرآن - لأبى عبيدة - تحقيق - د/ محمد فؤاد سركين - مكتبة الخانجى - بدون تاريخ .
٧٧ - المجازات النبوية - للشريف الرضى - تحقيق - أ.د / طه محمد الزينى - مؤسسة الحلبى - بدون تاريخ .
٧٨ - المحتسب لابن جنى- تحقيق - على النجدى ناصف - د. عبد الفتاح شلبى - ط - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - ١٣٨٩ ھ - ١٩٦٩ م .
٧٩ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - لابن عطيه - ط - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

٨٠ - مسائل الرازى وأجوبتها - لأبى بكر عبد القادر الرازى - تحقيق - ابراهيم عطوه عوض - ط - مصطفى الحلبى - الطبعة الأولى - ١٣٧١ هـ - ١٩٦١ م .
٨١ - المزهر للسيوطى - المكتبة الأزهرية - بدون تاريخ .
٨٢ - المطول - لسعد الدين .
٨٣ - مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة - على النجدى ناصف - ط - المعرف - ١٩٨١م .
٨٤ - معاهد التنصيص على شواهد التخليص - للعباسى - عالم الكتب - بيروت .
٨٥ - معانى القرآن الكريم - للفراء - تحقيق - الأستاذ محمد على النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة - بدون تاريخ .
٨٦ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن - للسيوطى - تحقيق - على محمد البيجاوى - دار الفكر العربى - بدون تاريخ .
٨٧ - معجم ألفاظ القرآن الكريم - مجمع اللغة العربية - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
٨٨ - معجم آيات القرآن الكريم - محمد منير الدشقى - مكتبة التراث الإسلامي - بدون تاريخ .
٨٩ - مفتاح العلوم - للسكاكى - دار الكتب العلمية - بيروت .
٩٠ - المفردات فى غريب القرآن - للراغب الأصفهانى - تحقيق - محمد سيد كيلانى - ط - مصطفى الحلبى - ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
٩١ - المقتضب للمبرد - تحقيق الاستاذ الشيخ - محمد عبد الخالق عضيمة - القاهرة - ١٣٩٩ هـ .
٩٢ - مناهل العرفان فى علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقانى - ط - عيسى الحلبى - بدون تاريخ .

٩٣ - من كنوز البلاغة فى تفسير سورتى الحجرات وق د/ عبد الجواد محمد طبق - مطبعة الأمانة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

٩٤ - وجـوه الخطاب فى القرآن الكريم ومواقعها البلاغية - د/ محمد على أبو زيد - رسالة دكتوراه مخطوط بكلية اللغة العربية .

٩٥ - النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز ، ط - دار القلم الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٩٦ - النظم البلاغى بين النظرية والتطبيق - د. حسن اسماعيل عبد الرازق - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م .

٩٧ - نيل الأوطار للشوكانى ، دار الحديث ، القاهرة (بدون تاريخ)

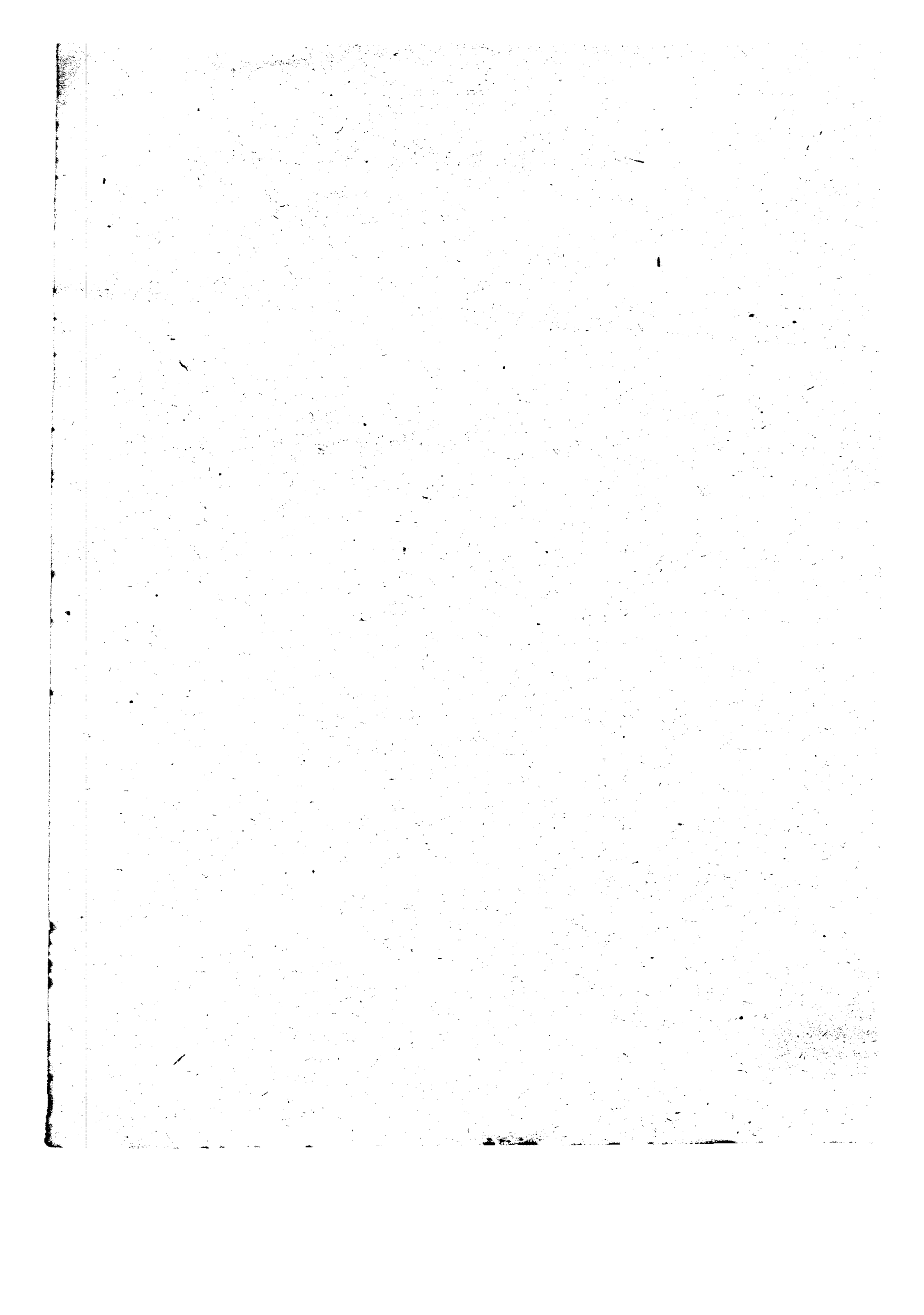
دليل الكتاب

والله أعلم

تصحيح الأخطاء الواردة بالآيات القرآنية

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢٧	٤ من أسفل	ثم نطفة	ثم من نطفة
٢٩	١٠ من أعلى	إنا خلقناكم من نطفة	فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة
٢٩	٧ من أسفل	إنا خلقناكم	فإنا خلقناكم
٣١	٨ من أعلى	مخلفة وغير مخلفة	مخلقة وغير مخلقة
٣٦	١٥ من أعلى	فإن خلقناكم	فإنا خلقناكم
٣٨	٤ من أعلى	أتزلنا	أنزلنا
٥٤	٢ من أعلى	يدعوا	يدعو
٥٦	٤ من أسفل	يدعوا	يدعو
٦٢	٤ من أعلى	وإن الله	وأن الله
٧٠	١١ من أسفل	هذان اختصموا	هذان خصمان اختصموا
٧٧	٣ من أعلى	لهعم	لهم
٧٩	٢ من أعلى	فيها من حرير	فيها حرير
٨٢	٢ من أسفل	فكان أبوابا	فكانت أبوابا
٨٤	٩ من أسفل	الذين كفروا	فالذين كفروا
٨٨	١ من أعلى	وإذا بوأنا	وإذ بوأنا
٩٢	٣ من أسفل	يشهدوا	ليشهدوا
٩٣	١٠ من أسفل	ليذكروا	ويذكروا
١٠٤	٧ من أسفل	بؤانا	بوأنا
١٠٤	٢ من أسفل	المختبين	المخبتين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٤	١ من أسفل	جعلنا	جعلناها
١٠٥	٩ من أعلى	أسلموا	أسلموا
١٠٥	٢ من أعلى	وجبت بها	وجبت جنوبها
١٠٥	١٤ من أعلى	إذا ذكروا	إذا ذكر
١٠٦	٤ من أعلى	لك	لكم
١٠٧	٧ من أعلى	دمائها	دماؤها
١١١	٩ من أعلى	كافور	كفور
١٢٣	١٢ من أعلى	نكيو	نكير
١٢٤	١٠ من أعلى	بيانهم	بنيانهم
١٢٥	٣ من أسفل	مصبجين	مصبحين
١٣١	١ من أعلى	عتد	عند
١٤٢	٨ من أعلى	أمينته	أمنيته
١٤٤	٦ من أسفل	تركن شيئا	تركن إليهم شيئا
١٥٦	٥ من أسفل	العالم	العلم
١٥٦	٥ من أسفل	كفرو	كفروا
١٦٥	٣ من أسفل	لعفور	لعفو
١٧٠	١٤ من أعلى	وإن	وأن
٢٠٧	٨ من أعلى	لا يستنقذوه	لا يستنقذوه
٢٢١	٧ من أسفل	لتكوونوا	لتكونوا
٢٣٣	٦ من أسفل	كله	له



رقم الإيداع ٨٦٦٩ / ٨٨